القضية الأولى :

القرآن .. لفظه ومعناه

« القرآن » — هذا اللفظ — الذى صار « علماً » على هذا الكتاب الكريم، والذى حمل شريعة الإسلام — ما معناه فى لسان العرب ؟ وهل هو عربىّ أم معرب ؟ وهل هو اسم مشتق أو جامد ؟ وإذا كان مشتقاً، فما هو فى المشتقات ؟

لقد وقع خلاف كثير بين العلماء فى الإجابة على هذه الأسئلة ، وعلى كثير غيرها مما يتصل بهذا اللفظ . .

ونحن نجمل القول فيه . فيما يلى :

ما معنى « قرآن » ؟

١ — قال « قتادة » : القرآن معناه التأليف . . يقال : قرأ الرجلُ إذا جمع وألّف قولا ، وبهذا فسّر « قتادة » قوله تعالى : « إن علينا جَمْعَه وقرآنه » أى تأليفه . . وهذا نحو قول الشاعر :

ذِراعَىْ عيطَلٍ أدْماء بِكرٍ هِجَانِ اللون لم تقرأْ جنيناً(١)

أى لم تجمع فى بطنها ولدا .

٢ — وقيل : القرآن . . مصدر من قولك قرأ الرجل إذا تلا . . يقال : قرأ يقرأ قرآناً ، وقراءة ، وحكى أبو زيد الأنصارى « قَرْءًا » أيضاً . .

ومن هذا قول حسان بن ثابت يرثى عثمان بن عفان رضى الله عنه :

ضحّوا بأشْمَطَ عنوانُ السجود به يقطّعُ الليلَ تسبيحًا وقرآنا

أى قراءة(٢) .

---

(١) هذا البيت من معلقة عمرو بن كلثوم .

(٢) مقدمة التفسير لابن عطية ص ٢٨٢ رسالتان .

٣ — وقيل هو اسم علَم غير مشتق ، خاص بكلام الله تعالى ، فهو غير مهموز ، وبه قرأ ابن كَثِير « قُرَان » — من غير همز — وهو مروى عن الإمام «الشافعى » .

٤ — وقال قوم منهم الأشعرى : هو مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر ، وسمى به القُران . . — من غير همز —

٥ — وقال « الفراء » هو مشتق من القرائن ، لأن الآيات منه يصدّق بعضها بعضاً ، ويشابه بعضها بعضاً ، وهى قرائن ، وهو غير مهموز .

والذى نراه . . أن «القرآن» مصدر للفعل قرأ قراءة وقرآنا ، أى حرّك لسانه بالكلام . . وقد كان أول ما نزل على الرسول الكريم من القرآن قوله تعالى : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ »(١) . . وهذه التسمية أولى ، لأنها أول كلمة نزلت من القرآن ، فناسب أن تكون عنوانا له .

هل لفظ قرآنه عربى أو معرب ؟

من عجب أن يدعى أصحاب « الشطحات » من المستشرقين أن كلمة «قرآن» ليست عن أصل عربى ، وإنما هى معربة عن العبرية أو الحبشية ، أو النبطية . . إلى غير ذلك من المغربات التى يحاولون أن يظهروا بها فى الناس أنهم يعلمون دفائن العلم وخباياه ، والحق أنهم إنما يتخرصون تخرصات أشبه بتخرصات الكهان ! إنها رميات طائشة . . قد تصيب ، وقد تخيب أكثر مما تصيب !

وأعجب من العجب أن يتلقى كثير منا هذه الأقوال ، بل ويتلقفوها فى لهفة وحرص ، كأنهم عثروا على ذخيرة من ذخائر العلم ، أو مكنون من مكنوناته ، ظانين أن كشوف العلم لا تجىء إلا من بعيد . . من أوربا أو أمريكا ، حتى ولو كان هذا العلم علم العرب ، ولسان العرب ، ودين العرب ! ! إن ذلك هو الخزى والخسران!

(١) سورة العلق : ١ — ٣

ونسأل : هل ضاقت اللغة العربية كلها عن أن تجد الكلمة التى تجعلها عنوانًا لكتابها المبين ؟ وإذا عجزت اللغة العربية عن أن تقدم كلمة واحدة هى رايتها ، والشارة الدالّة عليها ؛ فكيف تستطيع أن تحمل هذه اللغة معجزة ، أسامها الكلمة ، وبيّنتها الكلام ؟ هل يعقل هذا ؟

لقد كانت كلمة « قرأ » ومشتقاتها من أكثر الكلمات جريانًا على الألسنة، فى الوقت المعاصر للرسالة النبوية الكريمة ، وكانت قريش قد بدأت تُظهر عناية خاصة بأمر القراءة والكتابة . . فلما نزل القرآن تلقاه المسلمون فى صدورهم ، وجعلوا يتلونه ويقرءونه مما حفظت صدورهم ، وكان المسلم حيث كان ؛ يردّد ما حفظ من آيات الله . . قارئًا لنفسه ، أو مقرئًا غيره . .

وقد أمر الله النبى صلى الله عليه وسلم أن يقرأ على الناس ما ينزل عليه من كلمات الله :

« وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لتقرأهُ عَلَى الناسِ عَلَى مُكْثٍ »[1] .

أفبعد هذا يستقيم لقائل أن يقول إن لفظة « القرآن » غير عربية؟ إن ذلك القول بأن لفظ القرآن غير عربى أشبه بقول من يقول : إن لسان العرب غير عربى إذ القرآن هو معجزة هذا اللسان ، وإذ لفظة « القرآن » هى عنوان هذا القرآن ؟

* * *

ولا نقف عند هذا السّخف أكثر من هذه الوقفة ، لنَدحَض تلك الفرية الداحضة ، ولنفضح هذا البهتان العظيم !

* * *

---

(١) سورة الإسراء آية ١٠٦

شخصية القرآن

ونعني بشخصية القرآن ما يسمى فى هذا العصر « بطاقة تحقيق الشخصية » التى تكشف عن حقيقة الإنسان وتدل عليه . .

وشخصية القرآن بهذا المعنى أوضح وأصدق شخصية يعرفها التاريخ . . إذ قامت عليها شواهد كثيرة تؤكد صحتها ، وسلامتها من التحريف أو التبديل . . وذلك :

أولا : التاريخ القرآنى الذى يؤكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يُملى على أصحابه ما ينزل عليه من آيات الكتاب أولا فأولا ، وأن أصحابه قد تلقوا ما نزل من الوحى فحفظوه فى صدورهم ، بعدَ أو قبلَ ما كتب كتّاب الوحى ما نزل منه . .

وثانياً : كان النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون يقرءون فى الصلاة المكتوبة ، والنوافل ، بالليل والنهار ، كل يوم قدراً كبيراً من القرآن ، بل وكثير منهم كان يقرأ كل ما نزل من القرآن فى يوم أو بعض يوم . .

وثالثاً : أن الله سبحانه وتعالى . . قد وعد بحفظ القرآن من أن يطرأ عليه خَلَل أو نقص وذلك فى قوله تعالى :

« إنّا نَحْنُ نَزّلْنا الذِّكْرَ وَإنا لَهُ لَحَافِظُون »[1] .

وفى قوله سبحانه :

« لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ به .. إنّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرآنه »[2] .

---

(١) سورة الحجر آية ٩ (٢) سورة القيامة آية ١٦ — ١٧

ورابعاً : كان اليهود ، وهم أهل كتاب ، وأصحاب علم ودرس — كانوا يرصدون حركات النبى ، ويتوفرون على التماس السقطات والزلات فى أصل الوحى وصلة الرسول بالسماء ، وفيما كان ينزل عليه من قرآن . . ولو أنهم وجدوا سقطة لطاروا بها ، وللأوا الدنيا تشنيعاً وتهويلا . . وهم مَغيظون مُحنَقون ، يحسنون الكيد والدس . . ولم يسجل التاريخ — تاريخ اليهود أنفسهم — أنهم قالوا فى القرآن الكريم قولا ، على كثرة ما كان من القرآن من ذمهم وتقريعهم ، وكشف معايبهم ، وفضح نواياهم الخبيثة . . ثم جاء نصر الله والفتح ، فأجلاهم الإسلام عن الجزيرة العربية كلها . . وكان مجال القول والتشنيع أمامهم فسيحاً ، ولكن الله أخرسهم ، وضرب على ألسنتهم ، فلم يقولوا فى القرآن كلمة يطعنون بها على « شخصيته » ، فى صورته التى هو عليها ؛ من يوم أن نزل إلى يوم الناس هذا .

وخامساً : الفرق الإسلامية الكثيرة التى قامت منذ صدر الإسلام ، وقد اشتد بينها الخلاف ، وكثُرَ الجدل . وطلَب كل فريق وجه الغلَب بأى سبيل ، فكثر لذلك التقوّل على رسول الله ، كما كثرت مذاهب التأويل لآيات الكتاب ، تأويلا يذهب إلى غايات الكفر والإلحاد . .

ومع هذا فلم يكن من بين هذه الفرق حتى تلك التى خرجت من الإسلام فى شحطاتها وتأويلاتها — لم يكن لأىٍّ منها أن يجرؤ على أن يزيد كلمة أو حرفاً فى آى الكتاب الكريم ، فضلا عن آية أو سورة . .

وليس ذلك إلا لأن القرآن كان من وضوح الشخصية وتحديد معالمها بحيث لا يمكن أن يجد أحد سبيلا إلى زيادة حرف ، فضلا عن كلمة ، وفضلا عن آية !

وصدق الله العظيم الذى صدق وعده ، وحفظ كتابه !

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

فإذا جاء بعد هذا من يدخل فى دعوى يدعيها على القرآن استناداً إلى رواية مختلفة ، أو خبر مكذوب — فإنه يجب أن يُردَّ رَدَّ الكافرين المفترين ، إذ مضى أصحاب الشأن الذين كان لهم أن يسجلوا على القرآن مثل هذا الادعاء فى حينه وكان فى يدهم كل وسائل الإذاعة والتسجيل ، والتشهير — وأعنى بهم اليهود — ولكنهم لم يفعلوا ، وان يفعلوا ، فسقطت بهذا دعوى كل مدع ، وافتراء كل مفترٍ أثيم .

وعلى هذا ، فإننا لا نعرض صوراً من هذه المفتريات ، ولا نقيم منها دعوى تحتاج إلى نظر فيها ، وحكم عليها ، إذ كانت أيدٍ ممدودة تريد أن تحجب ضوء الشمس عن هذا الوجود ، وكان من الهزل والسخف أن يحاول عاقل الدفاع عن الشمس ويعدُّ هذا عدواناً عليها ، أو تعطيلا لرسالتها فى الحياة .

نظم القرآن

يَحكى « الخطابى[1] » فى كتابه : « بيان إعجاز القرآن » وجوهًا منكرة لتلك المقولات المفضوحة التى تطعن فى فصاحة القرآن وعلو مقامه فيها . . ثم يتولى تفنيدها ودحضها . .

يقول الخطابى :

« فإن قيل » : إنا إذا تلونا القرآن ، وتأملناه ، وجدنا معظم كلامه مبنيًا ومؤلفًا من ألفاظ مبتذلة فى مخاطبات العرب ، مستعملة فى محاوراتهم ، وحظ الغريب المشكل منه بالإضافة إلى الكثير من واضحه ،قليلة .. وعدد الفِقَر والغرر من ألفاظه بالقياس إلى مباذله ومياسيره عدد يسير .

«فكيف يُتوهم عليهم — أى على العرب — العجزُ عن معارضته ، والإتيان بمثله ، وهم عرب فصحاء ، مقتدرون على التصرف فى أودية الكلام ، عارفون بنظوم قصيده ، ورجزه ، وسجعه ، وسائر فنونه ؟

« وإنما عاقهم عن ذلك رأى آخر كان أقوى فى نفوسهم ، وأجدى عليهم فى مبلغ آرائهم وعقولهم ، وهو مناجزتهم إياه الحرب ، ومعاجلته بالإهلاك استراحة إلى الخلاص منه ، وكراهة لمطاولته على القول ، ومعارضته بالكلام الذى يقتضى الجواب ، فيتمادى بهم الزمان للنظر فيه ، والانتقاد له ، فتكثر الدعاوى ، ويخفى موضع الفضل بين الكلامين !. فمالوا إلى هذا الرأى قصداً إلى اجتياحه واستئصاله ، إذا كانوا فيما يرون مستظهرين عليه مستعلين بالقدرة » !

هذا ضرب من ضروب الافتراء على القرآن ، والتطاول عليه فى المقام الذى تطاول به ، وقهر العرب من جهته . . وهو الفصاحة والبيان !

وأنت ترى كيف بلغ هذا اللّجاج فى العنت ، واستكراه الباطل على أن يلد باطلا ؟ . .

وأى زور وبهتان وافتراء على الواقع والتاريخ بعد هذا الزعم بأن العرب لم يعجزوا عن معارضة القرآن ، ولو أنهم اتجهوا إلى ذلك لكان فى متناول أيديهم ، وأنهم إنما عدلوا من معارضة القرآن بالقول إلى معارضته بالسيف ، لأن السيف فيه حسم للأمر الذى بينهم وبين محمد ، ولأنهم كانوا مستظهرين بالقوة معتزين بها ، مقتدرين على الغلب ! أى بهتان وأى زور هذا ؟

ونسأل : لماذا لم تلجأ قريش إلى السيف من أول يومها مع النبىّ ؟ ولماذا

---

(١) الخطابى هو أبو سليمان أحمد بن محمد بن ابراهيم الخطابى ، صاحب الرسالة فى بيان إعجاز القرآن (٣١٩ — ٣٨٨)

تطاوله عشر سنين فى مكة . . من مبعثه إلى هجرته ؟ وهل كان وهو بين يديها فى مكة أقوى منه وهو فى المدينة بين المهاجرين والأنصار ؟

إن قريشاً لم تحتكم إلى السيف ، لأن فيه القضاء عليها ، وتمزيق وحدتها . .

ولقد حاولت أن تحمل النبىّ على ترك دعوته بكل وسيلة . . وعرضت عليه المال الكثير من مالها ، ونزلت له عن سلطانها ليكون هو صاحبَ السلطان عليها.. وأنها لم تحمل السيف إلا حين أعجزتها كل حيلة فى صرف النبىّ عن أمره !

ولقد كان الاتجاه إلى معارضة القرآن ، والنزول إلى الميدان الذى دعاها النبىّ إليه ، وتحداها به — كان ذلك أقربَ شىء إلى إنهاء الخلاف الذى بينها وبين النبىّ ، ولكنها وجدت أنها ان تصمد فى هذا الميدان ، ولن تخرج منه إلا ومعها الخزى والهزيمة ! فعدلت عنه حفظاً لكرامتها ، وإبقاء على كبريائها . .

ونستمع إلى رأى الخطابى فى الرد على بعض هذه المفتريات .. يقول :

« وأما ماذكروه من قلة الغريب فى ألفاظ القرآن بالإضافة إلى الواضح منها ، فليست الغرابة مما شرطناه فى حدود البلاغة ، وإنما يكثر وحشى الغريب فى كلام الأوحاش من الناس ، والأجلاف من جفاة العرب ، الذين يذهبون مذاهب العنهجية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام ، وتنزيله ، والتخير له » .

ثم يذكر الخطابى زعماً آخر من تلك المزاعم . . فيقول :

«فإن قيل إننا لا نسلّم لكم ما ادعيتموه من أن العبارات الواقعة فى القرآن إنما وقعت فى أفصح وجوه البيان وأحسنها — وذلك — لوجودنا أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة ، وأهل المعرفة بها .

كقوله تعالى : « فأكله الذئب » وإنما يستعمل فى مثل هذا — فى فعل السباع خصوصًا — « الافتراس » .

«وأما قولهم : لو كان نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيز وقبيل ، لكان أحسن نظماً ، وأكثر فائدة ونفعاً !

« فالجواب : إنه إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعانى فى السورة الواحدة ، وفى الآى المجموعة القليلة ، العدد ـ لتكون أكثرَ لفائدته، وأعم لنفعه ، ولو كان لكل باب منه قبيل ولكل معنًى سورة مفردة لم تكثر عائدته . . ولكان الواحد من الكفار والمعاندين المنكرين إذا سمع السورة منه لاتقوم عليه الحجة به إلا فى النوع الواحد ، الذى تضمنته السورة الواحدة فقط .

فكان اجتماع المعانى الكثيرة فى السورة الواحدة أوفر حظًّا ، وأجدى نفعاً من التمييز والتفريد[1] .

« وهذا ردّ — فيما نراه — كفيل بإسقاط هذا الادعاء .. وإن كان يمكن أن يقام لهذا التدبير القرآنى فى مجيئه على تلك الصورة المنجمة — وجوه أوجَهُ وأوفى من هذا الوجه . . ولكن الدعوى أهون من أن يوقف عندها ، أو يُلتفت إليها . .

ولهذا فإنا لا نقف عند هذا الهذيان ، ولا نُلقى إليه بالاً ، ولانضيع معه وقتاً ، وها نحن أولاء نجاوزه إلى غيره من مقولات القوم . . لنرى ما يقولون ! !

يقولون : يقال : « افترسة السبع » . . هذا هو المختار الفصيح فى معناها . . فأما الأكل فهو عام ، لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع » . يريدون بذلك أن استعمال كلمة « أكله الذئب » غير مناسبة للمعنى ، وأن المناسب أن يقال : افترسه الذئب .

---

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص ٤٩

ويرد الخطابى على هذا بقوله :

« إن الافتراس معناه فى فعل السبع القتل . . حَسْبُ ، وأصل الفَرْس دق العنق . . والقوم ـ أى أبناء يعقوب ـ إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلا ، وأتى على جميع أجزائه ، وأعضائه ، فلم يترك مَفْصِلًا ، ولا عظمًا . .

وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم بأثر باق منه ، يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا « الأكل » ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة .

« والفَرْسُ » لا يعطى تمام هذا المعنى ، فلا يصلح ـ على هذا ـ أن يعبّر عنه إلا « بالأكل » .

ويجىء «الخطابى» بمقولات كثيرة من هذه الدعيات ، منها: قولهم فى قوله تعالى: « أنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ »[1] . . فهم يقولون :

«إن المشى فى هذا ليس أبلغ الكلام ، ولو قيل بدل ذلك « امضوا » أو « انطلقوا » لكان أبلغ وأحسن . » !

ويردّ الخطابى على هذا بقوله : « بل المشى فى هذا المحل أولى ، وأشبه بالمعنى. وذلك لأنه إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية ، ولزوم السجية المعهودة ، فى غير انزعاج منهم ، ولا انتقال عن الأمر الأول ، وذلك أن المشى أشبه بالثبات والصبر المأمور به فى قوله تعالى : «واصبروا على آلهتكم» والمعنى : كأنهم قالوا : امشوا على هيئتكم ، وإلى مَهوَى أموركم ، ولا تعرّجوا على قوله ، ولا تبالوا به».

وفى قوله : امضوا ، وانطلقوا ، زيادة انزعاج ليس[2] فى قوله « امشوا » والقوم لم يقصدوا ذلك ، ولم يريدوه »[3] .

---

(١) سورة : ص آية ٦

(٢) اسم ليس ضمير مستتر تقديره هو يعود على قوله « زيادة انزعاج » والجار والمجرور خبرها .

(٣) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ـ رسالة الخطابى ـ ص ٣٩ بتصرف .

ويعرض «الخطابى» أشباهاً لهذه المزاعم ، ثم ينقضها ، وهى فى حقيقتها مُنهارة من قبل أن يُعمل فيها معاولَ الهدم ، ولهذا فنحن لا نقف عند هذا الهذيان ، ولا نلقى إليه بالا ، ولا نضيع معه وقتاً . . وها نحن أولاء نجاوزه إلى غيره من مقولات القوم ، لنرى ما يقولون ! !

* * *

هذا ، وقد أثار بعض العلماء قديماً هذا السؤال : هل فى سور القرآن أو آياته ما يفضُل بعضه بعضاً ؟

يقول الزركشى فى كتابه البرهان :

« وقد اختلف الناس فى ذلك ، فذهب الشيخ أبو الحسن الأشعرى ، والقاضى أبو بكر ، وأبو حاتم بن حبّان وغيرهم إلى أنه لا فضل لبعضٍ على بعض لأن الكل كلام الله ، وكذلك أسماؤه تعالى لا تفاضل بينها . . وروى معناه — أى معنى هذا القول عن مالك ؛ قال يحيى بن يحيى : تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ ، وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها، واحتجوا بأن الأفضل يشعر بنقص المفضول . . وكلام الله حقيقة واحدة لا نقص فيه » .

وهذا القول هو المعوّل عليه فى هذا المقام ، لأن كلام الله تعالى صفة من صفاته وصفات الله تعالى على الكمال المطلق ، فلو كان فى كلام الله تعالى تفاضل ، لكان المفضول دون مرتبة الكمال المطلق الذى ينبغى أن يكون لله تعالى فى صفاته ، وأسمائه ، وأفعاله ثم يقول الزركشى : وقال قوم بالتفضيل لظواهر الأحاديث — أى الأحاديث التى وردت فى فضل سور القرآن — ثم اختلفوا ، فقال بعضهم : الفضل راجع إلى عظم الأجر ، ومضاعفة الثواب

بحسب انفعالات النفس وخشيتها وتدبرها وتفكرها عند ورود أوصاف العلى ، جل وعلا . . وقيل بل يرجع إلى ذات اللفظ ، وأن ما تضمنه قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » ، وآية الكرسى ، وآخر سورة الحشر ، وسورة الإخلاص ـ من الدلالات على وحدانيته وصفاته ، ليس موجوداً مثلًا فى : « تبَّتْ يدا أبى لهب » وما كان مثلها . . فالتفاضل إنما هو بالمعانى العجيبة وكثرتها ، لا من حيث الصفة . . وهذا هو الحق »[1] .

والحق أنّ القول بفضل سورة على سورة أو آية على آية ، هو عدوان على كمال الله تعالى، الممثل فى كل كلمة من كلماته وفى كل صفةمن صفاته .. فلا يصح أن يقال مثلا : إن صفة الكريم ، والرحيم ، والحليم ، والغفور ، أفضل من صفات المنتقم ، والجبار . . إذ كان كرمه تعالى ورحمته ، وحلمه ومغفرته، مثل انتقامه وجبروته ، . فى أنها جميعها قائمة على الكمال المطلق لعدله ، وحكمته .

وسنشير إلى شىء من هذا فى موضوع النسخ فى القرآن من هذا البحث عن تفسير قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » حيث أن فى هذه الآية دلالة على أن المراد بالنسخ نسخ الآيات الكونية ، لا الآيات القرآنية . . والآيات الكونية ، بعضها أفضل من بعض ، على خلاف الآيات القرآنية التى لا تفاضل بينها .

* * *

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى جزء ١ ص٢٣٨ وما بعدها .

القضية الثانية :

النسخ : ولا نسخ فى القرآن

أولا : النص القرآنى :

قال تعالى :

« ما ننسخ من آيه أو ننْسِها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كلّ شىء قدير » .

(١٠٦ : البقرة)

ثانيا : القضية فى إطارها القرآنى :

مسألة النسخ فى القرآن الكريم من الأمور التى كانت ولا تزال مثار جدل وخلاف بين علماء المسلمين ، كما أنها كانت ولا تزال داعيةَ تخرص وتقول على القرآن . . . من أعداء الإسلام .

وبكلمة واحدة نخرس أولئك الذين يتربصون بالقرآن وأهله ، ثم نتركهم فى غيظهم وكيدهم ، لننظر فى هذا الخلاف الذى بين المسلمين فى أمر النسخ .

والكلمة التى نقولها لأعداء هذا الدين هى قوله تعالى فى كتابه الكريم :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٩ : الحجر) .

فهذا التحدى القائم عليهم بحفظ الله تعالى للقرآن ، هو مقطع القول فيما بينهم وبين القرآن ، . . فإذا استطاعوا أن يبدلوا حرفاً أو يغيروا كلمة ، أو يزيلوا آية من كتاب الله عن موضعها — كان لهم أن يقولوا فى هذا الكتاب ما يحلو لهم ،

من تشنيع عليه ، واستهزاء به . . وهيهات هيهات . . فقد ذهبت سدى جميع المحاولات التى بذلها أعداء الإسلام ، منذ قام الإسلام إلى يوم الناس هـذا ، ليشوهوا وجه هذا الدين ، بالتشويش على كتابه ، والتشـكيك فى صحته ! . .

* * *

أما هذا الخلاف الذى بين المسلمين فى أمر النسخ ، فقد وقع نتيجة للاختلاف فى فهم الآية الـكريمة : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قديرٌ » (١٠٦ : البقرة)

فالذين قالوا بوجود « النسخ » فى القرآن ، وأخذوا بمنطوق هـذه الآية وحملوا معنى الآية على أنها الآية من كتاب الله — هؤلاء قد دارت أعينهم فى كتاب الله ، يلتمسون مصداق هذه الآية ، ويستخرجون لها الشواهد لآيات قرآنية منسوخة بآيات قرآنية ناسخة . . وقد وقعت أنظارهم على آيات يمكن أن تفسر عليها تلك الآية الـكريمة . . فـكان النسخ عندهم أمراً لابد من وقوعه فى القرآن ، إذ نطقت به آية كريمة من آياته ، ثم قامت بين يدى تلك الآية آيات من القرآن الـكريم قد نسخت بآيات أخرى . .

وإذن ، فالقول بوجود النسخ فى القول عند القائلين به ، قد جاءت آيات القرآن شاهدة له ، على المفهوم الذى فهموها عليه . .

والذين لم يفهموا الآية على هذا الوجه ولم يروا من الحتم اللازم أن يكون معنى الآية محمولا على الآية القرآنية — هؤلاء لم يروا فى القرآن ناسخا ولا منسوخا ، ثم جعلوا للآيات التى قيل إنها منسوخة ، وجهاً من التأويل ، بحيث يبقى حكمها كما بقيت تلاوتها . .

وكلا القولين : بالنسخ لبعض الآيات القرآنية ، أو بعدم النسخ ، لأية آية — كلا القولين لا يؤثر فى حقيقة القرآن ، ولا يغير من صورته أدنى تغيير . . فإن هذا الخلاف لا يعدو أن يكون خلافا فى تأويل آية من الكتاب الكريم . . وما أكثر هذا الخلاف بين علماء القرآن . .

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل .

فأولا : ما هو النسخ ؟

يجيء النسخ بمعنى المحو والإزالة ، وذلك كما فى قوله تعالى :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » .

(٥٢ : الحج)

فمعنى نسخ الله تعالى ما يلقى الشيطان فى أمنية الرسول ، هو إزالته ، وإبطال أثره . .

ويأتى النسخ بمعنى النقل من موضع إلى موضع ، ومنه نسخت الكتاب أى نقلت ما فيه إلى كتاب آخر . . قالوا : ولا يقع هذا المعنى من النسخ فى القرآن ... إذ نقل الآية أو الآيات من كتاب إلى كتاب لا يسمى نسخا بالمعنى الذى يفهم منه إزالة حكم الآية أو تلاوتها . .

ويأتى بمعنى الكتابة ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » أى نكتبُ ما عملتم ، ويشهد لهذا قوله تعالى : « إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل شىء أحصيناه فى كتاب مبين » .

ويأتى بمعنى التبديل وتغيير موقع الآية من موضع إلى موضع كما فى قوله سبحانه : « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالُوا إنما أنت مفتر » (١٠١ : النحل) .

هذا هو النسخ فى لسان الشرع ، وهو فى اللغة قريب من هذا ، فيقال : تناسخ الشيئان : إذا حل أحدهما محل الآخر ، كما يتناسخ الليل والنهار ، ويقال تناسخت الأزمنة : أى تبع بعضها بعضا ، ومنه تناسخ الأرواح ، بمعنى انتقال الروح من بدن إلى بدن ، عند من يعتقد هذا المذهب ، ومنه نسخت الشمس الظل ، إذا أزالته ، وذهبت به ، وأقامت ضوءها مكانه .

وثانيا : ما هو المنسوخ ؟

اختلف العلماء فى المنسوخ ، فقيل هو ما رفع تلاوة تنزيله ، كما رفع العمل به .. ورُدَّ هذا القول بأن الله نسخ التوراة والإنجيل بالقرآن ، وهما متلوان .

وقيل لا يقع النسخ بمعنى رفع التلاوة فى قرآن نزل ، وتُلى ، ذلك أن القول بأن من القرآن ما نزل وتلى ثم رفع بالنسخ — فيه تعسف شديد ، ومدخل إلى الفتنة والتخرص .

فاذا ساغ أن ينزل قرآن ، ويتلى على المسلمين ، ثم يرفع ، ساغ لكل مبطل أن يقول أى قول ، ثم يدّعى له أنه كان قرآنا ثم نسخ . . . وهكذا تتداعى على القرآن المفتريات ، والتلبيسات ، ويكون لذلك ما يكون من فتنة وابتلاء حمى الله تعالى كتابه الكريم منهما ، وتكفل سبحانه وحده بحفظه ، كما يقول جلّ شأنه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ثم من جهة أخرى : ما حكمة هذا القرآن الذى ينزل لأيام أو لشهور ثم يرفع ، فلا يتلى ، ولا يعرف له وجه بعد هذا ؟ أيكون هذا الرفع بقرآن يقول للناس : إن آية كذا رفعت تلاوتها ، فلا تجعلوها قرآنا يُتلى ؟ وهذا غير ممكن الوقوع لأن معناه — كما ترى — هو إبقاء التلاوة ! ! أم أن هذا النوع من النسخ يقع بمعجزة ترفع من صدور الناس ما قد حفظوا من هذا القرآن المنسوخ ؟

وإذا رفع بتلك المعجزة من الصدور، فهل تكون هناك معجزة أخرى يُرفع بها ما كتب بأيدى كتاب الوحى بين يدى النبى ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يملى على كتاب وحيه كل ما ينزل عليه من آيات ربّه ، أولاً ، فأولاً . . ؟ وإذا رفع من الصدور أو من الصحف المكتوبة بمعجزة من المعجزات ، فما الذى يدل على أن قرآنا كان ثم رفع؟ .. إن هذا القول مسرف فى البعد عن مجال المنطق والعقل ! ولكنّ فتح باب القول بالنسخ — على أية صورة — جعل لأهل المماراة والجدل ولأصحاب الأهواء والبدع ، مدخلا إلى مثل هذه المقولات استكمالا للصورة المنطقية ، واستيفاء لجميع الاحتمالات والفروض .

وثالثاً : هل فى القرآن نسخ ؟

أكثر علماء المسلمين على أن فى القرآن نسخا ، وأن هناك آيات ناسخة وأخرى منسوخه بها .

ومعرفة الناسخ والمنسوخ ودراستهما ، مما اهتم له العلماء والفقهاء ، وجعلوه أصلا من أصول الدراسات القرآنية ، ومجازاً من المجازات التى يدخل بها العالم أو الفقيه فى جماعة العلماء والفقهاء .. فمن لم يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ، فلا مدخل فى باب العلماء والفقهاء ! !

وقد استند القائلون بالنسخ فى القرآن إلى قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » (١٠٦ : البقرة) .

وقد أسعفهم النظر فى آيات القرآن الكريم بشواهد تؤيد — من قريب أو من بعيد — ما ذهبوا إليه من القول بالنسخ ، ووجدوا لهذا متأولا لما قالوا بأنه ناسخ أو منسوخ .

ومن أمثلة هذا آية الوصية ، وهى قوله تعالى : « كتب عليكم إذا حضر

أحدكم الموت إن ترك حيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » .
(١٨٠ : البقرة)

فهذه الآية ، قيل إنها منسوخة بآية المواريث ، وقيل بحديث : « ألا لا وصية لوارث » عند من يقول بنسخ القرآن بالسنة ، وقيل منسوخة بالإجماع ! !

والقول بنسخ القرآن بالسنة أو بالإجماع ، يصادم الآية الكريمة التى هى معتمد القائلين بالنسخ .. ذلك أن الآية الكريمة نص على أنه إذا كان نسخ القرآن — على ما فهمه منها القائلون به — فإن هذا النسخ لابد أن يكون بقرآن ، لا بسنة ولا بإجماع ، كما يقول سبحانه : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » — وما هو خير من الآية القرآنية أو مثلها ، لا يكون إلا آية قرآنية !!

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى :

« والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجا وصيةً لأزواجهم متاعا إلى الحول غيرَ إخراج » .
(٢٤٠ : البقرة)

قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى :

« والذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرا » .
(٢٣٤ : البقرة)

فقد كانت المرأة إذا مات عنها زوجها لزمت التربص بعد انقضاء العدة حولا كاملا ، وتنفقتها فى مال زوجها ، وهذا هو معنى قوله تعالى : « متاعا إلى الحول غير إخراج » فنُسخ ذلك بالآية المشار إليها ، وصار تربصها هو أربعة أشهر وعشرة أيام ، ولها نصيبها المعروف فى الميراث ، ولا نفقة لها ، ولا سكنى ، بعد مدة التربص ، التى هى أربعة أشهر وعشرة أيام . .

وسنعرض لهذه الآية فى مبحث خاص ، نعارض به القول بأنها منسوخة .

وهكذا يعدون الآيات المنسوخة والناسخة فى إحدى وسبعين سورة من القرآن الكريم[١] .

أما الذين يقولون بألا نسخ فى القرآن ، فيتأولون هذه الآيات ، ويعطونها الحكم الذى تضمنته . . . كما سنرى ذلك بعد قليل .

رابعاً : القول بأن لا نسخ فى القرآن :

يرى عدد غير قليل من العلماء أن النسخ فى القرآن ليس نسخاً بمعنى إزالة الحكم ، كما ذهب إلى ذلك القائلون بالنسخ . . وإنما هو نسأ وتأخير ، أو مجمل أخِّر بيانه ، أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره ، أو مخصوص من عموم ، أو حكم عام لخاص ، أو لمداخلة معنى فى معنى . وأنواع الخطاب كثيرة ، فظنوا — أى القائلون بالنسخ — أن هذا نسخ ، وليس به ، وأنه — أى القرآن — الكتاب المهيمن على غيره وهو نفسه متعاضد[١] » . أى يعضد بعضه بعضاً ، والنسخ من شأنه أن يجعل بعض آيات القرآن — وهى التى قيل بنسخها — غير عاملة ، حيث يبطل العمل بها بالآيات الناسخة لها . .

وبهذا التحقيق يتبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين فى الآيات الآمرة بالتخفيف ، من أنها منسوخة بآية السيف ، وهو قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (٢٩ : التوبة) .

---

(١) انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى : جزء ٢ ص ٤٤ .

والواقع أنها ليست كذلك ، بل هى من النسأ — أى التأخير — بمعنى أن كل أمر يجب امتثاله فى وقت ما ، لعلة توجب ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ، وليس بنسخ ، إذ النسخ معناه الإزالة .

وتطبيقا لهذا الرأى ، نجد أن لا تعارض ، ولا تناسخ بين الآيات التى تختلف أحكامها فى الأمر الواحد ، إذ أن كل حكم محكوم به حال خاصة به ، مقدرة له ، لعلة تدور معه وجودا وعدما . .

وفى الآيات الآمرة بالتخفيف عن المسلمين فى قتال المشركين ، والكافرين ، وآية السيف التى يقال إنها ناسخة لتلك — فى هذا شاهد لما نقول :

فمثلا . . قوله تعالى :

« يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » . (٦٥ : الأنفال)

وقوله تعالى بعد هذا :

« الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين » (٦٦ : الأنفال)

وليس بين الآيتين تعارض ، أو تناسخ ، وإن عرضا لأمر واحد ، واختلف منطوق الحكم فيهما .

فالآية الأولى تفرض على المؤمنين حكما فى حال ، هم فيها أهل للوفاء بهذا الحكم ، لما فيهم من قوة إيمان وثبات يقين . . فإذا كانوا على حال هم فيها على درجة من قوة الإيمان وثبات اليقين كتلك الحال — كان واجباً عليهم إذا التقوا

فى ميدان الحرب بأعدائهم من الكافرين — أن يثبت العشرون منهم لمائتين من أعدائهم ، وأن تثبت المائة للألف . وهذا يعنى بقاء حكم الآية الأولى قائما على المسلمين ، إذا ابستهم حال من قوة الإيمان ، يجدون معها هذا الرصيد العظيم من الصبر ، فيكون واجباً عليهم فى تلك الحال أن يغلب العشرة منهم مائة ، وأن تغلب المائة منهم ألفاً من الذين كفروا . . هذا إذا حملنا الشرط فى الآيتين على أنه فى معنى الأمر . أما إذا حملنا الشرط فيهما على معنى الخبر ، فإنه لا نسخ ، لأن النسخ لا يقع فى الأخبار ، كما يقرر ذلك القائلون بالنسخ . . وكل ما اشترطه الله تعالى من شرط على المسلمين ، هو من قبيل الخبر المحقق وقوعه ، كما فى قوله تعالى : « وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم » (٢٦ : الفتح) . . وكما فى قوله سبحانه : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه » (٢ـ٣ : الطلاق) وكما فى قوله جل شأنه : « ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً » (٢٣ : الجنّ » . . وهكذا إلى مئات من الآيات التى حملت شرطاً وجزاء مقيداً بهذا الشرط . .

فلما أن وقع الضعف فى المسلمين ، حين كثر عددهم ، ودخل فيهم من دخل ، وليس فيهم ما فى هؤلاء النفر القليل الكرام ، الذين سبقوا إلى الإسلام ، من كرم المعدن وصفاء الجوهر ، والتعرف على الحق ، والبدار إليه — لما أن كان هذا من أمر المسلمين حين عرض لهم ، عرض من الضعف والوهن ، مع كثرة العدد للداخلين فى الإسلام — خفف الله عنهم ، وجعل أمرهم يسرا ، فرض عليهم ألا تفرّ المائة من المائتين ولا الألف من الألفين .

وانظر كيف كانت أعداد المسلمين فى الآية الأولى « عشرون » و « مائة »

ثم أصبحت فى الآية الثانية هكذا : « مائة » و « ألفا » . . وإن ذلك ليكشف عن المعنى الذى أشرتُ إليه من قبل ، وهو أن الضعف الذى عرض للمسلمين فى هذا الوقت المبكر من الدعوة الإسلامية ، وعهد النبوة ، لم يكن من جهة المسلمين السابقين إلى الإسلام ، فهؤلاء كانوا كلما مرت بهم الأيام فى الإسلام ، وفى صحبة الرسول ، ازدادوا إيمانا مع إيمانهم ويقيناً إلى يقينهم ، ولكن الضعف الذى وقع ، كان جاريا على مجموع المسلمين ، حين كثر عدد الداخلين فى الإسلام !! ولا شك أن هذه الأعداد الكثيرة التى دخلت فى دين الله أفواجا ، لم يكن لها جميعها من وثاقة الإيمان وقوة اليقين ، ما كان فى هذه الصفوة التى سبقت إلى الإسلام . . فقد دخل فى الإسلام — بعد أن ظهر سلطانه ، وعزّت دولته ، كثير من الطامعين فى الاستظلال بظل هذه الدعوة التى مكنت لأصحابها فى الأرض ، ولهذا كانت نظرتهم إلى ظاهر الإسلام أكثر من نظرتهم إلى حقيقته . . وإنه لشتان فى هذا المقام بين حال المؤمنين الأولين من المهاجرين والأنصار وبين ، الذين دخلوا فى الإسلام يوم فتح مكة من سُمّوا بالطلقاء . . فإن كثيراً منهم دخل الإسلام بكل ما كان فى قلبه من ضغينة على الإسلام ، وأهله . . وحسبنا أن نشير هنا إلى غزوة حنين ، التى كان فيها مع المسلمين من مُسلمة الفتح أعداد كثيرة ، فقد كانوا عنصراً من عناصر الهزيمة التى وقعت بالمسلمين أولاً . . حتى لقد انكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يثبت معه إلا نفر من صحابته ، حتى إذا نادى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « يا أصحاب الشجرة » خرج هؤلاء الصحب الكرام من بين تلك الصفوف المنهارة المتخاذلة ، وأقبلوا تحت راية رسول الله — كان النصر ، والغلب . . وحسبنا أن نذكر ما يذكره التاريخ فى تلك الوقعة من شماتة أبى سفيان — وهو محسوب

فى المسلمين يومئذ — بالهزيمة التى واجهت المسلمين فى أول الأمر ، وقوله عن المسلمين : إنه لايردّهم عن طريق الفرار إلا سيف البحر !

وطبيعى أنه إذا عادت حال المسلمين إلى الحال الأولى التى كانوا عليها قبل هذا الضعف ، عاد الحكم الأول ، فإذا ضعفوا لزمهم حكم الآية الثانية ، الذى لا ينبغى أن ينزلوا عنه أبداً ، حتى فى أضعف أحوالهم . . المائة تغلب المائتين ، والألف تغلب الألفين .

وفى هذا مافيه من تكريم الإسلام والمسلمين ، ورفع درجة الجماعة الإسلامية بهذا الدين ، حتى فى أنزل منازلها ، وأسوأ أحوالها . . لأن حصيلة ما مع المسلمين من إيمان — مع ضعف إيمانهم — كفيل بأن ترجح معه كفة المؤمنين على الكافرين ، الذين ليس معهم من هذا الإيمان شىء . . فالإيمان سلاح إضافى من أسلحة المؤمنين ، لا يملك غير المؤمنين شيئا منه . .

* * *

« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » .

ونعود إلى الآية الكريمة ، التى فتحت على المسلمين باباً فسيحاً للتأويل ، ثم الخلاف فى هذا التأويل ، ثم الانتقال به إلى دائرة فسيحة فى القرآن ذاته . حيث يقال عن آيات كثيرة إنها منسوخة حكما ، وإن بقيت تلاوتها .

وإذ ننظر فى وجه الآية الكريمة ننظر أولا :

هل إذا جاء شرط فى القرآن الكريم . . أيجب أن يقع هذا الشرط . وأن يتحقق تبعاً لذلك جوابه ؟

والجواب على هذا : أن ليس من الحتم اللازم أنه إذا ورد فى القرآن أسلوب

شرطى أن يقع هذا الشرط ، وإنما الحتم اللازم هو ، أنه إذا وقع الشرط فلا بُدّ من أن يقع ويتحقق الجواب المعلق على وقوع هذا الشرط .

فما أكثر ما وردت أساليب شرطية فى القرآن غير مراد وقوعها ، وتحقيق جوابها . . ومن ذلك قوله تعالى ، لنبيه الكريم :

« وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » .
(١١٦ : الأنعام)

وقوله تعالى عن نبيه الكريم أيضا :

«ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين»
(٤٤ ـ ٤٦ الحاقة) وقوله تعالى خطابا له : « لئن أشركت ليحبطن عملك »
(٦٥ : الزمر)

فلم يقع شرط أى آية من هذه الآيات ، ولم يقع جوابها كذلك .

وعلى هذا ، يجوز فى الآية الكريمة . « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » — يجوز ألا يقع شرطها وجوابها ، وتكون من قبيل القضايا الفرضية ، التى يراد بها العبرة والعظة !

والذى نأخذه من هذا ، هو أن النسخ الذى أشارت إليه الآية الكريمة ، ليس لازما أن يقع ، وإنما وقوعه أمر احتمالى ، يشهد له الواقع ، أو لا يشهد ، فإن شهد له اعتُبر ، وإلا فلا .

وإذن فلا نستصحب هذا الحكم ، ونحن ننظر فى الآيات التى يقال إنها ناسخة أو منسوخة . . بل ننظر فى تلك الآيات نظراً منقطعاً عن كل تأثير لهذا المفهوم الذى فهمت الآية الكريمة عليه .

وأمر آخر : وهو معنى « آية » الواردة فى قوله تعالى : « ما ننسخ من

آية » . . هل من الحتم اللازم أن تكون تلك الآية آيةً قرآنية فى جميع الأحوال؟ لقد ورد فى القرآن الكريم الآية أكثر من معنى ، فناقة صالح آية : « هذه ناقة الله لكم آية » (٦٤ : هود) وعيسى ابن مريم وأمه آية : « وجعلنا ابن مريم وأمّه آية » (٥٠ : المؤمنون) وحبس لسان زكريا عن الكلام ثلاثة أيام آية : « قال ربّ اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » (٤١ : آل عمران) والذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها ، آية : « فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس » (٢٥٨ : البقرة) وكل من الليل والنهار آية « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » (١٢ : الإسراء) « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » (٣٧ : فصلت) وفى كل ما خلق الله من صغير وكبير ، فى الأرض أوفى السماء ، آية : « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (٢٠-٢١: الذاريات) .

وقد نظر أبو نواس إلى هذا المعنى ، إذ يقول :

[وفى كل شىء له آية . . . تدل على أنه الواحد] .

فالآية إذن ليست معنى لازما للآية القرآنية . . وعلى هذا يمكن أن يحمل معنى الآية هنا على وجه آخر ـ غير الوجه الذى ألزمها القائلون بالنسخ إياه ـ إذا كان ذلك مما يعين عليه المقام . . وسنرى .

* * *

والآن ننظر فى آية النسخ نفسها . .

« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها . . ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » (١٠٦: البقرة) . . هذه الآيه : قد جاءت مع آيات كثيرة غيرها

دفاعا عن أمر أراده الله للمسلمين ، وهو تحويل قبلتهم التى كانوا عليها ، من بيت المقدس إلى البيت الحرام .

وهذا التحول كان حدثا كبيراً من أحداث الإسلام فى حينه ، كما كان فتنة وابتلاء لكثير من المسلمين ، ومدخلا كبيراً للطعن فى الدين ، والتشويش على المسلمين .

فلقد فتح هذا التحول لقبلة المسلمين من بيت المقدس إلى المسجد الحرام — فتح هذا باباً لليهود الذين كانوا يرصدون كل حركة يمكن أن يدخلوا منها على المسلمين والإسلام ، بالكيد والفتنة . . فلقد انتهزها اليهود فرصة لإشاعة الأقاويل الباطلة المضللة ، فقالوا فيما قالوا : إن محمّدا يصور دينه ، ويلونه حسب هواه . . وأن تحوله بأصحابه فى الصلاة إلى مكة ، بعد أن كان يتوجه بأصحابه فى الصلاة إلى بيت المقدس — هذا التحول إنما كان من تدبيره ، ليخالف اليهود ، تحت تأثير الخصومة التى كانت بينه وبينهم . . ذلك أن هذا التحول لا يكون من شريعة الله ، لأن بيت المقدس — كما يقولون — هو وجهة الأنبياء جميعاً . . هذا من جهة . . ومن جهة أخرى فإنه لو كان الإسلام شريعة سماوية منزلة من عند الله ، لما كان من حكمة الله أن يأمر المسلمين بالتوجه فى صلاتهم إلى بيت المقدس قبل الهجرة ، ثم يدعهم يصلون نحو بيت المقدس نحو ثمانية عشر شهراً بعد الهجرة . . لأن هذا يعنى أنه قد بدا لله أمر لم يكن بداله . . والبُداء لا يجوز فى حق الله ، لأنه لا يكون إلا عن جهل ! !

هذا بعض مقولات اليهود الضالة المضللة ، فى هذا الحدث ، وقد كان هذا سبباً فى فتنة ضعاف الإيمان من المسلمين ، فدخل قلوبهم الشك ، وارتدّ بعضهم عن الإسلام . . ثم كان هذا سبباً أيضاً فى تصدّى بعض المسلمين — فيما بعد — للردّ على مقولة اليهود بأن هذا من البداء ، والبداء لا يجوز على الله ، وكان من

هذا أن تشكلت قضية النسخ ، وأنه يجوز أن يشرع الله تعالى حكما لزمن محدد ، ثم يحل محل هذا الحكم حكماً آخر لمرحلة جديدة من مسيرة الناس فى الحياة ، يناسب تلك المرحلة . . ومن أمثلة هذا أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى المسلمين فى أول الإسلام عن زيارة القبور ، لقرب عهدهم بعبادة الأصنام ، التى لا تختلف كثيراً عن مشاهد القبور ، فلما رسخ الإسلام فى قلوب المؤمنين ، أباح هذا الحظر ، بل وأمر بزيارة القبور ، وذلك فى قوله ﷺ . « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها ، فإنها تذكر بالموت » . . فقد كان الحظر منظوراً إليه على أنه حكم وقتى ، لمرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية ، ثم يجىء بعده الحكم العام ، بعد أن زالت العوارض التى كانت تعترضه . .

ونعود إلى قضية تحويل القبلة ، التى نسخت القبلة السابقة ، فنقول :

كان من تدبير القرآن الكريم لهذا الأمر ، أن قدم له هذه الآيات الكريمة ، قبل أن يقع ، لتكون إرهاصا به من جهة ، وقوة يستند إليها المسلمون فى دفع كيد اليهود ، ووسوسة الشيطان . . من جهة أخرى !

واستمع لتلك الآيات الكريمات ، مرة أخرى ثم استمع للأمر الذى جاء بعده :

ولكن قبل هذا ، أحب أن تستصحب معك آية النسخ هذه . ومناسبتها للآيات التى سبقتها . .

فلقد سبق هذه الآية مباشرة قوله تعالى : « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا من المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (١٠٥ : البقرة) فهذه الآية تصريح بما فى قلوب الذين كفروا من أهل الكتاب من كد وحسد ، لما كان من فضل الله على الناس ، باصطفاء

محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لهذه الرسالة الجامعة الشاملة ، التى تنسخ كل دين سماوى قبلها ، وتحيل أهل الكتاب جميعاً إلى كتاب الله الجامع لكل ما سبقه من كتب . .

فهذا النسخ للرسالات السابقة والكتب السابقة ، هو نسخ لآية من آيات الله وهو شريعة موسى ، وإذ نسخ الله تعالى تلك الآية ، فقد جاء بما هو خير منها أو مثلها . . فالقرآن خير منها من حيث أنه الذى حمل دين الله ، وهو الإسلام كاملا . . وهو مثلها ، لأنهما معاً من متنزل واحد ، ومن معدن واحد ، وهو الحق . . وكذلك الشأن فى تحويل قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى المسجد الحرام . . ففى ذلك خير مستحدث للمسلمين ، بعد الخير الذى حازوه بتوجههم إلى بيت المقدس . . فكلا القبلتين إلى بيتين كريمين من بيوت الله . . وهذا يعنى أن الله تعالى جمع للمسلمين الخيرين ، ووجههما إلى المسجدين ، وأورثهم منسك الدين كلّه ، وجعل من إيمانهم الإيمانَ برسل الله جميعاً ، وما أُنزل عليهم من كتب كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . (١٣٦ : البقرة)

فكان توجه المسلمين إلى بيت المقدس فى أول الإسلام ، إشارة إلى تلك الصلة التى بينهم وبين أنبياء الله ورسله ، الذين تقدموا نبوة محمد ورسالته . . فلم يكن توجههم إلى بيت المقدس إلا تثبيتاً لما أمرهم الله تعالى به من الإيمان بجميع رسل الله ، وبكل كتبه ، إيماناً عاما مجملاً ، لا يتصل بفروع الشرائع . . وإذ كانت جامعة رسل الله جميعاً ، وملاك دعوتهم ، هو الإيمان بالله ، وحده لا شريك له ، وإذ

كانت الصلاة فى جميع الشرائع السماوية هى أول وأهم ركن من أركان الدين . فقد كان من مقتضى حكمة الشريعة العامة الجامعة ، وهى شريعة الإسلام — أن تولى وجهها فى الصلاة أول ما تولّى إلى ما ولّى إليه أنبياء الله ورسله وجوههم ، وهو بيت المقدس . . ثم يكون بعد هذا ما ادخره تعالى لتلك الأمة من الاختصاص بالتوجه إلى البيت العتيق ، أول بيت وضع للناس ، كما يقول سبحانه : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً » (٩٦ — ٩٧ : آل عمران) وهذا الأمن الذى أضفاه الله تعالى على كل من لاذ بحمى هذا البيت ، تكريم لهذا البيت ، رفع لقدره عند الله ، الأمر الذى لم يشاركه فيه بيت المقدس !

وقد آن بعد هذا أن نلتقى بآية النسخ وما بين يديها من آيات :

« ما ننسخ من آية أو ننسها نأتِ بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير (١٠٦) ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولىّ ولا نصير (١٠٧) أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل و من يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل (١٠٨) » .

فهذا الاستفهام الإنكارى : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ » والذى يتوجه به القرآن إلى المسلمين — فيه تحذير لهم من أن يكونوا مع النبى ، كما كان اليهود مع موسى ، كلما جاءهم بأمر لم يتلقّوه بالامتثال والطاعة ، بل قابلوه بالجذر والريب ، وواجهوه بالأسئلة الكثيرة ، التى تنبىء عن خبث طوية ، وفساد سريرة .

روى أنه لما نزل قوله تعالى : « لله مافى السموات وما فى الأرض ، وإن

تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير » (٢٨٤ : البقرة) اشتد وقع هذه الآية على المؤمنين ، وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنحاسب على ما تحدّث به أنفسنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعلكم تقولون كما قال بنوا إسرائيل لموسى : « سمعنا وعصينا » ولكن قولوا : « سمعنا وأطعنا » فقالوا سمعنا وأطعنا فنزل هذا قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » . (٢٨٦ : البقرة)

وتحويل القبلة إذ ذاك كان أمراً وشيك الوقوع ، وقد كان المسلمون يصلّون إلى بيت المقدس منذ سبعة عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً ، فإذا وقع هذا التحويل نزعت بهم نوازع كثيرة تدعوهم إلى التساؤل : فيم كنا ؟ ولم هذا ؟ وهل سنتحول عن القبلة الجديدة فيما بعد ، أم سنظل عليها ؟ . وهكذا تتوارد الخواطر على كثير من النفوس ، وكثر التلفت عند بعض من الناس إلى هنا وهناك ، يطلبون جواباً على تلك الأسئلة التى تتزاحم فى رءوسهم . .

ثم إن من وراء ذلك ، اليهود ، يُلقُون إلى المسلمين بما يفتح للشيطان طرقاً كثيرة إلى قلوب لم يتوثق فيها الإيمان بعد . . فكان هذا التحذير من قبل أن يقع هذا الأمر الذى من شأنه أن يثير شكا وتساؤلا — كان هذا التحذير تدبيراً حكيما من حكيم عليم ، ووقاية للمسلمين من داء أصيب به اليهود من قبل ، فعزّ شفاؤهم منه ، ثم يقول سبحانه بعد هذا :

« ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتىَ الله بأمره إن الله على كل شيء قدير (١٠٩ البقرة) وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير » (١١٠ البقرة) .

وهذا تحذير آخر من الله سبحانه ، من أن يستمع المسلمون إلى ما يلقاهم به اليهود عند وقوع هذا الأمر — وهو تحويل القبلة إلى المسجد الحرام — من تلبيسات وتلفيقات وأكاذيب ، يريدون بها أن يَرُدّوا المؤمنين من بعد إيمانهم كفاراً ، للحسد الذى يملأ قلوبهم ، وينهش فى صدورهم من أن يكون لله سبحانه إحسان إلى أحد غيرهم من عباد الله .

وفى قوله تعالى :

« فاعفوا واصلحوا حتى يأتى الله بأمره » — فى هذا دعوة للمسلمين إلى الصبر على ما يكرهون من هؤلاء الحاسدين الذين يكيدون لهم ، ويريدون أن يردوهم من بعد إيمانهم كفاراً . . وذلك إلى أن يأتى الله بأمره ، ويقضى قضاءه فى هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب ، وهم اليهود .. وذلك ما كان ، فقد أخزاهم الله تعالى وأخرجهم من ديارهم ، وأورث المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم ، وطهر المدينة من أنفاسهم الخبيثة ، ثم طهر الجزيرة العربية كلها من مواطىء أقدامهم ، التى لا تتحرك إلا على النفاق والضلال . .

وقوله تعالى :

« وَأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وَما تقدِّموا لأنفسكم تجدوه عِند الله . إنّ الله بما تعملون بصير » .

هو دعوة للمؤمنين إلى أن يقيموا صلاتهم على أية قبلة يوليهم الله إليها ، وأن يؤتوا الزكاة ، وأن يقوموا على أمر دينهم كما أمرهم الله » .

ثم هو تنبيه للمسلمين أن يَمضوا إلى أمرهم الله به ، وأن يستقيموا على قبلتهم التى سيوجههم الله إليها ، غير ملتفتين إلى تخرصات المتخرصين ، وضلالات الضالين .

ثم يقول الله تعالى :

« وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى (١) مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) » .

هذا موقف من مواقف أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ إزاء المسلمين .. فاليهود يقولون : لا يدخل الجنة إلا من كان على اليهودية ، والنصارى يقولون : لا يدخل الجنة إلا من كان على النصرانية . . أى أن كل فريق منهما يرى أن دينه الذى يَدين به هو الحق ، ولا دينَ حق غيره . وأن قبلته التى يصلّى إليها هى القبلة الحق ، ولا قِبلةَ حق غيرها ! . . وتلك أمانىّ وأحلام ، لا بُرهان عَلَيْها . .

وأين ما للمسلمين مع هذين الادعاءين ؟ إن مكانهم معروف ، بعد أن أصبحت الجنة لليهود وحدهم ، أو النصارى وحدهم ! !

إذن فالمعركة بين ديانة وديانة . . وليست بين آية وآية من كتاب الله تنسخ إحداهما الأخرى . . الموقف هنا ، هو : أى دين ناسخ ، وأى دين منسوخ ؟ وقد قضى الله سبحانه وتعالى فى هذه القضية بقوله جل شأنه : « بلى من أسلم وجهه لله

---

(١) بلى : جواب بالإيجاب عن النفى قبله ، ولا تقع إلا بعد نفى ، ويكون ما بعدها مخالفاً لما قبلها فى الحكم : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » فكان الجواب : بلى أى يدخلها « من أسلم وجهه لله وهو محسن » .

وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . والإسلام ، هو إسلام الوجوه لله ، وإحسان القول والعمل . .

وإذن ، فقول اليهود والنصارى : « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » قول لا مستند له ، لأنهم بعد نزول القرآن لم يعد اليهود يهوداً ، ولا النصارى نصارى ، إذ لا دين إلا دين الله ، الجامع لليهودية والنصرانية ، وهو الإسلام . .

إن دين الله واحد . . يلتقى عنده المؤمنون جميعاً ، وتترجم عنه رسالات الرسل ودعوات الأنبياء جميعاً ، فمن آمن بالله وأسلم وجهه له ، دون التفات إلى سواه ، ثم استقام على طريق الحق ، فامتثل أوامر الله ، واجتنب نواهيه — مَنْ فعل ذلك فهو المؤمن حقا ، الموعود من الله بالجزاء الحسن والجنة التى عرضها السموات والأرض ، أعدت للمتقين .

واليهود يقولون إن ما يدين به النصارى هو الباطل ، والنصارى يقولون فى اليهود مثل هذا القول . . وكل منهما يرجع إلى كتاب الله . . كما يقول الله تعالى فيهم : « وهم يتلون الكتاب » .

وهذا يعنى أن الفريقين قد حرّفوا وبدلوا فيما بين أيديهم من التوراة والإنجيل ، وإلّا لما كان بين الفريقين هذا الترامى بتهمة الكفر ، إذ التوراة والإنجيل فى حقيقتهما على سواء ، فى الحق الذى نزلا به من عند الله ، ولهذا عبّر القرآن عنهما معاً بالكتاب : « وهم يتلون الكتاب » فكأن التوراة والإنجيل كتاب واحد ، وإن اختلفا رسولا ، وتباعدا زمناً .

ومن قبيل ما يقوله كل من اليهود والنصارى فى رمى كل فريق منهما الآخر بالكفر ، ما يقوله المشركون عن كل ذى دين غير دينهم ، وقد وصفهم

الله بأنهم « لا يعلمون » أى لا علم لهم من كتاب سماوى : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » وإذا كان للمشركين عذر فى اتهام أهل الكتاب ورميهم بالكفر ، فإنه لا عُذْر لأهل الكتاب ، لأن المشركين يقولون ما يقولون عن غير علم ، على حين يقول أهل الكتاب ما يقولون عن علم ، أو ما ينبغى أن يكون عن علم ! . وقد ضرب الإسلام على هذه المقولات كلها ، ولم تبق إلا كلمته ، ورسالته .. « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » .

ثم يجىء بعد هذا قوله تعالى :

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) . ولله المشرقُ والمغربُ فأينما تولُّوا فَثَمَّ وجهُ الله إن الله واسع عليم (١١٥) .

فى هاتين الآيتين ، تهديد ووعيد ، لأولئك الذين يحاولون أن يحتجزوا رحمة الله تعالى فى دائرة مغلقة عليهم ، دون الناس جميعاً ، والذين يتصورون بعقولهم المريضة ، أن ما بأيديهم وحدهم ، هو الحق الذى يسعهم ، وليس لغيرهم مكان فيه . . إن هؤلاء يظلمون الحق ، ويظلمون أنفسهم ، ويظلمون الناس . . ذلك أن هذا الفهم الخاطىء للحق ، يقيم فى كيانهم عصبية عمياء ، لا يرون معها إلا ذواتهم ، ولا يحسبون لأحد حساباً ، ولا يرعون لأحد حرمة ، ولهذا فهم — مع هذا الشعور — لا يجدون داعية لالتماس أى خير من أحد ، لأنهم بما عندهم فى غنى عن كل خير ، ثم إنهم لا يرون أحداً غيرهم مستأهلاً للخير ، بل الناس عندهم حيوانات مؤذية ، من صالحهم أن يتخلصوا منهم . .

واليهود يقومون بدور خطير فى هذا المجال ، بما يسوقون إلى المؤمنين من فتن ، وما يدخلون عليهم من تلبيسات وضلالات تثير الحيرة والبلبلة . .

وقد فعل اليهود هذا الكيد العظيم للمسلمين ، عندما أمر الله تعالى النبىّ والمسلمين معه ، أن يتحولوا بصلاتهم إلى المسجد الحرام . . فاتخذ اليهود من هذا مدخلاً إلى الفتنة ، يلقون بها بين جماعة المسلمين ، لعلها تصيب منهم مقتلاً . . ولهذا كان السّفه هو الوصف الذى وصف الله تعالى به اليهود فى هذا المقام ، فقال سبحانه : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » .

وفى قوله تعالى : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » . . إشارة إلى هذا الجرم الذى يرتكبه أولئك المنافقون من الكيد لدين الله ، ولبيوت الله — لا يُخليهم أبداً من شعور الخوف من افتضاح أمرهم لهذا الجرم الذى حملوه فى دخائل أنفسهم ، وخاصة إذا دخلوا هذه المساجد ، ليداروا نفاقهم ، وليشهدوا الناس على أنهم من أهلها ، شأن المجرم ، يحوم حول جريمته ، وقلبه يرجف خوفاً وفزعاً .

والمراد بالمساجد هنا ، هو المسجد الحرام ، الذى أصبح قبلة المسلمين ، والذى سيكون قبلة مساجد الله جميعاً . .

وفى قوله تعالى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تُولُّوا فثَمَّ وجه الله » ردٌّ مفحم على هؤلاء المنافقين الذين يحاولون أن يردُّوا المسلمين عن قبلتهم الجديدة التى وجههم الله تعالى إليها ، وأن يعملوا على خراب هذا المسجد ، والمساجد التى ستقام على سَمْته ، وتدور فى فلكه . .

وقوله تعالى : « إن الله واسع عليم » هو ردٌّ أيضاً على ضلال هؤلاء الضالين ، الذين أعمتهم أنانيتهم ، فحاربوا الله تعالى فى واقع رحمته التى لا حدود لها ، والتى يصيبُ بها من يشاء من عباده ، حسب علمه وحكمته ، فملك الله واسع

لا حدود له ، يعبده العابدون حيث كانوا . ويوجهون إليه وجوههم حيث اتجهوا : « فأينما تولُّوا فثمّ وجه الله . . إن الله وسع عليم » .

ثم يقول سبحانه بعد هذا :

« وقالوا اتخذ الله ولداً ، سبحانه ، بل له ما فى السموات والأرض ، كلٌّ له قانتون (١١٦) بديع السموات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون (١١٧) . .

فهذه مقولات من مقولات أهل الكتاب تكشف عن زيفهم ، وأنهم ليسوا على الحقّ الذى يدّعون أنهم أهله من دون الناس جميعاً . فاليهود يقولون عزير ابن الله ، والنصارى يقولون المسيح ابن الله ، وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا . . « إن كلّ من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » (٩٣ : مريم) .

وإذن فهؤلاء الذين لا يعرفون قدر الله ، ولا يؤمنون به ، ليسوا أهلاً لأن يقولوا شيئاً فى دين الله ، وإذا هم قالوا قولاً فليس لمؤمن أن يسمع لما يقولون . .

ثم يقول جل شأنه :

« وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم . قد بينا الآيات لقوم يوقنون (١١٨) . . إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم (١١٩)» .

وهذه مقولة أخرى لغير أهل الكتاب من المشركين ، ومن مشركى قريش خاصة ، الذين استمعوا لما يلغو به اليهود من تضليل ، حول تحويل القبلة . . حيث قويت ريب هؤلاء المشركين ، وزادت شقة الخلاف بينهم وبين رسول الله ، لما سمعوه من أباطيل اليهود . فقالوا لو كان محمد رسولاً لجاءنا بآية من تلك الآيات المحسوسة التى جاء بها الأنبياء من قبله إلى أقوامهم . .

وقد سماهم الله تعالى : « الذين لا يعلمون » لأنهم أميون ، والأمية غالباً لا تلد غير الجهل . .

وفى قوله تعالى : « تشابهت قلوبهم » — إشارة إلى ما بين أهل الكفر والفساد من نسب قريب فى تشابه القلوب ، وما فيها من عمى وضلال . . فهؤلاء المشركون هم على شبه قريب بأهل الضلال من الأمم السابقة ، الذين كانوا يتحدّون رسلهم بأن يأتوهم بالآيات والنذر التى أنذروهم بوقوعها بهم إن لم يؤمنوا بالله . .

وفى قوله تعالى : « قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون » — إشارة إلى آيات الله تلك ، المنزلة فى كلمات القرآن . . فهذه الكلمات هى آيات بينات ، لأهل البصر واليقين . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون » (٤٢ : العنكبوت) .

وأما قوله تعالى : « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » — فهو بيان لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومهمته القائم عليها من تلك الرسالة ، وهى أنه بشير ونذير ، يبلغ ما أنزل إليه من ربّه ، فيؤمن من يؤمن ، ويكفر من يكفر . . « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٢٩ : الكهف) . . وإنه لا على النبىّ شىء من كفر الكافرين ، الذين يصير بهم كفرهم إلى النار ، فلا يسأل عن كفر الكافرين ، ولا ما حملوا من أوزار . .

ثم يقول سبحانه :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولىّ

ولا نصير (١٢٠) الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » (١٢١) .

وهذا هو مقطع الفصل فيما تحدثت به الآيات السابقة عن الكيد الذى يكيد به أهل الكتاب — وخاصة اليهود — فى صدّ الناس عن سبيل الله ، وفى إلقاء الشبه والضلالات بين أيدى المؤمنين . . إنهم لن يرضوا عن النبىّ ، ولن يهادنوه ، حتى يترك دعوته ، ويدخل فيما هم فيهم ، فيكون تابعاً لهم ، لأنهم أهل كتاب . قبل أن يكون له كتاب ! ! هكذا يبلغ بهم السّفَه والضلال .

وقد جاء قوله تعالى ، « قل إن هدى الله هو الهدى » بياناً لهذا الذى بين يدى النبىّ ، وأنه الهدى الذى جاءه من ربه ، وأنه لا هدى إلا هذا الهدى المنزل من عند الله . .

وقوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولىّ ولا نصير » — هو تو كيد بأن ما مع النبىّ هو الهدى ، وأن العدول عنه إلى ما يدعو إليه أهل الكتاب من مولدات ضلالاتهم ، ومخلفات أهوائهم ، هو البوار والهلاك . .

فالمراد بهذا التهديد ، هم أهل الكتاب ، وخطاب النبىّ صلى الله عليه وسلم بهذا هو تعريض بهم ، وأنهم اتبعوا أهواءهم من بعد ما جاءهم العلم بأن مامع محمد هو الحق من ربّه .

ثم يجىء بعد هذا قوله تعالى :

« يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين (١٢٢) واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة ، ولاهم ينصرون » (١٢٣) .

وفى هذا تذكير لبنى إسرائيل بالنعم التى ساقها الله تعالى إليهم بما بعث فيهم من رسل . . وأنه على قدر هذه النعم يكون البلاء ، ويكون الحساب ، وقد مكر القوم بآيات الله ، وكفروا بنعمته ، فكان أن لعنهم الله ، كما لعن إبليس ، وأخرجه من عالم الملائكة . .

ثم يجىء قوله سبحانه :

« وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهنّ ، قال إنى جاعلك للناس إماماً ، قالَ : ومن ذريتى ؟ قال لا ينال عهدى الظالمين (١٢٤) » .

وقد اختُلف فى الكلمات التى ابتلى الله تعالى بها إبراهيم ، وتشعبت مذاهب المفسّرين لها . .

« ولعلّ أعدل طريق وأقومه فى هذا المقام ، هو أن نقف مع آيات الله عند حدود اللفظ القرآنى ، ولا نتجاوزه إلى مقولات يناقض بعضها بعضاً ، إن أُخذ بأحدها كان تَرْكُ غيرها مجازفة لا يؤمن معها الخطأ ، وإن أخذ بها جميعًا لم يكن للجمع بينها سبيل .

وهنا فى هذه الآية نجد أن بعضها يفسر بعضاً ، وأن قوله تعالى : « قال إنى جاعلك للناس إماماً » هو التفسير المناسب للكلمات التى ابتلى الله بها إبراهيم . . فالكلمات التى ابتلى الله بها إبراهيم هى قوله تعالى : « إنى جاعِلك للناس إماماً » والإمامة وإن تكن نعمة وفضلا من الله ، فهى ابتلاء ، لما لها من أعباء ، لا يقدر على حملها والوفاء بها على وجهها إلا أولو العزم من النّاس ، وقد كان إبراهيم قدوة للناس فى قيامه على هذه الإمامة ، فنوّه الله به فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم ، فقال : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذى وَفى » (٣٧ : النجم) أى وفّى الأمانة التى اؤتمن عليها ، وأداها على وجهها كاملة . ويَعْضِدُ هذا المعنى

الذى نراه ، ارتباطه بما سبقه من الحديث عن أهل الكتاب ، وأنهم حملوا أمانات فضيعوها ، وخانوا الله وخانوا أنفسهم فيها ، فلم يؤدوا أمانة ، ولم يفوا بعهد .

وقوله تعالى : « قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي » يمكن أن يكون هذا استفهاماً أو دعاء أى بمعنى : ربّ اجعلْ هذه الإمامة فى بعض ذريتى من بعدى . فكان جواب الحق جلّ وعلا : « لا ينال عهدى الظالمين » . . أى هذا عهد لا يمتد إلى الظالمين ، فمن سَلِم من ذرية إبراهيم من الظلم ، كان أهلا لأن ينضوىَ تحت هذا العهد ، ويأخذ ميراثه منه ، ومن دخل مدخل الظالمين ، ونقض عهد الله وميثاقه الذى واثق عليه العباد ، فليس له من هذا الميراث نصيب .

ثم يقول جل وعلا :

« وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » (١٢٥) .

وهذا فضل من الله ، اختصّ به مكاناً مباركاً ، فجعله حرماً آمناً ، يأوى إليه الناس ، فيجدون فى ظله السّكن والاطمئنان ! .

والمثابة : المرجع ، الذى يثوب إليه الناس ويرجعون .

والبيت : هو البيت الحرام بمكة ، وقد ذُكر مُعرَّفاً هكذا : « البيت » إشارة إلى أنه واحدُ البيوت كلها ، وأنه إذا ذُكر « البيت » كان هو هذا البيت . . البيت الحرام .

وفى قوله تعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » إشارة إلى أن هذا البيت سيكون قبلة الناس التى يتجه إليها كل مؤمن ، ويثوب إليها كلّ شارد ،

وأن من لا يتجه إليه ، ولا يدخل فى حماه ، فهو ضال ، حائر ، لا مأوى له ولا اطمئنان لقلبه ، ذلك الاطمئنان الذى يجده المؤمنون من هدى إيمانهم .

وفى قوله تعالى : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » التفات من غيبة إلى حضور ، ومن خبر إلى أمر ، للتنويه بشأن هذا البيت ، وبالأمر المتعلق به . . فهو دعوة إلى « الناس » جميعاً من كل جنس إلى اتخاذ مقام إبراهيم فى هذا البيت موضع صلاة ، وقبلة صلاة ، لله ربّ العالمين .

وفى قوله تعالى : « وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » التفات من أمر إلى خبر ، ليقوّى من شأن الأمر ، وليزيد فى ظهوره ، والعهد هنا ، معناه : التكليف والأمر . . وتطهير البيت : إعداده وتخصيصه للمؤمنين بالله ، فلا يقربه مشرك ، ولا يطوف به كافر ، ولا يعكف فيه للصلاة والعبادة إلا مؤمن خالص الإيمان ، لأنه طاهر ، ولا تجتمع الطهارة مع رجس الشرك ، ودنس الكفر ، والله سبحانه وتعالى يقول : « إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .

ثم يقول سبحانه :

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) .

وإذ جعل الله البيت الحرام مثابة للناس وأمناً ، وإذ جعله الله مقاماً لإبراهيم ، ومصلّى للمؤمنين ، وقبلة للمصلين ، وإذ عهد سبحانه إلى إبراهيم وإسماعيل بالقيام على هذا البيت وتطهيره من أن يُلمّ به رجس — إذ ذاك توجه إبراهيم إلى ربّه أن يبارك هذا

البيتَ وما حوله ، وأن يصيب هذا البلد الذى يقوم حول هذا البيت ببعض نفحاته وبركاته . . هكذا الطيب يعبق ريحُه ، فيطيّب الأجواء من حوله . . ومن شأن هذا البيت الطهور القُدُس أن يجد ريحه الطيب كلُّ شىء يدنو منه ، من إنسان وحيوان ونبات . . فأما كنه آمنة ، والناس فيها آمنون ، وحيوانها ونباتها آمن ، فلا يصاد حيوانها ولا يُعضَد شجرُها . « ربّ اجعل هذا بلداً آمناً ، أمناً مطلقاً ينال كلَّ شىء فيه حياة ، من نبات ، أو حيوان ، أو إنسان . . وفى هذا ما يشير إلى احترام الحياة حيث كانت ، لأنها نفخة من روح الله ، وأن هذا البيت هو بيت الله ، وهذا البلد هو حرم الله ، فوجب أن يُصان فيه كل متحرك حركة الحياة ، ولو كان على صورة نبات ! !

قوله تعالى :

« وارزق أهله من الثمرات » فهذا الرزق هو مما يكفل الأمن لأهله . . « مَن آمن منهم بالله واليوم الآخر » . . وفى قول إبراهيم : « بلداً آمناً » وقوله فى آية أخرى فى سورة إبراهيم : « رب اجعل هذا البلد آمناً » ما يشعر بأن بين « البلد » و « بلداً » فرقاً . . وهذا ما يحدّث عنه التاريخ ، من أن إبراهيم كانت له عودة إلى البلد الحرام بعد أن ترك إسماعيل وأمه فيها . . فحين تركهما لأول مرة كانت غير معمورة فهى « بلد » لم يكتمل بعدُ ، فلما عاد إليها بعد مدة كانت قد أخذت تعمر ، فهى « البلد » ! وقد تأدب إبراهيم مع ربّه ، ونظر إلى قوله تعالى « لا ينال عهدى الظالمين » فخصّ بدعائه هذا من آمن بالله واليوم الآخر ، حيث لا مكان فى هذا البيت القُدُس لمن كفر بالله ، ولكن رحمة الله تسع البَر والفاجر ، ومن طبيعة الحياة ألا يستقيم فيها الناس جميعاً على صراط الله ، فكان ردّ الله على إبراهيم أن سمع دعاءه فى المؤمنين ، أما من كفر ، فلا يحرم هذا الرزق المساق إلى البيت الحرام ، متاعاً له فى الدنيا ، وهو متاع قليل ، لا يعد شيئاً إلى ما فى

الآخرة من نعيم ، ثم يساق فى الآخرة إلى عذاب الجحيم ، قهراً وقسراً . .

ثم يقول سبحانه :

« واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (١٢٧) ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم (١٢٨) ربنا وابعث فيهم رسولا منك يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » (١٢٩) .

فى هذه الآيات ، خبر بناء البيت الحرام ، الذى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل ، والذى سيكون قبلة المسلمين ، فيما يأمرهم الله تعالى به فى الآيات المنزلة بعد هذا ، بالتوجيه اليه . .

وقد ذكر البيت قبل هذه الآيات ، وهو مستكمل وجوده ، وذلك فى قوله تعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمنًا » (الآية ١٢٥) . . وفى هذا مايشعر بجلال هذا البيت ، وقد سيته ، وأنه كان معدًا من قبل بيد القدرة ، وأن يدى إبراهيم وإسماعيل اللتين وُضعتا عليه ، ورفعتا قواعده بعد هذا ، إنما كانتا لإظهار هذا السر المضمر ، والقدر المقدور .

ثم يقول تبارك اسمه :

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين (١٣٠) إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين (١٣١) ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » (١٣٢) .

وفى هذا بيان لملة إبراهيم ، وللدّين الذى كان عليه ، وهو الإسلام . .

فإذا كان دين إبراهيم هو الإسلام ، وإذا كان البيت الذى أقامه إبراهيم هو المسجد الحرام ، ليعبد الله تعالى فيه — إذا كان ذلك كذلك ، كان هذا البيت بعد هذا قبلة كل مسلم يوجه وجهه إلى الله عابداً ومصلياً .

ثم يجىء بعد هذا قوله تعالى :

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ، قالوا نعبد إلهك ، وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحداً ، ونحن له مسلمون (١٣٣) تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون (١٣٤) وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين (١٣٥) قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (١٣٦) فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم (١٣٧) صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون (١٣٨) قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون » (١٣٩) .

وفى هذه الآيات ، مواجهة بين المسلمين وأهل الكتاب ، من اليهود والنصارى . . وفى تلك المواجهة يدعى اليهود إلى أن يُدلوا بشهادتهم فيما كان من يعقوب — إسرائيل — حين حضره الموت ، وقد استدعى بنيه إليه ، وأشهدهم على ما يعبدون من بعده ، فكانت شهادتهم أنهم يعبدون إله يعقوب ، وهو الله سبحانه وتعالى وهو إله آباء يعقوب ، إسماعيل وإسحق . . فهو إله واحد ، عبده أنبياء الله

من آبائهم ، وهم على دينهم ، مسلمون لله وجوههم ، لا يعبدون إلها غيره . .

وقد أبى أهل الكتاب أن يدلوا بشهادة الحق هنا ، وقال اليهود بعضهم لبعض : كونوا هوداً ، وقال النصارى بعضهم لبعض : كونوا نصارى . . ولو أنهم — هؤلاء وهؤلاء — شهدوا شهادة الحق ، لما كانوا يهوداً أو نصارى ، بل كانوا مسلمين ، كما كان آباؤهم الأولون مسلمين . . ولهذا جاء قوله تعالى : « بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » — جاء ضارباً على أقوالهم ، داعياً لهم أن يتبعوا ملة إبراهيم الذى كان حنيفاً مسلما ، وما كان من المشركين بالله ، كما هم الآن على الشرك : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً » (٣١ التوبة) .

ثم يتجه خطاب الله تعالى إلى المسلمين ، أتباع محمد بأن يقولوا : « آمنا بالله ، وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

وقد امتثل المسلمون أمر الله فآمنوا برسل الله وبكتبه جميعاً . .

فإن آمن اليهود والنصارى بمثل هذا الإيمان الذى آمن به المسلمون ، فقد اهتدوا ورشدوا ، وإن تولّوا فقد ضلوا وشقوا ، وإن كادوا للنبىّ والمسلمين ، فإن الله تعالى سيكفيه هذا الكيد ، ويردّه إلى نحور الكائدين . .

ثم يجىء بعد هذا قوله تعالى :

« أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ؟ قل أأنتم أعلم أم الله ، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ،

وما الله بغافل عما تعملون (١٤٠) تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » (١٤١) .

وهذا إنكار على أهل الكتاب — اليهود والنصارى — أن يقول اليهود إن إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، كانوا يهودا ، وأن يقول عنهم النصارى ، إنهم كانوا نصارى ، وقد أخبر الله تعالى أنهم لم يكونوا يهوداً ، أونصارى ، وذلك فى قوله سبحانه : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » : (٦٧ : آل عمران) وأهل الكتاب يعلمون من التوراة والإنجيل هذه الحقيقة ، ولكنهم يكتمونها ، ويشهدون زورا وبهتانا على خلافها ، وذلك ظلم مبين للحقيقة ، ولأنفسهم ، التى حجبوها عن الحق ، وأوردوها موارد الضلال والخسران .

ثم يختم الله هذا الموقف بين المسلمين وأهل الكتاب بقوله سبحانه :

« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » (١٤١) .

والأمة هى الجماعة ، ويراد بها هنا إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وأتباعهم ، وقد صار أمرهم إلى الله ، والخلاف فيهم لا ثمرة له ، وإنما يؤخذ كل إنسان بعمله ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

ثم تجىء بعد هذا الآية الكريمة : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » وقد كانت الآيات السابقة من ١٠٥ إلى ١٤١ — تمهيداً لها ، وكشفاً عن طبيعة هؤلاء السفهاء الذين سيلقون نسخ آية بيت المقدس بآية المسجد الحرام بالبهت والتضليل ويلاحظ أن الأمر فى هذه القضية قد جاء على خلاف المنطق البشرى ، حيث

جاء الرد على تلك السفاهة من هؤلاء السفهاء قبل أن ينطقوا بسفاهاتهم ، فكل ما سبق قوله تعالى « سيقول السفهاء من الناس » من الآيات التى أشرنا إليها كانت حججا دامغة لتلك السفاهة قبل الله تستعلن من أصحابها ، وقبل أن يأتى الأمر بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام . .

وهذا المنطق لا يكون إلا من تدبير حكيم عليم ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . . لقد كان فى علم الله أن تحويل القبلة لمن يستقبله اليهود إلا بالسفاهة والتطاول على كلام الله ، ولهذا فقد فضحهم الله تعالى قبل أن يجىء هذا الأمر الذى استقبلوه بالكيد ، والدسّ ، والافتراء . .

(عودة إلى النسخ)

فانظر كيف كان دفاع القرآن عن هذا الأمر الذى سيأمر الله تعالى به ، ويدعو المسلمين إليه ؟ إنه إلى الآن لم يجىء الأمر المرتقب ، وهو دعوة المسلمين إلى أن يحولوا قبلتهم إلى البيت الحرام . . ومع هذا فقد كانت تلك المواقف التى كشف فيها القرآن عن طوايا النفوس ، وما يحمل أهل الكتاب فى نفوسهم — وخاصة اليهود — من ضغينة وحقد على الإسلام ، كانت تلك المواقف إعجازاً من إعجاز القرآن .

وأنت ترى أن الأمر بتحويل القبلة لم يُذكر بعد ، بل إنه لم يقع حتى نزول هذه الآيات ، إذ كانت سورة البقرة من أول ما نزل من قرآن بالمدينة ، وقد مكث النبى والمسلمون معه يصلون إلى بيت المقدس — وهم بالمدينة — نحو سبعة عشر شهراً ، حتى جاء الأمر بتحويل القبلة فى قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام »

(١٤٤ : البقرة) وهذه الآية وما بعدها وإن كانت من سورة البقرة ، فإن نزولها قد جاء فى زمن متراخ شيئاً مابعد هذه الآيات التى كانت إرهاصاً بتحويل القبلة . . ولهذا لم يكن لأهل الكتاب ولا لغيرهم إلى الآن حديث عن هذا التحول ، وإنما سبق القرآن إلى الكشف عن المستقبل ، وأطلع المسلمين على ماسيلقى به أهل الكتاب هذا الأمر . !

وأول آية تلقانا بعد هذا هى قوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها (الآية : ١٤٢) . . إنهم لم يقولوا بعدُ شيئا ، ولكنهم سيقولون ، حين يجىء الأمر الذى قدره الله وأراده فى الوقت الذى وقته له .

وإنك لترى فى الآيات التالية بعد هذا كيف كان دفاع القرآن ، وكيف كان رده وردهه السفهاء ، المتطاولين على الحق ، المتربصين به وبأهله السوء ، حين يلقون بتلك المفتريات التى يستقبلون بها الأمر الذى أمر الله تعالى به المسلمين بتحويل قبلتهم إلى البيت الحرام . .

* * *

وإنك لترى من هذا كله أن آية النسخ كانت مقدمة الدفاع ، فى قضية التحول بالقبلة إلى المسجد الحرام . . وكأنها تقول للمسلمين ولأهل الكتاب : إن الله سبحانه وتعالى إذا نسخ آية من آياته ، أو بدل حكماً من أحكامه بحكم آخر ، فذلك بمقتضى حكمته ورحمته بعباده .

وقد نسخ الله كثيراً من الشرائع التى تقدمت شريعة الإسلام ، وأنساها الناس فلم يعد أحد يذكر عنها شيئا . . فأين رسالة نوح ؟ وأين صحف إبراهيم التى ذكرها القرآن

فى قوله تعالى : « إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى » ؟ وأين رسالات الأنبياء : صالح ، وهود ، وشعيب ، ولوط ؟

يقول ابن كثير فى تفسيره :

« والذى يحمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ هو الكفر والعناد ، فإنه ليس فى العقل مايدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى . . لأنه سبحانه يحكم ما يشاء ، كما أنه يفعل ما يريد . . كما أنه قد وقع ذلك — أى النسخ — فى كتبه المتقدمة ، وشرائعه الماضية ، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حُرِّم ذلك ، كما أحل لنوح عليه السلام بعد خروجه من السفينة ، جميع الحيوانات ، ثم نسخ حِلّ بعضها ، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه ، وقد حرم فى شريعة التوراة وما بعدها . وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ، ثم نسخة قَبْل الفعل . . » (١) .

وعلى هذا ، فإن أقرب مفهوم للنسخ الذى تشير إليه الآية : «ماننسخ من آية » هو نسخ الأمر بالتوجه بالصلاة إلى بيت المقدس ، وجعله إلى المسجد الحرام . . وكلا المسجدين آية من آيات الله ، إذ قاما بأمره تعالى وأفاض عليهما سبحانه من فضله ، «فإذا نَسَخ المسجدُ الحرام المسجدَ الأقصى ، فإنما هو نسخ آية بآية ، وتبديل نعمة بنعمة ! . . « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

أما قوله تعالى : « أو ننسها » ففيه قراءتان : نُنْسِها ، أو نَنْسَأها ، أى نؤخر رسمها من النسأ ، وهو التأخير . . يقال : نسأ الله فى عمرك أى أطال الله امتداد أجلك ، وأخر انقطاعه . .

---

(١) تفسير ابن كثير . الجزء الأول .

فعلى القراءة الأولى : يكون من النسيان ، بمعنى أنه تعالى يعفّى آثار بعض شرائعه التى شرعها ، وأحكامه التى فرضها فى أجيال الماضين . . قال أبو بكر الرازى :

« إنما يكون بأن يُنسيهم الله إياه ، ويرفعه من أوهامهم ، ويأمرهم بالإعراض عنه وكتبه فى الصحف ، فيندرس على الأيام ، كسائر كتب الله القديمة ، التى ذكرها الله فى كتابه ، فى قوله تعالى : « إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » . . . ولا يعرف اليومَ منها شىء » .

ونقول إن هذا المعنى — وهو النسيان — لا يمكن أن يقع لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فيما أنزل الله عليه من قرآن ، وشاهد هذا هو القرآن الكريم نفسه . . فهذه الآية التى تتحدث عن النسخ والنسيان ، آية مدنية فى سورة مدنية .. والله سبحانه وتعالى يقول لنبيه الكريم : « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى » ، — وهاتان الآيتان قرآن مكى ، من سورة مكية ، « سورة الأعلى » . . فهذا إخبار من الله للنبى صلى الله عليه وسلم أنه لا ينسى ما يقرؤه الله إياه من قرآن ، وأنه سبحانه سيتولى حفظه . . وأما قوله تعالى : « إلا ما شاء الله » فإنها مشيئة معلقة لم تقع ، مثل قوله تعالى : « ولو شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك » (٨٦ : الإسراء) [1] .

وعلى القراءة الثانية ، يكون من النسأ ، وهو التأخير ، ومعنى هذا أن الله سبحانه قد يؤخر نسخ آية إلى أجل معلوم ، كما أخر نسخ التوجه إلى بيت المقدس ، منذ وجه المسلمون وجوههم إليه فى الصلاة ، إلى أن أمروا بالتحول إلى المسجد الحرام . . بعد نحو سبعة عشر شهراً من الهجرة ! فهذا هو النسأ . .

---

(١) انظر تفسيرنا لهذه الآية فى سورة الأعلى

ونخلص من هذا كله ، إلى القول ، بأن آية النسخ ليست موجهة إلى نسخ آيات من القرآن الكريم ، بآيات أخرى ، وإنما إلى نسخ قبلة وإحلال أخرى مكانها .. وأن النسأ هو تأخير الحكم الذى دعى فيه المسلمون بالتوجه إلى البيت الحرام مدة بلغت سبعة عشر شهراً أو نحوها . كانوا يتجهون خلالها نحو بيت المقدس ، وذلك لحكمة أرادها الله تعالى ، فيها امتحان وابتلاء لعباده ، من مؤمنين ، وكافرين ومنافقين . .

تأويل بعض ما يبدو فيه النسخ

من آيات الأحكام ما يبدو فيها النسخ على ما تأولها عليه القائلون به . . ، إذا كانت القضية واحدة ، والأحكام فيها مختلفة ، وأوضح مثل لهذا ، الآيات التى جاءت فى « الخمر » ومثلها الآيات التى جاءت فى « الربا » .

فقد جاء فى « الخمر » آيات فى عدة مواضع من القرآن ، وفى كل موضع حديث عن الخمر يختلف عما تضمنته الآيات الأخرى ، وذلك فى صدد تحريمها ، ومثل ذلك ما ورد فى الربا .

ويرى العلماء القائلون بالتناسخ بين هذه الآيات ، أن ذلك لحكمة تربوية ، قصد بها التلطف فى الدخول على النفوس دخولا مترفقا ، فى تحريم أمور كانت ذات ارتباط وثيق بها ، وسلطان قاهر لها . . وفى انخلاع النفس عنها جملة ، مالا يؤمن معه سلامة النفس ، أو تقبلها لهذه الأوامر إذا هى حملت عليها دفعة واحدة ، على هذا الوجه المفاجىء ، فقد تخور قوى كثير من النفوس ، وقد تتصدع وتنحل ، إذا هى واجهت الأمر مرة واحدة دون إعداد وتمهيد .

* * *

ففى الخمر . . حين أراد الله أن يحرمها ، سلك ذلك المسلك التربوى الحكيم ، الذى لا يرى ألطف ، ولا أحكم ، ولا أعدل مدخلا منه إلى النفس .

١ — كانت أول إشارة إلى الخمر تلك الإشارة التى تضعها وضعاً غير كريم بين النعم التى أنعم الله بها على عباده ، وذلك فى قوله تعالى :

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقا حسنا » (٦٧ : النحل) .

فالرزق الحسن الذى يتخذ من ثمرات النخيل والأعناب ، ليس منه هذا السَّكَر الذى يتخذ من هذه الثمرات .. وإلا لكان قد وصف بأنه سَكَر حسن ، كما وصف الرزق بأنه رزق حسن .

وفى هذا ما يفتح للكثير من ذوى البصائر ، سبيلا إلى العزوف عن هذا السكر وتجنبه ، إذ كان رزقا غير حسن !

٢ — ثم تجىء الآية الثانية بعد هذا ، وفيها تشنيع على الخمر ، وتقبيح لها ، وفى هذا يقول الله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما أثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » (٢١٩ : البقرة) .

فقد قرنت الآية الخمر إلى الميسر ، وجعلتهما فى مقود واحد ، إذ كانا من فصيلة الشر والفساد على السواء . .

ومن تدبير القرآن الكريم فى هذا أنه لم يغفل الوجه الآخر لهذه المنكرات ، فكل شىء وإن بلغ ما بلغ من السوء ، له جانب آخر غير سىء . . إذ ليس هناك شر خالص ، أو خير محض ، فيما يدور فى دنيا الناس ، وفيما يتقلبون فيه .

فلم ينكر القرآن هذه الحقيقة الواقعة ، وهى أن الخمر والميسر منافع من بعض

الوجوه ، وعند بعض الناس ، ولكن هذه المنافع ليست شيئاً إذا هى قيست إلى جانب الإثم والشر اللذين ينجمان منهما .

فإذا ربح إنسان فى الميسر مرة ، فإن خسارته المحققة آخر الأمر أضعاف ماربح وإذا كسب المقامر مالا ، فإنه يخسر من تحطم أعصابه ، ومن هياج مشاعره واضطرابها مالا يقدّر بمال . .

إنه إذ يكسب المال ، فإنه يخسر سلامة جسمه وعقله جميعاً . . وشواهد الحال ، فى المقامرين تغنى عن كل مقال .

وإذا كان للخمر عند شاربها لذة أو نشوة فى أول عهده بها ، فإنها تنتهى به إلى تدمير كامل ، لقواه العقلية والجسدية والنفسية ، إن لم يكن فى جميع الأحوال ففى الغالب الأعم منها . .

٣ — ثم تجىء بعد ذلك إشارة أوضح وأصرح من سابقتها فى التحذير من الخمر . . إذ يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون » (٤٣ : النساء) فقد حرمت هذه الآية على المسلم أن يدخل فى الصلاة وهو فى حال سكر ، ولا يعلم معها مايقول .

والصلاة تتكرر فى اليوم خمس مرات ، فى أوقات متفاوتة ، تكاد تجعل الليل والنهار قسمة بينها ، وهيهات أن يشرب شارب الخمر عقب صلاة من الصلوات ثم تدركه الصلاة التالية ، وقد صحا من خُماره ، أو أفاق من سكره .

ولقد دعت هذه الآية كثيراً من المسلمين إلى أن يتجنبوا الخمر ، وألا يقربوها بحال ، على حين ظل بعضهم يلقاها من بين الحين والحين ، وفى حذر وإشفاق حتى لاتفوته الصلاة فى أوقاتها . .

٤ — ثم كانت الحاسمة . . فجاء قوله تعالى :

« إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » (٩٠ — ٩١ المائدة) .

وبهذا يجىء الحكم القاطع فى تحريم الخمر ، فتصبح منذ اليوم الذى نزلت فيه هاتان الآيتان الكريمتان ، محرمة على المسلم !

والسؤال الوارد بعد هذا : هو : ماذا يقال عن تلك الآيات التى تحدثت عن الخمر قبل هاتين الآيتين اللتين جاءتا صريحتين قاطعتين بتحريم الخمر ؟

أهى منسوخة بهاتين الآيتين ؟ وهل هناك سلسلة من التناسخ بينها ، بحيث ينسخ بعضها بعضاً . . اللاحق منها ينسخ السابق ؟

والجواب على هذا ليس جوابا واحدا .. فإذا قلنا بوجود النسخ فى القرآن كان واضحا أن هذه الآيات جميعها منسوخة بالآيتين الأخيرتين ، وكانت مراحل النسخ بينها متتابعة . . اللاحق منها ينسخ السابق !

أما إذا قلنا بأن لانسخ فى القرآن ، كان الجواب ، بأن هذه الآيات جميعها عاملة ، تلاوة وحكما ، وأن اللاحق منها هو منسأ تأخر نزوله ، ووجب امتثاله ، كل فى وقته ، لحكمة توجب ذلك الحكم الذى تضمنته الآية ؟

وهنا يلقانا هذا السؤال : كيف يمكن التوفيق بين هذه الأحكام المختلفة ، فى أمر واحد ، هو الخمر ؟

فالخمر : رزق غير حسن . .

والخمر : إثم ونفع ، وإثمها أكبر من نفعها . .

والخمر : هى محرمة مطلقة من كل قيد لأنها رجس من عمل الشيطان . .

هذه سلسلة من الأحكام ، واقعة على أمر واحد هو الخمر .

فأى هذه الآيات ، أو بمعنى آخر ، أى أحكام هذه الآيات يلزم المسلمين العمل ، والوقوف عنده ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال ، نسأل سؤالا آخر ونجيب عليه ، وهو : هل من شأن النهى القاطع الملزم الذى جاءت به آخر آية فى تحريم الخمر — هل من شأن هـذا النهى أن يحول بين المسلم وبين أن يشرب الخمر ؟ أو بمعنى آخر: هل فى هذا النهى من القوى الذاتية المـادية مايعصم المسلمين جميعًا من شرب الخمر أو يحميهم جميعا ـ فرداً فرداً ـ من الضعف النفسى إزاءها ؟

والجواب على هذا إنما نأخذه من الواقع التطبيقى فى الحياة ، للأوامر والنواهى ، التى جاءت بها الأديان ، وهى أن أى أمر أو نهى لا يستقيم الناس جميعا عليه ، ولن يلتزموه التزاما كاملا ، فما أكثر الذين يخرجون عن تلك الأوامر والنواهى ، فلا يأتون منها ما أمر الله به ، ولا ينتهون عما نهى الله عنه . بل أن الإنسان الواحد ، يستقيم ، ويعوج ، ويستقيم ، مع منهيات الشريعة وأوامرها جميعًا . . . فيتجنب المحرم ، ثم يقع فيه ، ويقع فى المنكر ، ثم يتجنبه . وهكذا . .

فالأديان تنهى عن الكذب ، وكثير من اتباع هذه الأديان يكذبون ، والأديان تنهى عن الظلم ، وكثير من اتباع هذه الأديان تنهى عن السرقة ، وكثير من اتباع هذه الأديان يسرقون . . وهكذا الشأن فى كل ما تأمر به الأديان أو تنهى عنه ، لا يستقيم الناس أبداً على أوامرها ونواهيها ، استقامة مطلقة ، تحتوى الناس جميعًا !

والأديان تعلم هذا مقدمًا ، ولهذا تفرض عقوبات دنيوية وأخروية ، للمخالفات التى تقع من اتباعها .. فقد نهى الإسلام عن السرقة ، ورصد

قطع يد السارق عقوبة له . . ونهى الإسلام عن الزنا ، وأمر بجلد الزانى مائة جلدة إذا كان غير مُحصن ، ورجمه إذا كان محصنا . .

والخمر التى نهى الإسلام عنها ، قد رصد الشارع العقوبة الرادعة لمن يشربها ، ولا ينتهى عما نهى الله عنه منها .

والسؤال هنا : إذا شرب مسلم الخمر . . فما موقف الإسلام منه ؟ وما موقفه هو من الإسلام !

أما الإسلام هنا ، فانه يراه آثما ، يستحق العقوبة الرادعة له فى الدنيا ، وهى الجلد ، وأمره إلى الله تعالى فى الآخرة .. إن شاء غفر ، وإن شاء أخذه بما ارتكب ، وأما هو — أى شارب الخمر — فهو على ما به من إثم — مُسْلِم . . آثم ، عاصٍ لله . .

ولا تلتفت هنا إلى قول من يقول بتفكيره . . فقد شرب الخمر من شربها من المسلمين فى عهد النبوة ، وفى عهد خلفائه الراشدين ، وقامت البينة القاطعة التى أوجبت الحد عليهم . . ومع هذا فقد بقى معهم إسلامهم ، وكانوا يشهدون مشاهد المسلمين فى الصلاة وغيرها ، وحسبنا فى هذا قصة أبى معجن الثقفى ، وقد كان فى مقدمة المجاهدين مع سعد بن أبى وقاص فى حرب القادسية . .

وإذن ، فقد يشرب المسلم الخمر ، يشربها ويدمغ بالإثم والعصيان ، ولكن على أى حال هو مسلم ، لا تسقط عنه الواجبات المفروضة على المسلم ، ومن بينها الصلاة . . وليس من حائل يحول بينه وبين الصلاة فى هذه الحال ، إلا أن يكون فى حال سكر ، لا يدرى معها ما يقول . . وهنا نجد الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » نجدها عاملة

غير معطلة ، فهى تفرض حكمها على من خالف ما نهى الله عنه — من أمر الخمر ، فشربها حتى سكر ، وهو ألا يقرب الصلاة حتى يصحو من سكره ، ويعلم ما يقول .

وتبقى بعد هذا الآيتان : الأولى والثانية ، وهى قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقاً حسنا » وقوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » .

وهاتان الآيتان تعرّضان بالخمر ، وتشنعان عليها ، وتضعانها موضعا غير كريم ، وتزنانها بميزان يقل فيه خيرها ويكثر فيه شرها . .

فهى رزق . . ولكنها رزق غير حسن .

وهى نفع . ، ولكن إثمها أكبر من نفعها .

وهى رجس . . ولكن بعض الناس يلطخ نفسه بهذا الرجس ! .

فجميع هذه الأوصاف هى للخمر ، وهى أوصاف خسيسة كلها ، ولكنها درجات متفاوتة فى الخسة ، من حيث النظرة التى ينظر بها إليها ، وهى على جميع مواقع النظر موسومة بسمة القبح والإثم والرجس ، وتلك الأوصاف ملازمة لها ، لا تنفصل عنها أبدا .

وإذن فالآيات الأربع الواردة فى شأن الخمر ، لا تعارض بينها ، ولا تناسخ ، بل كلها عاملة ، تعطى الوصف المناسب لها ، كما تعطى الحكم المناسب أيضا .

وما قيل فى آيات الخمر يقال فى آيات الربا كذلك :

فالآيات التى نزلت فى شأن الربا ، جاءت متدرجة على مراحل ، على نحو ما جاءت عليه آيات الخمر .

فأول ما نزل فى شأن الربا قوله تعالى : « وما آتيتم من ربا ليربوَ فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » . (٣٩ : الروم)

وفى هذا تحريم للربا ، وتشنيع عليه ، وكشف لوجه كريه من وجوهه .

ثم نزل بعد هذا قوله تعالى فى شأن اليهود المتعاملين بالربا ، المستحلين له : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل » (١٦١ : النساء)

وهذه الإشارة والإشارة التى قبلها، تدعوان كثيراً من المسلمين إلى أن يحذروا هذا النوع من المعاملات ، وأن ينفروا منه ، وإن لم يكن قد حرم عليهم بعد بحكم قاطع .

ثم نزل بعد هذا قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » . (١٣٠ : آل عمران)

والنهى هنا ليس نهيا قاطعا فى تحريم الربا تحريما مطلقا ، وإنما وقع تحريمه فى صورة خاصة ، وهى أن يكون أضعافاً مضاعفة .. وهذه الصورة تقابل فى تحريم الخمر قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ثم كانت الكلمة الأخيرة فى الربا ، فنزل قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » (٢٧٨ - - ٢٧٩ : البقرة) . وبهذا كان الحسم والقطع فى تحريم الربا ! .

هذا ، ويرى كثير من العلماء أن ما جاء فى الربا والخمر ، ليس من قبيل النسخ ، لأن النسخ هو إزالة حكم شرعى بحكم آخر شرعى . . والخمر والربا لم

يكن قد جاء حكم شرعى آخر بتحريمها ، حتى يكون الحكم الثانى ناسخا للحكم الأول ، وإنما هما مما كانا للعرب فى الجاهلية ، ثم جاء الإسلام فوجدهما على ما هما عليه فحرمهما . . وقد ظلت الخمر غير محرمة إلى صلح الحديبية ، حيث جاء القرآن إذ ذاك بتحريمها ، وكذلك الربا ، لم يحرم تحريما قاطعا إلا قبيل وفاة النبى الكريم .

ولكن إذا قيل فى القرآن نسخ — ألا تعتبر هذه المراحل التشريعية للأمر الواحد واختلاف الحكم فى كل مرحلة منها — ألا تعتبر هذه المراحل مما يقيم للقائلين بالنسخ فى القرآن ، الشرط الذى يطلبونه له ، وهو إزالة حكم شرعى بحكم شرعى آخر ؟

ثم ألا تعتبر كل مرحلة من هذه المراحل مظروفة بحكم يخصها . . ثم تجىء المرحلة التالية فتنسخ حكمها ؟

وعلى أى فإن رأينا فى الآيات التى نزلت فى الخمر والربا أن لا تناسخ بينها ، وأنها جميعا محكمة ، عاملة ، تلاوة وحكما ، وقد بينا ذلك ، والحمد لله . .

* * *

وندع هذه الآيات التى يلتقى معنا فى الرأى فيها بعض الذين يقولون بالنسخ ، وإن كان هذا اللقاء على وجه مختلف بيننا وبينهم ! .

وننظر فى آيات أخرى يقطعون بالقول بنسخها ، ونقطع نحن بالقول بأنها غير منسوخة .

فمن ذلك قوله تعالى : —

« وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » (٨ : النساء)

وتأمل قوله تعالى : « إذا حضر القسمة » . . أى إذا كانت القسمة بمحضر منهم ، وبمشهد وعلم .

فهذا الحضور هو شرط فى أن يُرزق هؤلاء الحاضرون من هذا الخير الذى شهدوه ، ورأوا الأيدى تمتد إليه وتنال منه !

وأنت ترى فى هذا التوجيه السماوى ، تلك الحكمة الحكيمة التى تقوم عليها شريعة الإسلام فى تربية الأمم ، ودعم بنائها ، وإقامة أسسها على دعائم وطيدة من التضامن الاجتماعى ، وحراسة المجتمع الإنسانى من أن تدخل عليه آفات التباغض والتحاسد ، التى هى أفتك الأدواء فى تقويض الجماعات والأمم ! .

إن ضريبة « التركات » التى تفرضها كثير من الدول على ما ترك المورث ليس إلا تطبيقا إجباريا ، لهذا المبدأ الكريم السمح ، وإلا وحيا من وحيه ، وإن كان البون شاسعاً ، والمدى بعيداً ، بينها وبين ماجاء به القرآن وشريعة الإسلام .

فالإسلام لم يجعل هذا الأمر على وجه ملزم ، بل جعله دعوة مطلقة للخير والبر ، فى مقام يحضره داعيان من داعى الخير والبر ، وهما : الوجد والموت . . إذ المال موجود عتيد بين يدى من سيصير إليهم من الورثة ، وهو مال لم يقع فى أيديهم بعد . . ومن أجل هذا فإن النفس — فى تلك الحال — لا يغلبها الحرص عليه ، والضن به كما لو وقع فى اليد ، وصار فى حوزة صاحبه . . خاصة وأنه لم يبذل له وارثه جهداً ، ولم يتكلف له عملا ، بل جاء ، هكذا عفواً من غير سعى . . ثم الموت المشهود المذكور فى هذا الوقت ، حيث كل شىء من هذا المال يذكر بالميت والموت معا . . ومن أجل هذا فإن النفس لا يغلبها الشح ، ولا يمسك بها عن البذل والإنفاق فى سبيل الله ، داعى الحرص على الحياة فى هذا الوقت ، الذى يطل عليها فيه شبح الموت ، ويذكرها بأن كل شىء إلى زوال « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » !

هذه الآية من الآيات الكثيرة التى قيل — على سبيل القطع — إنها منسوخة ،

وهى ـ كما رأيت ـ دعوة كريمة من دعوات الإسلام إلى البر والإحسان وقوة عاملة فى حراسة المجتمع وحمايته من عوادى العداوة والبغضاء !

فإذا كان مما ينسخ ما كان من آداب القرآن وأحكامه . . فماذا يبقى من آدابه وأحكامه ؟

* * *

فالقائلون بالنسخ مجمعون — قولا واحداً — على أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث ، والقول بنسخ هذه الآية يسد على الفقراء والمساكين واليتامى بابا من أبواب الرحمة ، أراد الله سبحانه أن يفتحه عليهم ، كما أنه يقطع آصرة المودة بين ذوى القربى ، التى أمر الله بها أن توصل ! .

وما أعدل الإسلام ، وما أحكم أحكامه التى تتجلى فى كل آية من آياته ! وهنا فى هذه الآية الكريمة ، التى يريد القائلون بالنسخ ، عزلَ المسلمين عنها — فى هذه الآية تدبير حكيم من الإسلام ، وآية من آيات خلود هذا الدين .

فالميراث الذى يتركه الميت لورثته هو خير غير مرتقب ، قد شمل أعداداً من الناس بحكم قرابتهم لهذا المورث . .

وهناك عيون كثيرة تتطلع إلى هذا الخير ، وتتبع مواقعه التى وقع فيها ، وخاصة ذوى القربى الذين لا نصيب لهم بين الورثة من هذا الميراث الذى يذهب به أهله . . هذا الميراث الذى حضر قسمته من حضر من الفقراء والمساكين ممن لهم بالمورث صلة جوار أو معرفة ، ولهذا حضروا القسمة .

إن هؤلاء وأولئك يرون مائدة ممدودة حافلة بأنواع الطعام ، وهم جياع يسيل لعابهم إلى لقمة مما عليها .

هذا هو الموقف ، كما يراه القرآن ، وكما تشهده الحياة . .

فماذا لو ذهب الورثة بكل هذا الميراث ؟ ثم لم يكن لذوى قرابتهم المحرومين منه نصيب ؟ ولم يكن للفقراء والمساكين الذين تتلمظ شفاههم إلى نفحة ، من شيء منه ؟

ماذا يكون ؟

أحقاد ، وأضغان ، وعداوات ، تثير السخط والنقمة ، وتذهب بالإخاء والمودة بين الناس والناس ! .

* * *

ومن الآيات التى أجمع القائلون بالنسخ على أنها من المنسوخ قوله تعالى :

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف ، والله عزيز حكيم » (الآيه : ٢٤٠ البقرة) .

والناسخ لها — كما يقولون — هو قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربّصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ، فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ، والله بما تعملون خبير » (الآية : ٢٣٤ البقرة) . . وسنفرد لهذه الآية بحثاً خاصًّا ، ننفى فيه النسخ عنها ، وأنها آية عاملة ، تقرر حكماً شرعياً للمتوفى عنها زوجها ، لا ينقض أبداً . . ستراه فى الكتاب الخاص بمبحث الأحكام .. إن شاء الله .

آية السيف !!

وآية السيف — كما يسميها القائلون بالنسخ — وهى قوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » (التوبة : ٣٦)

هذه الآية ، هى — عند القائلين بالنسخ — ناسخة لكل آية جاءت فى القرآن الكريم ، داعيةً إلى المهادنة ، أو الترفق ، أو الكفّ عن القتال لكل من لا يدين الإسلام . .

فمثلا قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ » (٢٥٦ : البقرة) وقوله تعالى : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » (٢٧٢ : البقرة) وقوله سبحانه : « لست عليهم بمسيطر » (٢٢ : الغاشية) وقوله جل شأنه : « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » (٧ : الرعد) وقوله سبحانه : « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم ، أويعذبهم ، فإنهم ظالمون » (١٢٧ : آل عمران) وقوله تبارك اسمه : « ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (١٢٥ : النحل) وقوله سبحانه : « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » (٤٠ : الرعد) .

فهذه الآيات ، وما شابهها ، مما يدعو إلى الرفق ، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة — هذه الآيات هى عند القائلين بالنسخ منسوخة بآية السيف . . إذ كانت تلك الآيات عاملة — فى زعمهم — والمسلمون فى حال كانوا فيها قلة مستضعفين ، لم تقم لهم قوة يلقون بها أهل الشرك والكفر . . فلما اجتمعت لهم تلك القوة ، أصبح السيف هو اللسان الذى يخاطب به المسلمون من يدعونهم إلى دين الله ! !

وهذا القول — إن صح — كان ناسخاً ، بل طامساً لأجمل وجه ، من وجوه الدعوة الإسلامية ، التى تجعل العقل ، هو الدليل إليها ، والرائد الذى يقود الناس إلى الإيمان بالله . .

إنه لو صح القول بنسخ تلك الآيات وأمثالها لاستتبع ذلك نسخ جميع الآيات

الكونية الداعية إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وهى آيات تأخذ مكانا بارزاً فى القرآن الكريم ، كما يستتبع ذلك نسخ جميع القصص القرآنى ، الذى هو معارض رائعة معجزة للعبرة والعظة ، إذ لا مجال للنظر والاعتبار ، والسيف قائم على الرقاب ! !

ونظر فى آية السيف هذه التى يقال إنها ناسخة ، لمئات الآيات ، بل تكاد تكون ناسخة لمعظم القرآن الكريم كله — فنجد أن القائلين بالنسخ ، قد وقفوا عند هذا المقطع من الآية ، وهو قوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » — ثم جعلوا من هذا المقطع وثيقة إعلان حرب على غير المسلمين ، إعلاناً عاما ، قائما أبداً ، لا فرق بين أن يكون ذلك فى مقام الدفاع ، أو العدوان ! !

وتحميل هذا المقطع من الآية الكريمة هذا المعنى ، هو مما لا تعين عليه دلالة النص ، ولا يلتقى معه المقطع الآخر من الآية نفسها ، كما لا يشهد له الحال التى نزلت فيه الآية ، وكما لا يشهد له أيضاً ، تاريخ الدعوة الإسلامية ، وموقف الرسول الكريم من غير المسلمين . .

فأولا : قوله تعالى : « قاتلوا المشركين كافة » لا يمكن أن يفيد العموم المطلق ، وإلا كان على المسلمين أن يشنوا حرب عامة شاملة مع جميع المشركين على هذه الكرة الأرضية ، وإلا كانوا فى حكم المخالفين لأمر الله ، الخارجين عن طاعته ، إذا هم لم يفعلوا ذلك ويحققوه !

ومحاربة المسلمين للمشركين على تلك الصورة أمر مستحيل لا يمكن أن يتحقق فى أى ظرف ، وفى أى حال ، والتكليف به تكليف بما لا تتسع له النفوس ، والله سبحانه وتعالى يقول : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها (البقرة :

٢٨٦) وكما يقول جل شأنه : « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » : (الحج : ٧٨) .

وثانيا : المقطع الثانى من الآية ، وهو قوله تعالى : « كما يقاتلونكم كافة » .. هو فى مقابل قوله تعالى : « قاتلوا المشركين كافة » . . وهذا يدل على أن المسلمين ليسوا هم البادئين بالحرب ، وإنما هم دافعون لعدوان ، وأنه كما اعتدى المشركون على المسلمين ، وكانوا يداً واحدة على حربهم ، ينبغى أن يلقاهم المسلمون يداً واحدة ، ليردّوا هذا العدوان الآثم ، كما يقول تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (١٩٤ : البقرة) وكما يقول جل شأنه : « فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين » (١٩١ : البقرة) ويقول سبحانه : « فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » (١٩٣ : البقرة)

وثالثا : نزلت هذه الآية — آية السيف — فى غزوة الأحزاب « الخندق » وفيها جمعت قريش جموعها ، وأحلافها ، من المشركين ، وأشياع المشركين من اليهود ، وبهذا رمت قريش المسلمين بكل عدو للإسلام ممن يحيط بالمسلمين ، فكان على المسلمين جميعاً أن يكونوا يداً واحدة على أعدائهم وأعداء دينهم . .

هذا ، عن آية السيف . . التى يقال إنها ناسخة لهذه الآيات الكثيرة من القرآن الكريم . .

أما عن الآيات التى يقال إنها منسوخة بتلك الآية ، فحسبنا أن نذكر بعضاً منها ، لنرى كيف تكون منسوخة ، ثم يكون لدعوة الإسلام أساس تقوم عليه بعد نسخها ؟

ولننظر مثلا فى قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . فهذه الآية الكريمة تقرر حقيقة الدين ، الذى يقوم فى النفوس مقاماً يثمر الثمر

الطيب المرجو من الدين . . تلك الحقيقة ، هى أن تكون سبيل الدين إلى العقول والقلوب بعيدة عن كل قهر وإكراه ، لأن الدين عقيدة ، والعقيدة لا تكون عن إكراه ، لأن الدين فى صميمه حبّ ، وولاء . ولا يلتقى الحبّ والولاء مع القهر والإكراه . .

وننظر فى الآية الكريمة : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » (١٩٩ : الأعراف) نجد أنها عنوان الدعوة الإسلامية ، ومنهج أسلوبها الحكيم ، الذى رسمه الله تعالى لخاتم أنبيائه ، وخاتم رسالاته . .

فإذا كان هذا مما ينسخ من آداب القرآن وأحكامه . . فماذا يبقى من آدابه وأحكامه ؟ بل ولم يبق - بعد هذا - شىء من آدابه وأحكامه ؟ .

إننا لانسيغ القول أبداً بأن شيئاً منسوخا من هذا القرآن الذى نقرؤه ، ونتعبد به ، إذ لا حكمه - مع هذا - لآيات كريمة نتلوها ونتعبد بتلاوتها ، ثم لانعمل بها ، ولا نأخذها مأخذ الجد ، فى تحصيل الخير المشتمل عليه كيانها !

إن النسخ معناه عزل الآيات المنسوخة عن الحياة ، وإحالتها إلى « المعاش » .. وما الاحتفاظ بها فى القرآن إلا كالاحتفاظ بجثث الأموات محنطة فى توابيت ! ! وذلك مقام تنزه عنه كلام الله رب العالمين !

* * *

عودة إلى النسخ مرة ثانية

وهناك آية كريمة يحتج بها القائلون بالنسخ :

يقول الله تعالى فى سورة النحل :

« وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون » الآية : (١٠١) .

أكثرُ المفسرين على أن هذه الآية الكريمة نصٌّ فى تقرير النسخ فى القرآن ، وتبديل آية بآية . . ولهم على ذلك كلمة « بدّلنا » التى تدل بمنطوقها على التبديل ، وإحلال آيةٍ مكان آية . . ثم قوله تعالى « والله أعلم بما يُنزل » وفيه قرينة دالة على أن التبديل واقع فى المنزَّل من عند الله ، وهو القرآن . . ثم ما يظاهر هذا من قوله تعالى فى سورة البقرة : « ما ننسَخْ من آية أو نُنسِها نأت بخير منها أو مثلها » .. فهذه الآية جاءت صريحة بلفظ النسخ ، على حين جاءت الآية السابقة ، بلازم النسخ ، وهو تبديل آية بآية ! . .

ثم إنهم — بعد هذا ، أو قبل هذا — يأتون شاهداً على ذلك بأكثرَ من رواية تحدث عن سبب نزول هذه الآية . . وأنها كانت ردًّا على المشركين ، الذين كلما ورد نسخُ لحكم من الأحكام التى كانت شريعة للمسلمين زمناً — قالوا : إن محمداً يقول مايشاء ، حسبما يرى . . ولو أن هذا القرآن كان من عند الله ، لما وقع فيه هذا التناقض فى الأحكام ، ولجاء الحكم قولا واحداً ، لانقض له ، ولاتبديل فيه ! ! لأن النسخ بُداء والبداء لايجوز على الله .. يقصدون بهذا أن النسخ يدل على أن الله تعالى قد بدا له أمر لم يكن بادياً وهو يقرر الحكم الذى نسخه . . ومثل هذا اتهام لله تعالى بقصور علمه . . ومن هنا كان القول بالبداء بالنسخ ، قولا لا يجوز على الله .

وإذ يقول اليهود هذا القول ، وإذ يشغبون به على المسلمين الذين يقرءون فى كتابهم « ما ننسخ من آية » ويقرءون : « وإذا بدلنا آية مكان آية » — لم يجد المسلمون بداً من القول بالنسخ إعمالا للنص القرآنى ، وإلا كان ذلك اتهاماً للقرآن بأنه من غير عند الله . فإذا تقرر عندهم القول بالنسخ ، حاولوا أن يأتوا له بشواهد كثيرة من القرآن الكريم ، ثم حاولوا مع هذا أن يتأولوا النسخ على أنه تدرج فى

الأحكام . وانتقال بها إلى دائرة التحريم شيئاً فشيئاً ، حتى تتقبلها النفوس ، ويستجيب لها الطبائع البشرية ، وهذا أسلوب من أساليب التربية العالية .

هذه بعض مقولات القائلين بالنسخ ، وتلك بعض حججهم عليه . . ولو أنهم قالوا بألا نسخ فى القرآن لأراحوا أنفسهم من هذا العناء ، ولخرجوا من هذا التضارب والتناقض الذى أوقعهم فيه القول بالنسخ ، ولوجدوا للنسخ ، ولتبديل آية بآية، معنى غير معنى المحو والإزالة لآيات الله القرآنية ، ولكان المحو والإزالة نسخاً للآيات الكونية التى يتغير بها وجه الحياة كل يوم ! !

ونحن على رأينا الذى اطمأن إليه قلبنا ، من أنه لانسخ فى القرآن . . وأن هذه الآية الكريمة — مع شىء من النظر والتأمل ، ومع إخلاء النفس من ذلك الشعور المتسلط على جمهور المسلمين من أن النسخ فى القرآن حقيقة مقررة ، تكاد تكون شريعة يَدين بها المسلم ، ومعتقداً يعتقده — نقول إن هذه الآية الكريمة لاتفيد بمنطوقها أو مفهومها دلالة على النسخ . . وذلك :

أولا : منطوق الآية هو : « وإذا بدّلنا آية مكان آية » . . فلو كان معنى التبديل : المحو والإزالة ، لما جاء النظم القرآنى على تلك الصورة ، ولكان منطق بلاغته أن يجىء النظم هكذا : « وإذا بدّلنا آية بآية » . . ولما كان لكلمة « مكان » موضع هنا . .

فما هو السر فى اختيار القرآن الكريم لكلمة « مكان » بدلا من حرف الجر ، وهو الباء ؟ نرجىء الجواب على هذا الآن ، إلى أن نفرغ من عرض القضية .

وثانياً : مفهوم كلمة « التبديل » بأنه محوٌ وإزاله ، أو تعطيل ونقض — بتعارض مع ما تنزهت عنه كلمات الله ، من أى عارض يعرض لها ، فيغيّر وجهها ،

أو ينقض حكمها ، والله سبحانه وتعالى يقول مخاطباً نبيه الكريم : « وتمّت كلمةُ ربك صِدقاً وعدلا . . لا مبدّل لكلماته وهو السميع العليم » .
(١١٥ : الأنعام)

فكيف تُبدَّل كلمات الله ، ويُنسخ بعضها بعضاً ، وينقُض بعضها ما قضى به بعضها ؟ والله سبحانه وتعالى يقول فى وصف كتابه : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجا . قَيِّما » (١ — ٢ : الكهف) ويقول فيه سبحانه : « قرآنا عربيا غير ذى عِوَج لعلهم يتقون » (٢٨ : الزمر) ويقول فيه سبحانه وتعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » (٨٢ : النساء) .

وإذن فما تأويل هذه الآية ؟ وما المراد بالتبديل لآية مكان آية ؟

الجواب — والله أعلم — أن المراد بتبديل آية مكان آية هنا ، هو ما كان يَحدث فى ترتيب الآيات ، فى السور ، ووضع الآية بمكانها من السورة ، كما أمر الله سبحانه وتعالى . . وذلك أن آياتٍ كثيرةً كانت مما نزل بالمدينة ، قد وضعت فى سور مكية ، كما أن آيات مما كان قد نزل بمكة ، ألحقت بالقرآن المدنىّ . .

وهذا الذى حدث فى القرآن المكى والمدنىّ من تبادل الأمكنة للآيات بينهما ، قد حدث فى القرآن المكىّ ، والمدنى — كلٌّ على حدة — فكانت السورة المكية مثلا تنزل على فترات متباعدة ، فتنزل فاتحتها ، ثم تنزل بعد ذلك آيات فتلحق بها ، ثم تنزل بعد ذلك آيات فتقضى الحكمة الآلهية بتقديمها على ماتقدمها نزولا . وهكذا ، حتى يتم بناؤها .

وعلى هذا ، فإن تبديل آية مكان آية ، هو وضع آية نزلت حديثاً بمكانها

الذى يأمر الله سبحانه وتعالى أن توضع فيه بين آيات سبقتها بزمن . . وقد يكون عدة سنين . . !

فقد اتفق علماء القرآن على أن آيات نزلت بمكة ، ثم حين نزل من القرآن فى المدينة ما يناسبها ، أخذت مكانها فيه . . وهذا يعنى أنها نُقلت من مكانها فى السورة المكية ، إلى مكانها الذى كانت تنتظره أو كان ينتظرها . . فى السورة المدنية . . !

ومن أمثلة هذا ، قوله تعالى : « وما كَانَ اللهُ ليعذبهم وأنت فيهم » .. فهذه الآية مكية باتفاق ، وقد وضعت فى سورة الأنفال ، وهى مدنية باتفاق أيضاً » .

وهذا يعنى أن الآية من هذه الآيات كانت تأخذ مكانها مؤقتاً فى السورة المكية ، حتى إذا نزلت سورتها المدنية أخذت مكانها الذى لها فى تلك السورة . .

ومن هذا أيضاً قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه . . » إلى آخر سورة التوبة . . وهاتان الآيتان مكيتان، وقد وضعتا بمكانهما من آخر التوبة ، وهى مدنية ، بل يقال إنها من آخر ما نزل من القرآن . .

وهكذا كان الشأن فى السّور المكية ، فإنها كانت تستقبل جديداً من الآيات المدنية ، التى تأخذ مكانها المناسب لها بين آيات السورة المكية ، حيث يأمر الله بذلك . . وذلك كثير فى القرآن الكريم ، وقلّ أن تخلو سورة مكية من دخول آية أو آيات مدنية على بنائها . .

فهذا التدبير السماوى لبناء القرآن الكريم ، وترتيب الآيات فى السور — اقتضى أن تأخذ بعض الآيات أمكنة ثابتة دائمة ، بدلا من أمكنتها الموقوتة التى

كانت تأخذها بين آيات أخرى غير تلك الآيات التى استقرت آخر الأمر معها . .

ولا شك أن كثيراً من المشركين والمنافقين ، ومرضى القلوب ، كانوا ينظرون إلى هذا التبديل والتغيير ، الذى كان يُؤْذِنُ النبىُّ أصحابَه وكتاب الوحى به — كانوا ينظرون إليه نظر اتهام للنبىّ بأنه إنّما يعيد بناء قرآنه ، ويغيّر ويبدل فيه ، ويصلح من أمره ما يراه غير مستقيم عنده ، شأنه فى هذا شأن الشاعر ، ينشىء القصيدة ، ثم يجرى عليها من التعديل والتبديل ما يبدو له ، حتى تستقيم لنظره ، وتقع موقع الرضا من نفسه .. هكذا فكروا وقدّروا !

وإذن . . فما محمد والقرآن الذى معه ، والذى يجرى عليه هذه التسوية ، بالتبديل والتغيير فى بنائه — إلاَّ واحداً من هؤلاء الشعراء ، الذين يحوّدون شعرهم ، ويسوّدون وجوهه ، فيكون لهم من ذلك تلك القصائد المعروفة بالحوليّات التى يعيش الشاعر معها حولا كاملا ، يعالج ما فيها من عِوَج ، حتى تستقيم له !

وإذن ، فما دعوى محمد بأن هذا القرآن من عند الله ، إلا محضُ كذب وافتراء !

هكذا كان يقول اليهود المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ، فى النبىّ الكريم ، حين كانوا يرونه يصنع هذا الصنيع فى ترتيب الآيات القرآنية فى سورها ، حسب الوحى السماوى الذى يتلقاه من ربّه . .

وقد ردّ الله سبحانه وتعالى على هؤلاء السفهاء بقوله : « قل نَزّله روح القُدُسِ من ربّك بالحق ليثبّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » .

وروح القدس ، هو جبريل ، عليه السلام ، وهو السفير بين الله سبحانه وتعالى ، وبين النبىّ الكريم ، بهذا القرآن الكريم . .

— وقوله تعالى : « ليُثَبِّت الّذين آمنوا » أى ليربط على قلوبهم ، ويقوّى عزائمهم ، ويثبت أقدامهم على طريق الإيمان ، بما ينزل عليهم من آياتٍ تؤنس وحشتهم ، وتكشف لهم عن العاقبة المسعدة التى ينتهى إليها صراعهم ، مع قوى البغى والعدوان . .

والثابت من تاريخ القرآن — كما قلنا — إن آياتٍ كثيرة نزلت ، ثم لم تأخذ مكانها فى السور التى هى منها ، إلا بعد زمن امتدّ بضع سنين . . !

فهذه الآيات التى سبقت سُورها ، إنما كانت للتعجيل ببشريات للنبىّ وللمؤمنين . . معه .

فسورة الأنفال مثلاً ، وهى مدنيّة باتفاق . . قد ضمّ إليها سبع آيات كانت قد نزلت بمكة . . وهى قوله تعالى :

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين * وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثلَ هذا إنْ هَذآ إلاَّ أساطير الأولين * وإذ قالوا اللهمَّ إن كانَ هذا هو الحقَّ من عندك فأَمْطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم * وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان اللهُ معذّبهم وهم يستغفرون * وما لهم ألا يعذّبهم الله وهم يَصُدُّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلاّ المتقون ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون * وما كان صلاتهم عند البيتِ إلاّ مُكآءً وتَصْدِيةً فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون * إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليَصدُّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرةً ثم يُغلبون والذين كفروا إلى جَهَنَّم يُحشرون » (٣٠ — ٣٦ : الأنفال) . .

فى ظِلّ هذه الآيات استروح النبىّ والمؤمنون — وهم فى مكة — أرواحَ

الأمل والرجاء ، ومن تلقاء هذه الآيات استقبل النبيّ والمؤمنون بشائر النّصر لهذا الدّين ، الذى تَلَقّى على يد المشركين ألواناً من الكيد والمكر ، وضروباً من السفاهة والجهل .

لقد كانت تلك الآيات ، وكثيرٌ غيرها ، هى الزاد الذى يتزود به النبى والمؤمنون ، أثناء تلك الرحلة القاسية التى قطعها النبى والمؤمنون معه فى شِعاب مكة ودروبها ، من أول البعثة إلى أن أذن الله سبحانه وتعالى له بالهجرة . . وبهذا الزاد تقوّى النبى والمؤمنون معه على حمل هذا العبء الثقيل خلال تلك الرحلة المضنية القاسية ، . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « قل نزّله روح القدس من ربك بالحقّ ليثبت الذين آمنوا » . وقد اختُصّ الذين آمنوا بالذّكر هنا ، لأنهم كانوا فى حاجةٍ ماسَّةٍ إلى هذا الزّادِ ، ليثبتوا فى مواقفهم ، وليصبروا على هذا البلاء الذى كانوا فيه ، انتظاراً لهذا الوعد الكريم الذى وعدهم الله سبحانه وتعالى به ، فيما سيأخذ به المشركين من خِزْى وخِذلان ، كما يقول سبحانه : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليَصدّوا عن سبيل الله ، فسينفقونها . . ثم تكون عليهم حسرة . . ثم يُغلبون . . والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » . . ولم يذكر النبيّ الكريم هنا فى قوله تعالى : « ليثبت الذين آمنوا » ، لأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ محفوف دائما بألطاف ربّه ، وعلى يقين راسخ من نصر الله . . فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ، ـ يحمل فى كيانه من قوى الحقّ والإيمان مالا تنال منه الدنيا كلها لو اجتمع أهلها على حربه والكيد له . وفى هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه لعمه أبى طالب : « والله ياعمّ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ، ماتركتُه » !

وهذه الظاهرة فى القرآن الكريم ، من تبادل الآيات أماكنها خلال الفترة

التى نزل فيها ، تقابلها ظاهرة أخرى ، وهى نزول القرآن منجّماً ، خلال ثلاث وعشرين سنة ، حيث لم ينزل جملة واحدة ، وإنما نزل آيةً آيةً ، وآياتٍ آياتٍ ، حتى كُمِّلَ ، وتمّ بناؤه على الصّورة التى أراده عليها سبحانه وتعالى كما تلقاه النبى الكريم من جبريل ، فى العَرْضة الأخيرة التى كانت بينهما ، بعد أن تم نزول القرآن ، قبيل وفاة النبى بزمن قليل . .

فهناك إذن عمليتان ، قام عليهما بناء القرآن الكريم ، وهما :

أولاً : نزوله منجّما . . أى مفرقاً . . فى نحو ثلاث وعشرين سنة .

وثانياً : نزوله غير مرتب الآيات فى السور . .

وقد كشف الله سبحانه وتعالى عن السبب الذى من أجله كان بناء القرآن على هذا الأسلوب .

أما عن نزول القرآن مفرقاً ، فالله سبحانه وتعالى يقول ، ردّاً على المشركين الذين أنكروا أن يجىء القرآن على هذا الاسلوب « وقالَ الَّذين كَفرُوا لَوْلا نُزِّلَ عليه القرآن جُمْلَةً واحدة ؟ كَذلك لنثبت به فؤادَك ورتّلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك بالحقّ وأحسنَ تفسيرا » (٣٢ ـ ٣٣ : الفرقان) .

فتثبيت فؤاد النبى ، هو من بعض مافى نزول القرآن على تلك الصورة ، من حكمة ، حيث كان مأنوساً بوحى السماء ، وبلقائه المتصل بالروح القدس . . وفى هذا مافيه من زاد عتيد يجده النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وهو على طريق هذه المرحلة الشاقة الطويلة ، من مبعثه إلى لقاء ربّه ، فى جهاد شاق متصل مع المشركين ، أولاً ، ثم مع اليهود والمنافقين ثانياً . .

وأمّا عن نزول القرآن غير مرتب الآى ، فقد رأينا أن من حكمته تثبيت قلوب المؤمنين ، بما تحمل إليهم الآيات التى تسبق سورها ، من بشريات ، كما

يقول الله سبحانه وتعالى : « وإذا بدّلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفترٍ بل أكثرهم لايعلمون * قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » .

وعلى هذا يكون لكل من النبى صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين ، حظه من نزول القرآن بهذا التدبير المحكم . . فى نزوله مفرقاً على مدى ثلاث وعشرين سنة تثبيت لقلب النبى ، وأنس له ، وفى نزوله غير مرتب ترتيباً زمنيا للآى، تثبيت لقلوب المؤمنين .

فى هذا التدبير ، من نزول القرآن الكريم غيرَ مرتب الآى ، — فى هذا ما يسمح بنزول بعض الآيات متقدمة زمناً على سورها التى ستلتقى بها ، وتأخذ مكانها فيها ، بعد أن يتم نزول القرآن كله . .

وفى هذه الآيات التى كانت تنزل متقدمة زمناً على سورها ، تثبيت لقلوب المؤمنين ، وهدًى لهم ، وبشرى بالمستقبل المسعد الذى ينتظر الإسلام ، وينتظرهم معه . .

ولو كان معنى قوله تعالى : « وإذا بدّلنا آية مكان آية » — لو كان معنى ذلك ، نسخَ آية بآية ، لما كان من المناسب أن يكون التعقيب على ذلك قولهَ تعالى : « ليثبّت الذين آمنوا وهدًى وبشرى للمسلمين» . . إذ أن النسخ للآيات القرآنية ، ليس من شأنه أن يثبّت قلوب المؤمنين ، بل إنه يكون داعية من دواعى الإزعاج النفسىّ ، بسبب تلك الآيات التى يعيش معها المسلمون زمناً ، ثم يتخلّون عنها . . ثم إنه من جهة أخرى، لا يحمل النسخ على إطلاقه ، بشريات للمسلمين . . إذ أن أكثر ماوقع النسخ — كما يقول القائلون به — على أحكام مخففة ، نُسخت بغيرها ، مما هو أثقل منها ، كما يقال فى الآيات المنسوخة فى الخمر وفى الربا ،

وفى حدّ الزنا . . وهذا ليس من باب البشريات بحال أبداً . . ولو تعسف له المتعسفون من التخريجات والتأويلات . فاستولدوا منه مايستولدون من البشريات .

ثم — قبل هذا كله — إن هذه الآية : « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر » . . هى مكية النزول ، بل من أوائل القرآن المكىّ حيث لم تكن قد شرعت الأحكام بعد ، فى العبادات ، والمعاملات ، وفى القتال ، وما يتصل به من غنائم ، وأسرى ، وغير ذلك مما يمكن أن يَرِد عليه النسخ ، إن كان هناك نسخ . . إذ أن النسخ ، إنما تناول الأحكام الشرعية وحدها دون غيرها من الأخبار ، والقصص .

هذا ، وقد استدل القائلون بالنسخ فى القرآن بآية أخرى ، هى قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبىّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يُلقى الشيطان ثم يُحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يُلقى الشيطان فتنةً للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد » (٥٢ — ٥٣ : الحج) . . وسنعرض لهذه الآية فى موضعها إن شاء الله . . وحسبنا أن نقول هنا : إن النسخ هناك وارد على ما يُلقى الشيطان ، لا على آيات الله ، وأن الله سبحانه وتعالى يُحكم آياته ولا ينسخها . . وإذن ، فلا نسخ فى آيات الله . .

ولعل فى قوله تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيُه » (١١٤ : طه) . . لعل فى هذا ما يشير إلى شىء من هذا التدبير السماوى فى نزول القرآن غير مرتّب الآى ، إذ ربما كان صلى الله عليه وسلم تتنزل عليه الآية من القرآن ، غير منسوبة إلى سورة من السور التى نزلت ، فيبادر إلى وصلها بما سبقها أو لحقها ، حتى لا تظل فى عزلة ، بين سور القرآن التى تتلى فى الصلاة ، أو ترتّل فى غير الصلاة . . فجاء قوله تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علماً » ليدفع عنه النبى هذا الشعور من القلق على

تلك الآيات المفردة أن يُنظر إليها غير تلك النظرة التى للقرآن الذى جُمعت آياته، وتمت سوره ! فتلك دعوة للنبى ألاّ يعجل ببناء القرآن قبل أن يتم وحيه إليه به ، إذ مازال هناك قرآن كثير لم ينزل بعد ولم يقض وحيه إليه، وفى هذا القرآن الذى سينزل علم كثير ، يزداد به النبى علماً إلى علم ..

ويؤنسنا فى هذا الفهم لتلك الآية الكريمة ، مانجده فى قوله تعالى :« لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جَمْعَه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه » (١٦ — ١٩ : القيامة) .. ففى هذه الآيات ما يكشف عن مشاعر النبى نحو تلك الآيات التى كانت تتنزل مفردة غير منسوبة إلى سورة من السور ، وإشفاقه من أن تفلت منه حيث لم ترتبط بغيرها من آيات القرآن وسوره .

وفى قوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه » تطمين للنبى بهذا الوعد الكريم من الله سبحانه ، بأنه جل شأنه ، هو الذى سيتولى جمع هذا القرآن المفرّق ، وبناءه على الصورة التى أراد الله سبحانه أن يُقرأ عليها . وذلك ما كان بعد أن تم نزول القرآن ، وانقطع الوحى ، فكان القرآن على تلك الصورة ، التى تلقاها النبىّ من جبريل ، وكان ذلك فى العَرْضة الأخيرة للقرآن بين جبريل والنبىّ فى السنة التى توفى فيها عليه الصلاة والسلام ولحق بالرفيق الأعلى . ثم تلقى الصحابةُ وكتّاب الوحى هذه الصورة الأخيرة للقرآن من النبىُّ ، ثم تلقاها المسلمون . . جيلا بعد جيل ، إلى يومنا هذا ، وإلى يوم الدين . .

ومع النسخ مرة ثالثة

وفى سورة الحج يقتطع المفسرون الآية الكريمة : « وما أرسلنا من رسول ولا نبىّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أُمْنيّته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يُحكم الله آياته والله عليم حكيم » (الآية : ٥٢) يقتطعونها من سياق السورة ويقيمون

نظرهم فيها على القول بالنسخ فى القرآن ، فيستولدون من هذا القول مقولة ، بما يعرف بالغرانقة العلى ! !

ونبدأ القصة من أولها ، ونعرض هذه الآية مع ما قبلها وما بعدها من آيات الله . . ثم ننظر فيها نظراً موقوفاً على ما تعطيه دلالات ألفاظها ، وما توحيه كلماتها من الجو القرآنى المحيط بها . يقول الله تعالى :

الآيات : (٤٩ ـ ٥٩)

* « قُلْ يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ (٥١) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ (٥٦) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) » .

[نظرة فى هذه الآيات]

فقوله تعالى :

* « قل يَاأَيها النّاسُ إنما أنا لكم نذيرٌ مبينٌ » .

هو توكيد لهذا الإنذار ، الذى أُنذِر به المشركون من وقوع العذاب بهم ، إذا هم لم يستجيبوا لله وللرسول . . فهو إنذار عام للناس جميعاً ، ولكنه فى حقيقته إنذار خاص لكل ضالٍّ غوىٍّ ، ثم هو إنذار فى مواجهة هؤلاء المشركين، يصرخ فى وجوههم ، ويَصُكّ أسماعهم . . وإنه لإنذار مبين واضح ، بما معه من الأدلة القاطعة ، والآيات الناطقة المعجزة . .

وقوله تعالى :

* « فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم » .

الفاء هنا ، للتفريع المسبب عن هذا الإنذار الذى جاء به النذير المبين . . إذ الناس مع هذا الإنذار ، بين مُلْتَفِت إليه ، مستفيدٍ منه ، آخذٍ طريقَ النجاة ، وبين ذاهل عنه ، أو مستخفٍّ به ، أو مكذّب له . . فهو فى غفلة من أمره ، قائم فى وجه العاصفة العاتية التى تجتاح كل شىء ، وتدمر كل شىء . .

فأما الذين استمعوا لهذا النذير ، وآمنوا بالله ، وعملوا الصالحات ، فقد ركبوا طريق النجاة ، ولهم من الله مغفرة ، ورحمة ، ورزق كريم . .

* « والذين سَعَوْا فى آياتنا مُعَاجِزين أولئك أصحابُ الجحيم » . .

أى : وأما هؤلاء الذين لم يستمعوا لهذا النذير المبين ، ولم يستضيئوا بالنور الذى معه ، بل تصدّوا لهذا النور ، وأرادوا أن يطفئوه بأفواههم ، وبما يخرج

منها من أكاذيب وأضاليل ـ هؤلاء هم أصحاب الجحيم ، فليس لهم من صاحب إلا جهنم ، وما تمدهم به من عذاب أليم . . إنهم أشكل بها ، وهى أقرب شىء إلى طبيعتهم .

— وفى قوله تعالى : « سَعَوْا فى آياتنا معاجزين » إشارة إلى سعى هؤلاء المشركين ، وأنه سعى للباطل والضلال ، حيث يسعون لإعجاز آيات الله، وغلبتها وصرفها عن طريقها . . وفى تَعْدية الفعل بحرف الجر « فى » الذى يفيد الظرفية ، إشارة إلى أنهم يَدْخُلون فى آيات الله ويُلْبسون الحقّ بالباطل ، إذ يحرفون الكلِمَ عن مواضعه ، ويُلْقُون فيه بالهذْر من القول ، والسَّخف من الكلام ، كما ذكر القرآن ذلك عنهم فى قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لاتَسْمَعُوا لهذا القرآن والْغَوا فيه لعلكم تغلِبُون » (٢٦ : فصلت) .

وأريد أن نلتفت التفاتة خاصة إلى قوله تعال : « معاجزين » وأن نقف طويلا عندها ، فإن لها شأنا فى تلك القصّة العجيبة المثيرة ، التى نسج خيوطَها المفسّرون والقُصّاصُ ، من واردات الخيالات والأوهام ، فكان منها تلك الخرافة المعروفة (بالغرانقة العُلا) التى كثُرت فيها الأقوال ، وتضاربت حولها الآراء ، حتى كادت تدخل مدخل الواقع ، وتلبس ثوب الحقيقة ، لدورانها على الألسنة ، وتقليب وجوه الرأى فيها ، وهى كائن ميت ، كان من الواجب أن يُوارَى من أول يومه ، ويُدفن فى التراب ، وألا يُنْبش بين الحين والحين ، فإن تقليب جثث الموتى لاتجىء منه إلا الروائح الخبيثة ، التى تَزْكمُ الأنوف ، وتكظِم الأنفاس !

وقد كنّا نريد ألا ننبش هذا الجسد المتعفن ، وألا نثير منه تلك الروائح الخبيثة التى تضيق بها صدور المؤمنين ، لولا أننا نخشى أن يكون لبعض المؤمنين

نظرٌ فيها ، ووقوف أو توقّف عندها ، وهم يقرءونها فى كتب التفاسير ، ويجدونها فى ثنايا كتب السيرة النبويّة العطرة ! فيثير ذلك فى نفوسهم قلقاً واضطراباً ، ويحرّك فى صدورهم وساوس وظنوناً !

ولهذا لم نَرَ بُدّا من الوقوف عند هذه القصة ، والكشف عن زيفها وباطلها ! . .

ولكن قبل الدخول فى هذا البحث ، أعود فأذكّرك بالنظر إلى قوله تعالى فى الآية السابقة : « والذين سَعَوا فى آياتنا معاجزين » . . وإلى أن هذه الآيةَ موجهةٌ إلى المشركين ، وإلى عبثهم بآيات الله ، وإلى مغالبتها ومعاجزتها باللّغو فيها . .

فالمشركون متّهمون بهذه الجريمة ؛ وهى الدخول إلى آيات الله ، بما يغيّر وجهها ، ويبدّل صورتها ، ويعطيهم الحجة عليها ، بعد أن كانت لها الحجة عليهم . .

إذا عرفنا هذا ، وسلمنا به — وهو واضح لايحتاج إلى من يَدُلّ عليه ، وهو أمر مسلّم به ، لايجوز الخلاف فيه — كان ذلك هو مقطع القول فى هذه القضية ، وكلمة الفصل فيها . . وكانت كلُّ الدعاوَى التى تُدّعى لها ، وكلُّ الروايات التى تُساق لإثبات شخصيتها ، ضلالاً فى ضلال ، لأنها تصادم صريح لفظ القرآن ، وتنقض خبراً من أخباره . . وذلك كما سترى . .

[الغرانقة العُلَى . . قصّتها ومن أين جاءت ؟]

قوله تعالى :

* « وَمَا أَرْسَلْنَا من قبلك مِن رَسولٍ وَلاَ نَبِىٍّ إلاّ إذَا تَمَنَّى أَلْقَى

الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

هذه الآية الكريمة ، هى التى ولّد منها المفسّرون وأصحابُ السّير ، قصةَ « الغرانقة » هذه . . ولكنا ندع هذه القصة الآن ، وننظر فى الآية الكريمة نظراً غير مرتبط بما يقال من روايات عن أسباب النزول — ننظر إليها على أنها قرآن يُتلَى، ويُتعبّد بتلاوته ، دون أن يكون لسبب النزول — أيًا كان — أثرٌ فى موقعه من قلوبنا ، أو عقولنا !

— فقوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك رسول ولا نبىٍ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » هو خبر يتضمن حكما عاماً ، لا انفكاكَ منه . . يقع على رسل الله وأنبيائه جميعاً . وهذا الحكم ، هو : أنه مامِنْ رسول من رسل الله ، ولا نبىٌّ من أنبيائه ، إلا والشيطانُ راصدٌ له ، وأنه كلما تمنّى ألقى الشيطانُ فى أمنيّته !

هذا صريحُ ما تنطق به كلمات الله ، فى وضوح وجلاء . . وإن كان هناك ما يُسأل عنه ، فهو كلمة التمنّى . . فما معنى التّمنِّى ، وماذا كان يتمنّى الرسولُ ، أو النبىّ ؟ ثم ماذا يُلقى الشيطان فيما يتمناه الرسول أو النبىّ ؟

والتمنى فى اللغة معروف ، وهو طلب النّفْس لرغيبةٍ من الرغائب المحبوبة ، البعيدة عن أن تُنال ، بُعداً يكاد يبلغ حدّ الاستحالة .

وقد فرّق علماء النحو والبلاغة بين الترجّى ، والتّمنّى ، كما فرّقوا بين حرفى الطلب : ليت ، ولعلّ . . فقالوا : إن « ليت » للتمنّى ، وهو طلب محبوب لا يُدرك ، و « لعلّ » للترجّى ، وهو طلب مرغوب يمكن إدراكه والحصول عليه ، وإن كان بعيداً .

وفى القرآن الكريم ، جاء لفظ التمنى بهذ المعنى ، الذى هو طلب الشىء البعيد . . كما فى قوله تعالى : « فَتَمَنَّوُا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم » (٩٤ ـ ٩٥ البقرة) .

والخطاب هنا لبنى إسرائيل ، وهم مطالبون فى هذا الخطاب أن يتمنَّوْا شيئاً لا يمكن أن يقع منهم ، وهو تمنّى الموت . . ولهذا جاء قوله تعالى : « ولن يتمنّوه أبداً » ـ كاشفاً عن هذا . . ولهذا أيضاً جاء قوله تعالى بعد ذلك : « ولتجدنَّهم أحرصَ الناس على حياة » — جاء مؤكداً لعدم وقوع هذا الأمر منهم ، إذ أن الحريص على الشىء لايتمنى إفلاته من يده ، فكيف إذا كان أشد الناس حرصاً عليه ؟

وجاء فى القرآن الكريم أيضاً قوله تعالى : « أمْ للإنسان ما تمنى ؟ » (٢٤ : النجم) وهو ينكر على الإنسان أن يقع له مايتمناه ، ويجرى على هواه وهواجسه ، لأنه لو وقع مايتمناه أهل الفساد والضلال لفسد نظام هذا الوجود الذى أقامه الله تعالى على الحق ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » (٧١ المؤمنون) .

وجاء فى القرآن الكريم كذلك فى قوله تعالى : « ومنهم أُمِّيُّون لايعلمونَ الكتاب إلا أمانىّ وإن هم إلا يظنّون » (٧٨ : البقرة) والأمانىُّ جمع أمنيّة . . وعِلْم الأميين من أهل الكتاب ، بالكتاب ، هو علم بعيد عن الحقّ ، بُعد الأمنية عمن يتمنّاها .

ذلك هو التمنى ، على ما عرفته العرب ، وجاء به القرآن الكريم ، وهو أنه طلب أمر مجرب ، بعيد الإدراك ، أو مستحيله .

فما هى أمنية كلّ رسول ، وكلّ نبىّ ؟

إن أمنية كلّ رسول ، ورغيبة كلّ نبىّ ، هى أن يرى قومَه على الهدى الذى يدعوهم إليه ، وأن يُصبحوا جميعًا فى المؤمنين بالله . . فتلك هى رسالته فى الناس ، يعيش لها ، ويعمل من أجل تحقيقها ، وأن سعادته كلها هى أن يرى نجاح مسعاه ، وثمرة جهاده ، فى هذه الأعداد التى استجابت له واتبعته ، وأنه كلما كثرت هذه الأعداد ، تضاعفت سعادته ، وعظمت غبطته . .

هذه هى أمنية كل رسول ، وكل نبىّ . . لا أمنيةَ لأحد منهم غيرُ هذه الأمنية !

ولكن الأمانىّ — كما قلنا — بعيدة التحقيق !

وأمنية الرسول أو النبىّ فى أن يكون الناس جميعًا مؤمنين — أمنيةٌ تقع فى دائرة المستحيلات ، لأنها تطلب من الحياة مالم تَجُدْ به ، وتريد الناس على غير ما أقامهم الله عليه . . فالحياة لم تعرف المجتمع الإنسانىّ كلّه على طريق سواء ، يضمّ جميع أفراده . . والناس — كما خلقهم الله — مؤمن وكافر ، وفى هذا يقول الله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » (٢ : التغابن) .

وإذن فأمنية أى رسول وأى نبىّ ، غير ممكنة التحقيق . . ومع هذا فإن على كل رسول وكل نبىّ أن يَسْعَى سعيه ، ويبذل جهده ، ويدعو الناس جميعًا إلى الله ، ويؤذّن فيهم بآيات الله !

ولكن صوت الحق هذا ، تَتلقاه على الطريق أصواتٌ منكرة ، بعضها ينبح نبح الكلاب ، وبعضها يعوى عُواء الذئاب ، ومنها ما ينهق نهيق الحمير ، ومنها ما يفحّ فحيح الأفاعى . . فيتألف منها ومن كثير غيرها من كل صوت

منكر ـ إعصار مجنون ، يكاد يخنق هذا الصوت الكريم ، ويغطى سماءه الصافية ، بما يثير من غبار ودخان !

فهذه هى أمنية الرسول أو النبىّ ، وتلك إلقاءات الشيطان فيها . . إذ ليست كل هذه الأصوات المنكرة إلا صنيعةَ الشيطان ، وإلا غرساً من غرسه الكيد ، وثمراتٍ من ثمر هذا الغرس الخبيث . .

ويحسن هنا أن تقرأ هذا المقطع من الآية الكريمة : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبىّ . . إلّا إذا تمنّى ألقى الشيطان أمنيته » . .

وواضح مما رأيت ، أن أمنيَّة كل رسول وكل نبىّ ، كانت أبداً هى هدايةَ قومه جميعاً إلى الله ، وأن إلقاء الشيطان فى هذه الأمنية ، هو ما يوسوس به للسفهاء ، والحمقى ، والجهلاء من القوم ، ليقفوا فى وجه الدعوة التى يُدْعَوْنَ إليها ، وليرهقوا رسلهم وأنبياءهم . . فالشيطان لا يظهر عِياناً ، ولا يَلْقَى الرسولَ أو النبىّ مواجهة ، وإنما يلقاهما فى أتباعه وأوليائه ، هؤلاء الذين استذلّهم الشيطان ، وأمسك بهك بهم من مقاودهم ، فكانوا له جنوداً يُسلطهم على أنبياء الله ، ورسل الله ، وأولياء الله . .

ولكن ماذا يكون بين هذه الأمنية يتمنّاها الرسول أو النبىّ ، وما يُلقى به الشيطان فيها ؟

الشيطان كما أخبرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنه ، ليس له سلطان على الذين آمنوا ، كما يقول سبحانه : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » (٩٩: النحل) فكيف بالرسل والأنبياء ، الذين عصمهم الله ، وأمدّهم بكثير من أمداد عونه ، وتوفيقه ، وحياطته ؟ ثم كيف والشيطان أيًّا كان هو ضعيف الكيد لمن عرف كيف يدافع عن إنسانيته ، ويحمى وجوده من أن يكون مطية ذَلولا له . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فقاتلوا أولياء الشيطان

إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » (٧٦ : النساء) إن هؤلاء الضالين الآثمين ، الذين يقفون فى وجه الحق ، هم صنائع الشيطان ، وهم كيده الذى يكيد به لأولياء الله ، وأنبياء الله ، ورسل الله . . وهذا « الكيد » الذى هو من أولياء الشيطان . . هو كيد ضعيف ، وسراب خادع ، لا يقف للحقّ ، ولا يحتمل سدّته ! . .

وعلى هذا ، فإن ما يُلقى به الشيطان فى أمنية الرسول أو النبىّ ، من ضلالات وأباطيل ، وما يُستنبت به فى منابت الحق من شوك وحَسَك — هو سُحبُ صيف ، لا تلبث أن تنقشع من وجه الشمس ، وإذا شعاعها يملأ الآفاق ، وإذا ضوؤها يبدد كل ظلام ، وإذا حرارتها تتمشّى فى أوصال الكائنات . . « كذلك يضرب الله الحقّ والباطل . . فأمّا الزبد فيذهب جُفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » (١٧ : الرعد) .

وهكذا يذهب ما يُلقى الشيطان فى أمنيّة الرسول أو النبى . . هباءً ، حيث يَخْلُص النبى أو الرسول بأوليائه ، وهم صفوة المجتمع ، والثمرات الطيبة فيه ، على حين يستولى الشيطان على أتباعه ، ويسوقهم إلى حظيرته ، حيث هم حَصَبُ جهنم وحطبها !

واستمع بعد هذا إلى قوله تعالى : « فينسخ الله ما يُلقى الشيطان ثم يُحكم الله آياته والله عليم حكيم » وانظر كيف كانت عاقبة هذا الصراع بين النبى أو الرسول ، وبين الشيطان وأولياء الشيطان . . لقد أحكم الله سبحانه وتعالى آياته ، فنسخ — أى أبطل — ما ألقى الشيطان ، ثم أحكم سبحانه آياته ، وثبّت قواعدها . .

ولا يُعترض على هذا القول ، بأن الرسول أو النبىّ كانت أمنيّته هى هداية

قومه ، أو معظم قومه ، ولكن الذين خَلَصَ بهم من هذا المعترك ، هم قليل من كثير . . فكيف يقال مع هذا إن أمنيته تحققت ، وإن الله سبحانه وتعالى قد أحكم آياته — على هذا المفهوم الذى فُهمت عليه الآية — ونَسَخ ما ألقى الشيطان ؟ .

والجواب على هذا ، قريب من قريب .. فلقد تحققت أمنية النبى أو الرسول تحقيقاً كاملاً ، ولو لم يؤمن معه من قومه أحدٌ . . ! كما ترى .

إن أمنية الرسول أو النبىّ ، كانت فى أول الأمر هى هدايةَ قومه ، فرداً ، فرداً . . وهو فى سبيل تحقيق هذه الأمنية لا يدخر شيئاً من جهده ، ولا يضنّ بشىء من راحته . . ثم هو مع هذا يظل صابراً محتملاً لكل ما يرميه به السفهاء ، من فُحشٍ القول ، وشنيع العمل . . حتى إذا انتهى الأمر إلى غاية يتضح منها أن لا خَيْر يرجى من هؤلاء القوم ، وأن لا ثمرة تحصّل منهم ، مهما بُذل من جهد ، أو ضوعف من عمل — إلى هنا يكون الشيطان قد غطى أمنية الرسول أو النبىّ ، وحجب ضوءها . . وعندئذ يتولى الله سبحانه وتعالى أخْذ هؤلاء القوم بالبأساء والضرّاء ، فيضربهم ضربة قاضية ، فإذا هم فى الهالكين . وهكذا يَنْسخ الله كل ما ألقى الشيطان ويبطله ، على حين يكون قد أحكم آياته وثبتها بنجاة النبىّ أو الرسول من هذا البلاء . . إن الرسول أو النبىّ فى تلك الحال — وإن كان وحده — هو آية الله ، أو آيات الله التى أحكمت ، فثبتت ، وبقيت ، أما ما ألقى الشيطان ، فقد نُسخ وبطل ، وذهب هباءً !

واستمع إلى الآية كلها مرة أخرى . « وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبىٍّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيته . . فينسخ الله ما يُلقى الشيطان . . ثم يُحكم الله آياته . . والله عليمٌ حكيم » .

وأحسب — بعد هذا ، بل وقبل هذا — أن الآية الكريمة ، واضحة الدلالة بيّنة القصد ، لمن نظر إليها نظراً بعيداً عن وساوس الأساطير ، وهمسات الإسرائيليات ، التى كان يُلقى بها اليهود إلى آذان القصاص ورواةِ الأخبار ، فيتلقاها عنهم المفسرون ، ويحملونها إلى الكتاب الكريم ! !

فالآية الكريمة تكاد لوضوحها تنطق بمضمونها ، وتحدّث بمفهومها ، ولكن الخيال الأسطورى ، أغرى المفسرين بأن يستولدوا من الآية عجائب وغرائب منكَرة . . كما سنعرضها عليك بعد قليل . .

وهنا نحبّ أن نشير إلى أن الآية الكريمة قد تحدّثت عن الرسول ، وعن النبىّ ، باعتبار أن لكل منهما صفةً خاصة ، وأنهما لو كانا على صفة واحدة لَما جاءت بهما الآيةُ على هذا النظم ، الذى جاء العطف فيه بين الرسول والنبىّ بإعادة حرف النفى ، الذى يؤكدّ لكلٍّ من الرسول والنبىّ ذاتيته . . فكأن نظم الآية يقول : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ، وما أرسلنا من قبلك من نبىّ » .. وهذا يعنى أن الرسول غير النبىّ . .

والذى عليه الرأىُ عند المفسرين والفقهاء ، أن كلا من الرسول والنبىّ يوحَى إليه من الله ، ولكن الرسول ينفرد بأنه صاحب شريعة يتلقاها من الله ، ويدعو إليها الناس . . بخلاف النبىّ الذى لا شريعة معه ، وإنما هو على شريعة رسول سبقه ، وأنه يدعو إلى شريعة هذا الرسول . فكل رسول نبىّ . . وليس كل نبىٍّ رسولا . .

وعلى أىٍّ ، فإن الرسول صاحبُ كتاب سماوى أو صحف سماوية . . أما النبىّ فلا كتاب ولا صحف معه . .

وهذا الوضع الذى يختلف فيه النبىّ عن الرسول ، له دلالة كبيرة فى المفهوم الذى ينبغى أن نفهمه من الآية السابقة ، وهو أن قوله تعالى : « فينسخ الله ما يُلقى الشيطان ثم يُحكم الله آياته » ـ لا يمكن أن ينصرف إلى الآيات المقروءة ، المنزلة وحياً من السماء . .

وذلك لأن النبىّ — مجرد النبىّ — لا يدخل فى هذا الحكم ، إذ لا كتاب معه ، ولا صحف ، حتى يقع عليها النسخ فيما ألقى الشيطان فيها . !!

وإذن ، فالذى ينبغى أن نقطع به قطعاً جازماً ، هو أن معنى النسخ فى هذه الآية ، لا يمكن أن يكون وارداً على نسخ آيات الله المتلوة ، كما هو المعروف عن النسخ بمعناه العام المطلق ، الذى فسره عليه المفسرون . .

وهذه الحقيقة ، هى فى الواقع من أقوى الأدلة على فساد المعنى الذى فُهمت عليه الآيه الكريمة ، والذى جاءت منه قصة — أو خرافة — « الغرانقة العلا » التى ستعرف نبأها عما قليل . .

وقبل أن نعرض لهذه الخرافة ، ننظر فى الآيات الكريمة التى تلت هذه الآية التى نحن بين يديها ، منذ أخذنا فى هذا الحديث . . فهذه الآيات مكملة لها ، ومعقبة عليها . .

يقول الله تعالى بعد هذه الآية :

* « ليجعلَ ما يُلقى الشيطانُ فتنةً للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبُهم وإن الظالمين لفى شقاقٍ بعيد » . .

وهذا يشير إلى أن ما ألقاه الشيطان فى أمنية الرسول أو النبىّ — هو فتنة للذين كفروا من أهل الكتاب ، وللقاسية قلوبهم من هؤلاء المشركين من قريش .

بمعنى أن من اتخذهم الشيطان أولياء ، فجعل منهم جنوداً مدججين بسلاح السفاهة والتطاول على الرسل والأنبياء — هؤلاء الجنود هم فتنة مطلة على الذين كفروا من أهل الكتاب ، وهم الذين فى قلوبهم مرض ، وعلى المشركين من العرب ، وهم القاسية قلوبهم ، إذ كانوا بعملهم هذا — من أهل كتابٍ ومشركين — دعوةً إلى الضلال ، تواجه دعوة الهدى التى يدعو بها الرسول أو النبىّ . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » (٢٠ : الفرقان) ويقول سبحانه على لسان المؤمنين : « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » (٥ : الممتحنة) .

* وفى قوله تعالى : « وإن الظالمين لفى شقاق بعيد » إشارة أخرى إلى أن هؤلاء الذين ألقى بهم الشيطان فى طريق الدعوة التى يدعو بها الرسول أو النبىّ — هم متلبسون بظلم عظيم ، لما هم عليه من شقاق بعيد عن مواطن الحق ، ومن حلاف قائم على الجرأة والتجرد من الحياء ، فى إنكار البدَهيات ، وفى عدم التسليم بها والانقياد لها .

ثم يجىء بعد هذا قوله تعالى :

* « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتُخبت له قلوبهم . . وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراطٍ مستقيم » .

أى أنه من هذا الاحتكاك بين الحق الذى يدعو إليه الرسول أو النبىّ ، وبين الباطل الذى يُلقى به الشيطان وأولياء الشيطان فى وجه هذا الحق — فى هذا الاحتكاك تنقدح شرارات مضيئة ، يرى أهل العلم والمعرفة على ضوئها فرقَ ما بين الحق والباطل ، فتزداد معرفتهم بالحق ، ويقوى تعلقهم به ، واطمئنان

قلوبهم وإخباتها له . . « وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » ، بهذا الصراع الذى يقوم بين الحق والباطل ، فلا يُعْشِى أبصارَهم عن الحق هذا الغُبارُ الذى يثيره الباطل والمبطلون فى وجهه ، بل إن ذلك ليزيد من نور الحق ، ويضاعف من جلاله ورُوائه .. كالشمس ، يحجبها السحاب ، فإذا انقشع السحاب وسفرت عن وجهها ، كانت أحسن حسناً وأبهى بهاء . . إن ذلك شأن كلّ ضدٍّ يلتقى بضده . . فالحَسَن يزداد مع القبيح حسناً ، والحلو يكون بعد مذاق المرّ أحلى مذاقاً وألذّ طعماً . . والعافية بعد السُّقم ، تكون أهنأ وأطيب منها فى جسد لم تصادفه علة ، أو يلحّ عليه مرض . . وفى المثل : « وبضدها تتميز الأشياء » .

ثم يجىء بعد هذا قوله تعالى :

* « ولا يزال الذين كفروا فى مِرْيَةٍ منه حتى تأتيَهم الساعة بغتةً أو يأتيَهم عذاب يوم عقيم » .

الضمير فى « منه » يعود إلى القرآن الكريم ، الذى وإن لم يجر له ذكر فيما سبق ، فهو مذكور كأصلٍ أصيل للحق الذى يجادل فيه الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . .

أما القاسية قلوبهم — وهم مشركو العرب — فستلين قلوبُهم آخرَ الأمر ، وسيؤمنون بالله ، وينقادون للحق . .

وأما الذين فى قلوبهم مرض — وهم أهل الكتاب — وخاصة اليهود ، فإنهم لن يتحولوا عن حالهم مع القرآن ، بل سيظلون على امترائهم وجدلهم فيه . . وهذا شأنهم أبداً حتى تأتيهم الساعة ، بل إن كثيراً منهم سيظل على امترائه حتى يرى عذاب الله فى هذا اليوم العظيم ..

وفى وصف هذا اليوم بأنه عقيم ، إشارة إلى أنه لا يومَ بعده ، حتى يمكن أن تتحول فيه أحوال الناس ، ويُصلح المفسدُ منهم ما أفسد . . إنه يوم عقيم لا يلد يوماً بعده ، كما تلد أيام الدنيا ، أياماً بعدها . .

ثم يجىء قوله تعالى :

* « الملك يومئذ لله يحكم بينهم . . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين » :

أى فى هذا اليوم ، يكون الملك لله وحده ، لا يملك أحد لنفسه أو لأحد شيئاً . .

وفى هذا الموقف يفصل الله بين عباده ، ويقضى بالحق بينهم . . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ، ينعمون برضوان الله ، ويخلدون فى رحمته . . وأما الذين كفروا وكذبوا بآيات الله ، وجادلوا بالباطل فيها ، فأولئك لهم عذاب مهين ، يُذلّهم ويُخزيهم .

وفى تخصيص الملك لله فى هذا اليوم ، مع أن الملك لله أبداً ، فى هذا اليوم وفى كل يوم ، إشارة إلى أن هذا اليوم يتجرد فيه كل ذى سلطان من سلطانه ، وكل ذى قوة من قوته ، وكل ذى مال من ماله ، فلا تصريف لأحد ، فى الظاهر أو الباطن ، كما للناس تصريف — فى الظاهر — فيما خوّلهم الله من سلطان ، وأموال . . فى هذه الدنيا .

ثم يجىء قوله تعالى :

* « والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أوماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين * ليدخلنهم مُدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم » . .

هو إشارة إلى إحكام الله لآياته ، بعد أن نسخ ما ألقى الشيطان فيها . . فهؤلاء الذين هاجروا فى سبيل الله ، فراراً بدينهم ، ثم قتلوا استشهاداً فى سبيل الله ، أو ماتوا ميتة طبيعية — هم من الذين أحكم الله آياته فيهم ، فنجاهم من الافتتان فى دينهم ، وجزاهم على صبرهم على هذا الابتلاء فى أموالهم وأنفسهم ، أجراً عظيما ، حيث رزقهم أطيب رزق وأكرمه ، وهو الحق الذى معهم ، والإيمانُ الذى عَمَرَ قلوبهم ، ثم النّصر على عدوّهم ، والتمكين لهم فى الأرض ، ثم الرزق الأعظم، بهذا الفوز بجَنّات النعيم فى الآخرة . . « وإن الله لهو خير الرازقين » ومن عطائه الجزيل الجليل ، هذا النعيم الذى ينعم به المؤمنون فى جنات الخلد ، لهم فيها ما تشتهى أنفسهم ولهم فيها ما يَدّعون . . نُزُلاً من غفور رحيم . . وهذا هو المُدْخَل الذى يُدْخِلهم الله فيه ، ويملأ قلوبهم به غبطةً وَرضاً . . « وإن الله لعليمٌ » بمن هم أحق برضاه ومغفرته وإحسانه من عباده . . « حليم » لا يَعْجَل بعقوبته ، بل يُمهل الظالين ، حتّى يكون لهم نظر فى أمرهم ، ورجعة إلى ربّهم . . فإن لم يفعلوا فالنار مثواهم : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » (٢٦ : الزمر) .

* * *

هذه الآية الكريمة : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يُلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته . . والله عليم حكيم » ، وما سبقها أو تلاها من آيات — هى التى نُسجت حولها قصة « الغرانقة » التى آن أن نحدثك عنها .

وقد رأينا الآيات جميعها تعرض صورةً من صور هذا الصّراع ، الذى عرض القرآن الكريم كثيراً من صوره ، بين النبىّ ، وبين المشركين والكافرين والمنافقين ومن فى قلوبهم مرض . . وهى فى صورتها تلك ليس

فيها شيء غير مألوف مما جاء من صور هذا الصراع بين أنبياء الله ورسله ، مع أقوامهم . .

فمن أين إذن جاءت خرافة « الغرانيق العُلى » ؟ ذلك ما تراه فيما سنعرضه عليك الآن . .

كان موضوع « الناسخ و المنسوخ فى القرآن » ، من القضايا البارزة ، التى شُغل بها علماء التفسير ، والفقه . . وقد عرضنا لهذه القضية فى مبحث خاص فى الجزء الأول من هذا البحث . . وكان من رأينا — وما زلنا عليه — أن لا نسخ فى القرآن . .

وقد نظر المفسِّرون فى قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يُلقى الشيطان . . ثم يحكم الله آياته — نظر المفسرون فى قوله تعالى : « فينسخ الله ما يلقى الشيطان » فرأوا هذا الخبر بالنسخ ، فكان هذا منطلقاً ينطلقون منه إلى إثارة هذه القضية ، وإلى البحث عن المنسوخ الذى نسخه الله ، وكان من هذا أيضاً امتدادُ النظر إلى ما وراء القرآن الكريم ، والإصغاء إلى ما يُلقَى إليهم من أخبار وروايات يمكن أن يُتَّكأ إليها ، للكشف عن أساس تقوم عليه الآية الكريمة ؛ ويتحقق بها ما أخبر به الله سبحانه وتعالى من نسخ لما ألقى الشيطان . . ثم كان داعية للبحث عن هذا الذى ألقاه الشيطان ، ثم نسخه الله . . !

هناك إذن أمران ، كان على المفسِّرين الكشفُ عنهما فى هذا الموقف :

ماهى أمنية النبى ؟

ثم ماذا ألقى الشيطان فى أمنية النبىّ ؟ وأين ألقاه ؟ ثم بماذا نسخه الله ؟ وقد كان !

فألقى المفسّرون بشباكهم فى هذا البحر المتلاطم ، الذى يفيض من يدى القصاص ، ورواة الأخبار . . فجاءت بأكثر من صيد ! !

من ذلك ما روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قرأ مرة سورة « النجم » والمشركون يستمعون إليه ، وحين بلغ إلى قوله تعالى : « أفرأيتم اللّات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » أتبع ذلك بقوله : « تلك الغرانيق[1] العُلا » وفى رواية . « إن شفاعتها لترتجى ، وإنها لمع الغرانيق العُلا » وفى رواية ثالثة : « والغرانقة العُلا تلك الشفاعة تُرتجى » . . وفى رواية رابعة : « إن شفاعتهن لترتجى » من غير ذكر الغرانقة العلا .

فهذه أربع روايات فى هذه الواقعة ، وكلّها ذات أسانيد متصلة . . !!

فالرواية الأولى تقول : إن النبىّ قرأ الآيات هكذا : « أفرأيتم اللّات والعُزّى ومناةَ الثالثة الأخرى . . تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتها لترتجى » !

والرواية الثانية تقول : إن قرأءة النبىّ كانت هكذا : « أفرأيتم اللات والعُزى * ومناة الثالثة الأخرى * إن شفاعتها لترتجى ، وإنها لمع الغرانيق العُلا » !

وفى الرواية الثالثة جاءت القراءة هكذا : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، والغرانقة العُلا تلك الشفاعة ترتجى » .

والرواية الرابعة كانت هكذا : « أفرأيتم اللّات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، إن شفاعتهن لترتجى » .

---

(١) الغرانيق : جمع غرنيق ، أو غرنوق (بضم الغين) أو غرانق (بضم الغين أيضا) وهو طائر مائى يشبه الكركى ، ويشبه به الشاب الأبيض الجميل كما يشبه به الملائكة .

أما القرآن الكريم ، فيقول : « أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى[1] * إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

ومدلول هذه الروايات ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر فى تلاوته لسورة النجم ، آلهة قريش بخير ، وجعل لها عند الله مكاناً عليا ، حتى إنها لتشفع عنده ، لمن يلتمس الشفاعة عندها ، ويستحقها منها .

وتقول الرواية : إن النبىّ حين بلغ آخر السورة ، سجد ، وسجد معه المسلمون ، والمشركون ، عندما سمعوه ، وقد أثنى على آلهتهم ! !

وقد تدخلت مع هذه الرواية روايات أخرى ، وكأنها تريد أن تفسر هذه الواقعة ، وتجد لها وجهاً تقبل عليه .

فتقول بعض الروايات : إن الشيطان ألقى على لسان النبىّ هذا القول ، الذى قاله فى حق الآلهة ـ اللات والعزى ومناة ـ وأنه صلى الله عليه وسلم ، كان قد ألمّ به ضيق وحزن شديد ، لما كان بينه وبين قومه من خلاف مستحكم ، « فتمنى » فى تلك الحال أن لو نزل عليه شىء من القرآن يُقارب بينه وبين قومه ، ويُباعد شقة الخلاف بينه وبينهم ، ولهذا فإنه ـ عليه الصلاه والسلام ـ حين تلا سورة النجم ، وبلغ الموضع الذى تُذكر فيه آلهتهم ، ألقى الشيطان إليه بهذه الكلمات ، التى ترفع من شأنها ، وتجعل لها مكان الشفاعة عند الله . . ثم تستطرد الرواية فتقول : « إن جبريل ـ عليه السلام ـ جاء إلى النبىّ ، فلما عرض عليه النبىّ السورة بما أدخله الشيطان عليها ، قال له جبريل : « ماجئتك

---

(١) قسمة ضيزى أى جائرة ظالمة ، إذ جعلوا لله الإناث ، ولهم الذكور .. والذكور فى عرفهم أكرم من الإناث .

بها هكذا !! » فحزن النبيّ لذلك ، فنزل قوله تعالى ـ تسْليةً له ـ : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ، ثم يُحكم الله آياته . . » ثم قوله تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترىَ علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كِدتَ تركن إليهم شيئاً قليلا * إذاً لأذقناك ضِعْفَ الحياةِ وضِعْفَ المماتِ ثُمَّ لا تجدُ لك علينا نصيراً » (٧٣ ـ ٧٥ : الإسراء) .

ونقول : إن هـذه الروايات ، وتلك النقول ، كانت موضع إنـكار ، واستنكار عند بعض المفسّرين ، وأصحاب السير . . إذ كانت ـ فى صورتها تلك ـ عدواناً صارخاً على مقام النبوّة ، ونسخاً صريحاً لعصمة النبيّ . !

وقد كان القاضى « عياض » خيرَ من تصدّى لهذه الأكذوبة ، وفضح مستورها وعقد لذلك فصلا فى كتابه : « الشفا . . بتعريف حقوق المصطفى . . » نرى من الخير أن نعرض جانباً منه ..

يقول القاضى عياض :

« إن لنا فى الـكلام على شـكل هذا الحديث ـ يقصد حديث الغرانقة ـ مأخذين .

أحدهما : توهين أصله . . [أى فى سنده ومتنه] ..

والثانى : على تسليمه . . [أى على فرض التسليم بصحته]

(المأخذ الأول)

(ا) توهين أصل الحديث :

يقول القاضى عياض :

« أما المـأخذ الأول ، وهو توهين أصل الحديث ، فيـكفيك أنه حديث

لم يخرّجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ، وإنما أولع به وبمثله ، المفسّرون ، والمؤرخون ، والمولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف ، كلّ صحيح وسقيم . . وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي ، حيث قال : « لقد بُلي الناس ببعض أهل الأهواء والبدع ، وتعلق بذلك الملحدون ، مع ضعف نَقَلَته ـ يقصد هذا الحديث ـ واضطراب رواياته وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته .. فقائل يقول إنه في الصلاة (يقصد بعض الروايات التي تقول إن النبي قرأ سورة النجم في الصلاة) .. وآخر يقول : قالها في نادي قومه حين أُنزلت عليه السورة ، وآخر يقول : قالها وقد أصابته سِنَة .. وآخر يقول : بل حدّث نفسه فَسَها .. وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه ، وأن النبيّ لما عرضها على جبريل قال له : ما هكذا أقرأتُك .. وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قرأها ، فلما بلغ النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك ، قال : « والله ما هكذا نزلت » إلى غير ذلك من اختلاف الرواة ، ومَن حُكيت هذه الحكاية عنه من المفسّرين والتابعين ، لم يسندها أحد منهم ، ولم يرفعها إلى صاحب (أي صحابيّ) . وأكثر الطرق عنهم فيها ، ضعيفة واهية . .

(ب) توهين معنى الحديث :

ثم يقول القاضي عياض : هذا توهينه ـ أي الحديث ـ من جهة النقل ..

« وأما من جهة المعنى ، فقد قامت الحجة ، وأجمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه وسلم ، ونزاهته من فعل الرذيلة ، إما مِن تمنّيه أن ينزل عليه مثل هذا ، من مدح آلهة غير الله ، وهو كفر ، أو من أن يتسوّر ـ أي يعلو ـ عليه الشيطان ، ويُشَبّه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبيّ أن من القرآن ما ليس منه ، حتى ينبهه جبريل عليه السلام ..

وذلك كله ممتنع فى حقه صلى الله عليه وسلم . أو أن يقول ذلك فى نفسه من قِبَل نفسه . . عمداً ، وذلك كفر ، أو سهواً ، وهو معصوم من هذا كله . . وقد قررنا بالبراهين والإجماع ، عصمتَه صلى الله عليه وسلم ، من جريان الكفر على قلبه أو لسانه ، لا عمداً ولا سهواً . . أو أن يشتبه عليه ما يُلقيه المَلَك بما يلقى الشيطان ، أو أن يكون للشيطان عليه سبيل ، أو أن يتقول على الله ، لا عمداً ولا سهواً ، مالم ينزل عليه .. وقد قال تعالى : « ولو تقوّل علينا بعضَ الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين » (٤٤ — ٤٦ : الحاقة) .

ثم يقول القاضى عياض ، فى عرض وجوه الرأى فى توهين معنى الحديث :

ووجه ثانٍ :

وهو استحالةُ هذه القصة ، نظراً وعرفاً ، وذلك أن الكلام لو كان كما رُوى ، لكان بعيدَ الالتئام ، متناقض الأقسام ، ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم ، ولَما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ولا من بحضرته من المسلمين ، وصناديد المشركين ، ممن يخفى عليه ذلك ، وهذا لا يخفى على أدنى متأمِّل ، فكيف بمن رَجح حلمه ، واتسع فى بيان البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه ؟

ووجه ثالث :

أنه قد عُلم من عادة المنافقين ، ومعاندى المشركين ، وضَعَفة القلوب ، والجهلة من المسلمين ، نفورهم لأول وهلة ، وتخليط العدوّ على النبى صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفَيْنَةَ بعد الفينة ، وارتداد مَن فى قلبه مرض ممن أظهر الإسلام — لأدنى شبهة .

ولم يَحْتَثِ أحد فى هذه القصة شيئاً ، سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ، ولو كان ذلك ، لوجدتْ من قريش على المسلمين الصولة ، ولأقامت بها اليهودُ عليهم الحجة ، كما فعلوا ، مكابرةً — فى قصة الإسراء ، حتى كان فى ذلك لبعض الضعفاء ردّة . . ولا كذلك ما رُوى فى هذه القصة — قصة الغرانقة — ولا فتنة أعظم من هذه البليّة لو وجدت ، ولا تشغيب للمُعَادى حينئذ أشدّ من هذه الحادثة لو أمكنت ! ، . . فما رُوى عن معاند كلمة ، ولا عن مسلم بسببها بِنتُ شَفَة ، فدلّ — ذلك — على بطلانها واجتثاث أصلها . . ولا شك فى إدخال بعض شياطين الإنس والجنّ هذا الحديث على بعض مغفّلى المحدّثين ، ليُلبّس به على ضعفاء المسلمين .

ووجه رابع :

ذَكرَ الرواة لهذه القضيـة ، أن فيها نزلت الآية : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينآ إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليـلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدتَ تَركنُ إليهم شيئاً قليلا » (٧٣ ـ ٧٤ : الإسراء)ـ وهاتان الآيتان تردّان الخبرَ الذى روَوْه ، لأن الله تعالى ذَكر أنّهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبّته الله — لـكاد يركن إليهم .

« فمضمون هذا ومفهومه ، أن الله تعالى عصمه من أن يفترى ، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا ، فكيف كثيراً ؟ وهم — أى الرواة — يَرْوُون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء ، بمدح آلهتهم ، وأنه قال صلى الله عليه وسلم : افتريتُ على الله وقلتُ مالم يَقل ، وهذا ضدّ مفهوم الآية ، وهى تُضعف الحديث ، لو صحّ ، ولا صحة له . . وهذا مثل قوله تعالى : « ولولا فضل الله

عليك ورحمته لهمّت طائفة منهم أن يُضلوك وما يُضلون إلاّ أنفسهم وما يَضُرُّونك من شيء » (١١٣ : النساء) .

وقد رُوى عن ابن عباس : « كل مافى القرآن « كاد » فهو لا يكون » قال الله تعالى : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » ولم يذهب ـ به ـ بصر أحد . . « وأكاد أخفيها » ولم يفعل !

قال القُشيرى القاضى : «ولقد طالبته ـ أى النبى ـ قريش وثقيف إذ مرّ بآلهتهم أن يُقبِل بوجهه إليها ، ووعدوه الإيمان به إن فعل ، فما فعل ، وما كاد ليفعل » .

(المأخذ الثانى)

التسليم بصحة الحديث :

ثم يناقش القاضى عياض هذه القضية ، من جانبها الآخر ، وهو فرض التسليم بصحة الحديث ، فيقول : « وأما المأخذ الثانى ، فهو مبنى على تسليم الحديث ، لو صحّ ، وقد أعاذنا الله من صحته ، ولكن على كل حال ، فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة ، منها الغثّ والسمين . . فمنها :

أولا : ما روى عن قتادة ومقاتل : « أن النبىّ — صلى الله عليه وسلم ، أصابته سِنة عند قراءته هذه السورة ، فجرى على لسانه هذا الكلام بحكم النوم » . .

وهذا لا يصح ، إذ لا يجوز على النبىّ مثلُه ، فى حالة من أحواله ، ولا يَخْلُقه الله على لسانه ، ولا يستولى الشيطان عليه ، فى نوم ولا يقظة ، لعصمته فى هذا الباب ، من جميع العمْد والسهو .

ثانياً : وفى قولِ : « أن النبىّ صلى الله عليه وسلم حدّث نفسه ، فقال ذلك الشيطانُ على لسانه . . » وفى رواية « ابن شهاب » عن أبى بكر بن عبد الرحمن قال : « وسَهَا — أى النبى — فلما أُخبر بذلك قال : « إنما ذلك من الشيطان » .

ويرد القاضى عياض على هذه الروايات بقوله : « كل هذا لا يصحّ أن يقوله النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لا سهواً ولا قصداً ، ولا يتقوله الشيطان على لسانه . .

ثالثاً : وقيل : « لعلّ النبى صلى الله عليه وسلم قاله — أى هذا القول — أثناء تلاوته ، على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار ، كقول إبراهيم — عليه السلام : « هذا ربّى » على أحد التأويلات[1] (وأن النبىّ إذ قال ذلك قاله) بعد السّكت وبيان الفصل بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته .. »

يقول القاضى عياض : « وهذا ممكن ، مع بيان الفصل ، وقرينةٍ تدل على المراد ، وأنه ليس من المتلوّ ، أى ليس من القرآن » . . اهـ

* * *

تلك هى القصة ، أو الأكذوبة ، كما جاءت فى كتب السير ، وعلى ألسنة القصاص ، ونقلها المفسّرون ، وتداولها اللاحق منهم عن السابق .. وذلك أسلوب من أساليب دفعها ، وتكذيبها .

---

(١) من التأويلات التى يذهب إليها المفسرون فى قول إبراهيم « هذا ربى » عن الكوكب والقمر والشمس ، أنه قال ذلك على طريق الاستفهام المراد به السخرية والاستهزاء أى : « أهذا ربى » ؟ استصغاراً لشأنه !

والقصة أو الأكذوبة — كما ترى — مهلهلة النسج ، واهية البناء ، أراد مخرجوها أن يُخْفوا عوارَها ، ويداروا هُزالها ، فألقوْا إليها كثيراً من الرقع ، حتى لكاد يختفى الأصل ، ولا يُرى منها إلا تلك المرقعات التى أضيفت إليها !.

فالمادّة التى تخلَّقت منها القصة ، مادة فاسدة ، لا يتخلَّق منها شىء يصلح أن يعيش فى الحياة ، وأن يُكتب له بقاء فى عالم الأحياء .

ونسأل : ما مضمون هذا الخبر فى قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيته » .

أليس من معنى هذا أن التمنى ليس حالاً واحدة تعرض للنبىّ فى حياته ، وإنما هى أمنياتٌ تعيش مع النبى أو الرسول حياتَه كلها ، وأنه كلّما تمنّى أمنية ألقى الشيطان فيها ؟

فكيف لا يُلقى الشيطانُ فى أمنية النبىّ إلا فى هذه المرة ؟ وماذا يحول بينه وبين أن يُلقى فى كل أمنية للنبىّ ؟ أليس هذا مما يتمناه الشيطان ، ويعمل له جهده لو استطاع إليه سبيلا ؟

وأكثر من هذا ، فإن الذين يقولون بقصة الغرانقة العُلاَ ، يذهبون إلى أن التمّنى ، ليس معناه من الأمانى ، وإنما معناه القراءة ، ويستشهدون لذلك بهذا البيت اليتيم من الشعر ، وهو منسوب إلى حسان بن ثابت فى عثمان رضى الله عنه .

تمنّى كتابَ اللهِ أولَ ليلِهِ وآخرَه لاَقَى حِمَامَ المَقادِرِ

وهو — لو عقلوا — حجة عليهم . . لأنه يعنى أنه كلما قرأ النبىّ قرآناً ، دخل عليه الشيطان ، وألقى فيما يقرأ بما يريد ، حتى يُفسد مادة القرآن ، ويغيّر وجهها ، ويطفىء نورها . .

والذين يروون هذه القصة ، لم يجيئوا بحادثة أخرى ، كان الشيطان فيها إلقاء فى قراءة النبىّ ، على نحو ما رووه فى هذه القصة المفتراة !

ثم إن الذين قالوا : إن النبىّ سَهَا فوقع هذا الخاطر فى قلبه ، أو جرى سرًّا على لسانه ، ثم التقطه الشيطان فأذاعه . . أو إن النبى أخذته سِنَة فجرى على لسانه هذا القول عند قراءته ، بحكم النوم ـ هذا يعنى أن النبى ، صلوات الله وسلامه عليه ـ كان فى حال يقظته يعيش مع هذه الخواطر ، ويراود نفسه بها ، وأن عقله اليقظ ـ كما يقول علماء النفس ـ كان يأبى عليه أن يصرّح به ، فلما نام أو سَهَا ، انحلّت هذه الخواطر من عُقال العقل اليقظ ، وانطلقت لا شعورياً إلى الخارج ، فكانت حديثاً مسموعاً . . وهذا يعنى أيضاً أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ معترف فيما بينه وبين نفسه بهذه الأصنام ، وبأنها غرانقة عُلاَ ، وأن شفاعتها تُرتجى ، وأنه إذا لم يكن يصرح بذلك ، وهو فى حال اليقظة ، فقد صرّح به سهواً ، أو حين أخذته سنة من النوم ! . . وهذا يعنى ثالثاً ، الكُفْرَ ، والنفاق معاً . . ! وإنه لهو الكفر الذى يُدمغ به كل مسلم ، تقع فى نفسه أية شُبهة من الشبه تحوم فى سماء النبوّة الصافية ، المشرقة بنور ربّها .

وبعد هذا كله ، وقبل هذا كلّه ، فإن فيصل الحكم فى هذا الموقف هو كلمة واحدة : نبى ، أو غير نبىّ ؟ رسول أو غير رسول ؟

فإن كان « محمد » صلوات الله وسلامه عليه ، غيرَ نبىّ ، وغيرَ رسول ، فهذا موقف له حسابه وتقديره ، وللكلام الذى يقال فيه حساب وتقدير . . فكل ما ينسب إليه ـ فى تلك الحال ـ من أخطاء ، وما يُرْمَى به من تهم ، ممكن الوقوع ، ويمكن التسليم به ، إذ هو ـ والحال كذلك ـ إنسان ، مجرد إنسان ، يجوز عليه ما يجوز على الناس ، من صدق وكذب ، ومن إيمان وكفر !

أما إن كان « محمد » ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نبياً ورسولا ، فإن الذى يعتقد فى نبوته ، ويؤمن برسالته ، ثم يُلحق به ما يقع فى حياة الناس من أخطاء ، وعثرات ، وتخبطات ، فهذا لا يستقيم أبداً مع صفة النبوة ، فإن الرسول مبلّغ عن ربه ، وهو بهذه الصفة معصوم من الخطأ والنسيان ، فيما يتصل برسالة ربّه ، وما تحمل من شريعة وعقيدة ، إذ أن أى انحراف أو تحريف فى هذا ، معناه سَوْق الناس إلى طرق مفتوحة ، مليئة بالعثرات والحفر ، على حين أن دعوة السماء تدعوهم إلى صراط مستقيم ، ولا يستقيم هذا الصراط مع تلك الأخلاط ، وهذه المتناقضات ، التى تلتقى بالناس ، وهم سائرون فيه .

ذلك ما يجب أن يتأكد ، ويتقرر ، أولاً ، عند من يؤمنون بالأنبياء . . إنهم لن يكونوا على غير تلك الحال التى توجب لهم العصمة ، وتحمى الرسالة التى يحملونها من أية شائبة تعلَق بها .

وإذن فمن الضلالة والجهل ، أن يقول قائل : إن النبىّ — ويقولها هكذا النبىّ — حين قرأ سورة النجم ، نسى ، أو سها ، أو أخذته سِنَة ، أو غلبه خاطر قوى فى نفسه ، أو ألقى الشيطان إليه ، فذكر الأصنام التى كان يعبدها قومه ، وأثنى عليها ، ورفع منزلتها ، وجعل لها عند الله شفاعة !

أهذا قول يقال ، ويلتقى أوله مع آخره ؟

أبىٌّ يقر قرآناً منزلا من السماء . . ثم تعدو عليه عوادى الشرّ ، فتغير من آيات الله ، وتبدل من شريعته ، وهو على لسانه ، بل وبلسانه ؟

وماذا تُرك بعد هذا من قول للضالين ، والمنافقين ، وأعداء الأنبياء ؟

قد يكون سائغاً أن تُنفى عن « محمد » صفة النبوة والرسالة على سبيل المكابرة ، أو من باب الكفر والإلحاد ، ثم يقال : إنه قال فى معبودات قريش

ما قال . . إنه لا يعدو أن يكون حينئذ واحداً من مشركى قريش ، الذين يتعاملون مع هذه الآلهة ، ويتعبدون لها .

أما ومحمد نبىّ ، فإنه فى عصمة ، فوق الخطأ ، وفوق النسيان !

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : قال . «قلت يارسول الله .. أأكتب عنك كل ما أسمع ؟ قال: «نعم» .. «قلتُ — أى ابن عمر — : فى الرضا والغضب ؟ قال : « نعم » فإنى لا أقول فى ذلك كله إلا حقاً » .

والحديث أيًّا كان سنده ، فإن القرآن الكريم ينطق بهذا فى قوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى * إن هُوَ إلا وَحْىٌ يُوحَى » . فهذا حكم قاطع بأن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا ينطق عن هوًى ، ولا يبلّغ عن الله إلا ما يوحَى إليه . . فكيف يكون للقول بأن الرسول نطق بكذا وكذا مما ليس من عند الله ، ثم يُتعلّل لذلك بأنه كان سهواً ، أو حديثَ خاطر ، أو نحو هذا ـ كيف يكون لهذا القول مكان من القبول على أى وجه من الوجوه ، مع قول الله تعالى : « وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وَحْىٌ يوحى » ؟

إن تلك الفرية مما دُسَّ على المسلمين ، فى غير انتباهٍ منهم إليه ، ولا تقدير للشر الذى ينجم عنه ، وشغلهم الخبر بغرابته وإثارته عن أن ينظروا فيه نظراً متفحصاً دارساً . .

ولو أنهم فعلوا لما كان لهذا الحديث مكان فى كتب الحديث ، أو الفقه ، أو التفسير ، سواء أكان ذلك لمجرد نقل الخبر ، ثم تجريحه ، وتكذيبه ، أو كان لنقله ، ثم نصْب العلل التى تخرج به عن مفهومه . . فهو حديث خرافة ، لا ينبغى النظر إليه ، أو الوقوف عنده .

* * *

وبعد ، فإن مفهوم الآية الكريمة : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يُلقى الشيطان . . ثم يحكم الله آياته . . . » — نقول: إن مفهوم الآية الكريمة على هذا الوجه الذى قامت فى ظله قصة « الغرانقة العلا » — هو اتهام لرسل الله وأنبيائه جميعاً ، بأنهم تحت سلطان الشيطان ، وأنه راصد لهم ، آخذ على ألسنتهم ، فلا تستقيم ألسنتهم بقراءة آية من آيات الله ، حتى يخرجها الشيطان على الوجه الذى يراه ، ويكوى لسانَ الرسول أوالنبى إلى مايريد . . ! !

فسبحانك . . سبحانك . هذا بهتان عظيم ، تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشقّ الأرض ، وتخِرّ الجبال هدًّا !

* * *

التكرار في القرآن

التكرار فى القرآن

وقعت فى القرآن الكريم صور من التكرار اللفظى لبعض الجمل ، أو الكلمات، أو الأحداث . . كالقصص ، ونحوها — وبعض هذا التكرار يمر دون أن يجد منه القارىء أو السامع شيئاً يلفته إليه ، إذ يقع التكرار على نحو مألوف للأذن ، على ما جرت به الأساليب البيانية فى اللغة ، وذلك كأن يتكرر اللفظ ، أو الجملة ، لغرض التوكيد . . كقوله تعالى :

« كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثم كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . . » . . وكقوله تعالى : « الْحَاقَّةُ ، مَا الْحَاقَّةُ ، وما أَدْرَاكَ مَا الحاقَّةُ . . » .

فمثل هذا التكرار لا يجابه حاسة السمع بجديد لم تألفه الأذن من إعادة الجملة أو بعض أجزائها ، بصورتها كاملة ، أو بتغيير بعض حروفها أو حركاتها . . فذلك — كما قلنا — مما وقع كثيراً فى أساليب الخطاب ، فى لغتنا العربية .

وقد يجىء التكرار فى القرآن على صورة غير مألوفة ، فيبدو واضحاً أن لهذا التكرار مقصداً غير مقصد التوكيد ، إذ يمتد ، ويطول فى سلسلة تنتظم السورة كلها ، وتأخذ بها من جميع أطرافها . . كما فى سورة القمر ، وفى سورة الرحمن ، وسورة المرسلات . . فلقد تكررت مقاطع خاصة فى هذه السور الثلاث ، مرات وبصورة واحدة ، دون تحوير أو تبديل فيها .

ففى سورة « الرحمن » تكرر قوله تعالى: « فبأىِّ آلآءِ رَبِّكما تُكَذِّبان » إحدى وثلاثين مرة ، وكان هذا المقطع آية مستقلة من بين آيات السورة ، التى تبلغ ثمانيا وسبعين آية .

وفى سورة « المرسلات » تكرر قوله تعالى : « وَيْلٌ يَوْمئذٍ للمُكَذِّبين »

إحدى عشرة مرة ، واعتُبر هذا المقطع آية بذاتها من بين آيات السورة ، وهى خمسون آية .

وفى سورة « القمر » أيضاً حدث هذا التكرار فى قوله تعالى : « فكيف كان عَذَابى وَنُذُرِ » أربع مرات . . كما يذكرون فى هذا الباب أيضاً سورة : « الكافرون » وما وقع فيها من تكرار .

ولقد كان هذا التكرار على تلك الصورة المردَّدَة مدخلا يدخل منه أصحاب الأهواء ، ومرضى القلوب — على كتاب الله ، ليخوضوا فيه ، ويتخرصوا على نظمه ، وليطعنوا فى بلاغته بهذا التكرار المتتابع ، وليقولوا إنه بهذا التكرار قد أدخل الاضطراب على الأسلوب ، وجعله ثقيلا على اللسان والسمع معاً ! . . وعلى هذا فإن أسلوب القرآن ليس على المستوى الرفيع من أساليب البلاغة ، وأن هذا الخلط الذى وقع فيه ، إنما هو أثر من آثار الأحوال النفسية التى كانت تنتاب « محمداً » فتخرج به عن وعيه !! هكذا يقول السفهاء من الناس !

وتلك رميات طائشة ، وأحكام منقوضة ، لم تصدر عن رأى وفهم ، ولم تجىء من جهة لها فى هذا الأمر قَدَم ، أولها فيه وزن وحساب !

إن الذين يقولون مثل هذا القول ، أو يحكونه عن غيرهم ، هم أعاجم ، أو أشباه أعاجم ، لم يذوقوا البلاغة العربية ، ولم يتصلوا بأسرارها . . ولو أنهم رُزقوا شيئاً من هذا ، لما طاوعتهم ألسنتهم أن ينطقوا بهذا البهتان العظيم ، ولردّهم الحياء أن يقولوا قولا لم يقع فى حساب « قريش » وهى تتصيد التّهم والمفتريات على القرآن الكريم . حتى لقد بلغ بها الأمر أنها لو وجدت زوراً من القول لقالته فيه ، ورمته به . . ولكن الزور نفسه أعياها أن تمسك به فى وجه هذا الحق المشرق ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !

وإذا لم يكن لقريش أن تقول مثل هذا القول ، وهى مرجع الفصاحة والبلاغة وموطنهما ، فكيف يُساغ هذا القول من أعاجم أو شبه أعاجم ؟ إن ذلك هو الضلال البعيد !

وبعد ، فما هذا التكرار الذى وقع فى القرآن ، وما مقام هذا التكرار ووزنه فى معايير البلاغة والبيان ؟

التكرار فى القرآن :

هو إعجاز من إعجازه ! ووجه جديد من وجوه البلاغة ، لم ينطق به قبل القرآن لسان ، فيجد فيه تلك الطلاوة ، والحلاوة ! . . على هذا الوجه الذى جاء به الكتاب الكريم ! !

ذلك أن كل كلام يتكرر ، يثقل ، ويسمج ، ويسقط !

أما التكرار الذى وقع فى القرآن، فإنه كان فى المواضع التى جاء فيها نَغَماً جديداً من أنغام الحسن الرائع . . أضيف إلى تلك الأنغام السارية فى القرآن كله .

* * *

اقرأ هذه المقاطع . . أولا :

« فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبان » . . « سورة الرحمن »

« وَيلٌ يومئذٍ للمكذِّبين » . . « سورة المرسلات »

« فكيف كان عذابى ونُذُر » . . « سورة القمر »

اقرأ المقطع الأول ، أو الآية الأولى . . وهى التى تكررت إحدى وثلاثين مرة فى سورة « الرحمن » ورددها مرات متتابعة ، من غير فاصل يفصل بينها . .

ماذا تجد ؟

أتحسّ ثقلا على السمع ؟

أتجد اضطرابا فى اللسان ؟

إن كنت موسيقيا . . فليس لى معك حديث فى هذا الأمر . . فأنت خبير به عليم . . وما عليك إلا أن تدندن بالآية الكريمة ، وتحرك لسانك بحروفها حرفا حرفا ، كما تحرك أصابعك على أوتار العود . . وسينتهى بك ذلك إلى أن تجد نفسك فى نشوة نغم علوىّ سماوى لم يقع لأذنك من قبل !

وإن لم تكن من أصحاب الموسيقى فرتل الآية الكريمة ترتيلا قرآنياً . . مرة ، ومرة ، ومرات . . واملأ فمك بكلماتها ، وافتح أذنيك لرنينها . . وسترى أنك تنطق بلحن موسيقى يفيض رحمة ، وينبض جلالاً وقوة . . يهتف بالنفوس الشاردة أن ترجع إلى ربها ، وبالقلوب الضالة أن تفر إلى خالقها . . وإلا فالويل والثبور !

* * *

واقرأ الآية الثانية : « ويل يومئذ للمكذبين » ، واصنع معها صنيعك مع الآية الأولى . . تجد فيها ما وجدت فى سابقتها من تساوق النغم ، وتجاوب الكلمات ، وتآخى الحروف . . فلا خلخلة ، ولا اضطراب ، ولا ثقل . . ولكن تعاضد ، وتساند ، واتساق ، وتعانق . . بين الحروف والحروف ، والكلمات والكلمات !

وأحسبك قد وقعت على ما تكشّف لك من اختلاف بين النغم الموسيقى هنا ، والنغم الموسيقى هناك . . حيث اختلف المقام . . فكان لكل مقام مقال ، أو لحن !

« ويلٌ يومئذٍ للمكذبين »

ليس فى هذا المقطع كله نبرة حنان ، ولا حرف لِين . .

إنه بناء من صخر ، وجلمد . اجتمعت حروفه على تلك الصورة فكانت قذيفة منطلقة . . أو شهاباً منقضّاً . . تقع على رءوس المكذبين الضالين !

* * *

واصنع بالآية الثالثة ، صنيعَك بأختيها السابقتين . .

إنك تجد المعدن واحداً . .

« فكيف كان عذابى ونُذُرِ ؟ »

تماسك بين الحروف ، وتجاوب بين الكلمات ، وتساوق فى النغم المنطلق منها . . فلا خلخلة ، ولا اضطراب ، ولا ثقل . .

ثم هى كيان واحد . .

هدير الرعد . . ودمدمة الصواعق . . . ثم سكون كسكون القبور ! !

* * *

ثم ماذا ؟

وهل قلنا فى هذه الآيات الثلاث كل ما ينبغى أن يقال ؟ إننا لم نَلْتَقِ بالآيات إلا من جانب ضيق ، من جوانبها الفسيحة التى لا حدود لها . . والتى لو دُرنا حولها الزمن كله ما بلغنا لها مدى ، ولا انتهينا منها إلى غاية . !

اقرأ الآيات الثلاث معاً . . على هذا الترتيب السابق . . الأولى ، فالثانية ، فالثالثة . .

هل وجدت شيئاً من هذا الجمع بينها على تلك الصورة ؟

اقرأها مرة أخرى . .

إنك تجد أمراً عجباً ، وتدبيراً عجيباً !

الآية الأولى . . سؤال . . « فبأىّ آلاء ربّكما تُكذّبان ؟ »

والآية الثانية . . جواب عن هذا السؤال : « ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين »

والآية الثالثة . . سؤال وجواب معاً : « فكيف كان عذابى ونُذُر »

فالسؤال فى الآية الأولى، يتوعد المكذبين بآيات الله ونعمه . . ويدعوهم إلى الإيمان والعمل الصالح . .

وفى الآية الثانية ، ويل وعذاب وبلاء ، يَلْقَى المكذبين الذين كذبوا بآلاء الله!

وفى الآية الثالثة ، بيان للحال التى تكشّف عنها البلاء والويل والعذاب الذى أحاط بالمكذّبين والضالين ، وأذاقهم عذاب السعير !

* * *

والآيات الثلاث لم تقع فى القرآن على هذا الترتيب . . وإنما كل واحدة منها آية فى سورة . . فالأولى — كما عرفت - فى سورة « الرحمن » ، والثانية ، فى سورة المرسلات ، والثالثة فى سورة القمر . .

وسورة الرحمن مدنية . . وقيل إنها مكية !

والسورتان الأخريان مكيتان . . بلا خلاف !

وقد يكون تخريجنا لهذه الآيات على هذا الوجه بعيداً عن الواقع ، قائماً على الشطط والتعسف فى التأويل ! وذلك للفواصل البعيدة التى تفصل بين السور الثلاث، زمانا ، ومكانا، ثم لهذه الفواصل التى تفصل الآيات الثلاث من سورها، وترتيبها هذا الترتيب .

وذلك أمر لا ننكره !

ولـكن ساقنا إليه — عَرَضاً — إحساسنا بما فى القرآن من أسرار ، فوقع لنا هذا الخاطر على غير انتظار أو تدبير ، فصورناه خاطراً مرسلا . . لا رأياً محكما . . وقد ينقدح من الخاطر المرسل مالا ينقدح من الرأى المحكم !

* * *

وقد كان حديثنا معك عن هذه الآيات المكررة حديثاً خاصا بها ، من حيث أنها فى ذاتها نغم موسيقى ، يَلَذّ السمع ، ولا يثقل على اللسان ، وإن تكرر عشرات المرات فى صورة مفردة ! . ولقد رأيتَ كيف كان هذا ، وكيف صَدَقَتْك التجربة ، فيما حدثتك عنه من شأنها على هذا الوجه . .

ولـكن هذه الآيات لم تجىء منقطعة هكذا عن غيرها ، ولا مَسُوقَةً هذا المساق المنفصل . . بل هى آيات فى سور ، فإذا نظرت إليها مكررة ، قلت إنهن آيات فى سورة . .

ثم وأنت إذ تقرأ هذه السور الثلاث تجد لهذه الآيات فى سورها موقعاً غير الموقع الذى وجدته حين قرأتها وحدها ، بعيدة عن الجو الذى يحيط بها ، فيما بين يديها وما خلفها من آيات ! وهنا يتجلّى لك إعجاز القرآن ، ويبدو لك من هذه الآيات — فى روعة نظمها ، وحسن نغمها — مالم يبد لك من قبل . .

ولا أريد أن آخذ عليك الطريق إلى كتاب الله الكريم لتتلو فيه هذه السور . . فتقرأ السورة كلها ، وتتأمل وضع الآية المكررة فيها ، وتتحسس فى نفسك ما يدخل عليك من هذا التكرار ، من روعة ، وقهر وسطوة . . !

ولـكن هذا لا يردنى عن أن أسبقك إلى كتاب الله ، فأقتطف منه بعضاً من كل سورة من تلك السور ، لترتلها معاً . . ثم تعود أنت فتنفرد بنفسك ، وترتل ما شاء الله أن ترتل . .

لنقرأ مطلع سورة الرحمن :

« الرَّحمٰنُ : . عَلَّمَ القُرآنَ . خَلَقَ الإنْسَانَ . . عَلَّمَهُ البيانَ . . الشَّمْسُ والْقَمَرُ بحُسْبَانٍ .. وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ .. وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان.. ألاَّ تَطْغَوْا فى الميزانِ . وأَقِيمُوا الْوَزْنَ بالْقِسْطِ ، ولا تُخْسِروا الميزانَ . . والأرْضَ وَضَعَهَا للأنامِ . . فيها فاكِهَةٌ والنَّخْلُ ذاتُ الأكمامِ . . والحبُّ ذُو الْعَصْفِ والرَّيْحانُ . . فبأىِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ . . رَبُّ المشرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ .. فبأىِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ .. مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ . . فبأىِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ . . يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ والمرْجَانُ . . فبأىِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ . . وَلَهُ الجوارِ المُنْشَآتُ فى البحرِ كالأعْلامِ . . فبأىِّ آلاءِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ [1] » . .

انظر كيف يطلع هذا المطلع على تلك الصورة الرائعة الفريدة من النظم . . فأنت بين يدى خمس آيات تلاحمت ، وتماسكت ، دون أن يقوم بينها حرف عطف. إن ما بينها من إلف يجعلها فى غنىً عن أن يُستجلب لها عاطف يعطف بعضها على بعض ! !

ثم انظر كيف بُنيت فواصل السورة من أول أمرها على النون قبلها ألف ممدودة . . هى نفس الفاصلة التى قامت عليها الآية المكررة « فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبانِ » !

وانظر مرة أخرى إلى هذا التدبير الحكيم الذى تطلع به عليك هذه المقدمة

---

(١) سورة الرحمن الآيات من ١ إلى ٢٥

من الفواصل المتتابعة المتماثلة مع فاصلة الآية المكررة . . . الرحمن . . القرآن . . الإنسان .. البيان .. بحسبان .. يسجدان .. الميزان .. الميزان .. للأنام .. الأكمام .. الريحان .. ثم بعد هذا كله تجيء الفاصلة «تكذبان» .. حيث لم تدخل الآية المكررة فى السورة إلا بعد بعد اثنتى عشرة فاصلة فى اثنتى عشرة آية . . كلها من نغم الفاصلة المكرة ، وعلى وزنها . . وهذا من شأنه أن يقيم الأذن على هذا النغم ، ويربطها به . . فإذا تكررت افظة بعد ذلك لم تجد الطريق إلى السمع مسدودًا عليها ، بل إن الأُذُن تتفتح لها ، وتدعوها إليها ، وتجذبها نحوها . .

وانظر مرة ثالثة . . فلقد سُبق هذا التكرار المنتظر بتكرار يمهد له ، ويُعِدّ السمع واللسان لاستقباله . .

وذلك بأن تكررت كلمة « الميزان » ثلاث مرات فى ثلاث آيات متتابعة دون أن تفصل بينها آيات أخرى .. ولا شك أن هذا تمهيد بليغ للتكرار الذى سيجيء بعد هذا مباشرة : « فبأى آلاءِ ربِّكما تكذّبان » .

« إنَّ فى ذلكَ لذِكْرَى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ ، أو ألْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ[1] » ! .

* * *

وفى سورة المرسلات .. يجيء مطلعها هكذا :

« وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ، فالعاصِفَاتِ عَصْفًا .. والنَّاشِرَاتِ نشْرًا .. فالفارِقاتِ فَرْقًا .. فالمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا .. عُذْرًا أو نُذْرًا .. إنَّما تُوعَدُونَ

---

(١) سورة ق آية ٣٧

لَوَاقِعٌ .. فإذَا النُّجومُ طُمِسَتْ ، وإذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ، وإذا الجِبَالُ نُسِفَتْ ، وإذا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ .. لأىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ .. لِيَوْمِ الفَصْلِ .. وما أدراكَ ما يَوْمُ الفَصْلِ (٢) » . .

هذه أربع عشرة آية من أول السورة ، لم تذكر بينها الآية المكررة . . ثم بعدها مباشرة تجىء هذه الآية ، وتتتابع . . هكذا :

« ويلٌ يومئذٍ للمكذّبينَ .. »

* * *

« ألَمْ نُهْلِكِ الأوّلينَ » ..

« ثم نُتْبِعُهُمُ الآخِرِين » ..

كذلكَ نَفْعَلُ بالمجرمينَ » ..

وَيلٌ يَوْمَئذٍ للمكذِّبين

* * *

ألَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ » ..

« فَجَعَلْناهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ .. »

إلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ .. »

« فَقَدَرْنا ، فَنِعْمَ القَادِرُونَ » .

« وَيلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

* * *

---

(٢) سورة المرسلات .. الآيات من ١ الى ١٣

« أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً . . »

أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً .. »

« وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ . »

« وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً .. »

« وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . »

وهكذا تمضى الآية إلى آخر السورة على هذا النسق العجيب من النظم .. !

فعلى رأس كل آيتين أو ثلاث آيات ، أو أربع ، أو خمس .. تجىء الآية المكررة، وكأنها خاتمة المقطع فى مقاطع « السيمفونية » الموسيقية ..

وأنت ترى أن هذه السورة الكريمة لم تتحد فيها فواصل الآيات كما رأينا ذلك فى سورة « الرحمن » مما كان له أثره العظيم فى تجاذب الآيات ، وتعانق فواصلها . .

ولكن الذى فات هذه السورة من اتحاد الفاصلة ، استعيض عنه بتقسيم السورة إلى مقاطع ، كل مقطع منها يمثل وحدة من النغم .. فى توازن الآيات ، وتماثل الفواصل ! فكان هذا العمل المحكم عاملاً حاسماً فى إقرار الآية المكررة بين آيات السورة فى وضع مطمئن مكين .

ومن التدبير الذى قامت عليه هذه السورة أن آياتها الأولى — وهى أربع عشرة آية ، لم تُذكر فيها الآية المكررة — هذه الآيات لم تجىء على نسق واحد من النظم ، ولا على وحدة واحدة من الفواصل . . بل جاءت على مقاطع ، كل مقطع منها يمثل حالا من أحوال النظم ، على نحو ما ستكون عليه صورة النظم بعد أن تدخل عليه الآية المكررة . . حيث جاء على مقاطع ، كل مقطع

يمثل وحدة من وحدات النغم الموسيقى للسورة كلها . .

فسبحان من هذا كلامه !

* * *

وسورة القمر !

جاءت على نظم عجيب فريد . .

توازن فى الآيات ، ووحدة فى الفاصلة . .

فقد جاءت الآيات كلها على وزن يكاد يكون واحدا . . أشبه بشطر البيت من الشعر . .

وجاءت الفواصل كلها على صورة واحدة . . أشبه بالقافية فى الشعر . . حرف الروى فيها هو الراء ، مسبوقة بحرفين متحركين قبلها . .

انظر :

« اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ .. »

« وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا .. وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ .. »

« وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ .. وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ .. »

« وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ .. مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ..

« حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ .. فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ . »

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ .. »

« خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ .. يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ .. »

مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ .. يَقُولُ الْكَافِرُونَ . هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ .. »

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ .. فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ، وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ .. »

« فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ .. »

« فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ .. »

« وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ، فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ .. »

« وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ .. »

« تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ .. »

« وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً . فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ »

« فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ؟ »

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ .. فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ »

« فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ »

فهذا التوازن بين الآيات — وإن لم يكن على صورة الشعر فى تعادل التفعيلات بين صدر البيت وعجزه — قد جعل النغم الموسيقى ممسكا بها جميعها فى لحن واحد متساوق الإيقاع ، يجرى قويا متدفقا كتدفق السيل ، حتى يقع على « القرار » فيستقر عنده ، ويسكن إليه !

وانظر .. أى قرار يحمل هذا البحر المتدفق ويحويه فى صدره ؟ إنه حرفٌ واحد ، هو حرفُ « الراء » .. وهو أقوى حرف فى حروف اللغة العربية ، وأشدها تماسكا .. فإذا وُقف عليه بالسكون انبعج فى رخامة ، ولين ، وصار أشبه بالوادى العميق الرحب ، بين يدى جبل تنهمر عيونه ، وتتدفق سيوله !

وانظر أيضا :

فإنك ترى أن الآية المكررة هنا : « فكيف كان عذابى ونُذُرِ » لم تدخل على السورة إلا بعد أن جاء منها خمس عشرة آية .

وترى أيضاً ، ما أشرنا إليه من توازن الآيات ، ووحدة الفواصل .

وتمضى السورة على هذا النّغم ، إلى آخرها . . حتى تعانق الآيةُ الأخيرة سورةَ « الرحمن » التى عرفتَ أمرها من قبل . وما فيها من تكرار الآية : « فبأىِّ آلاء ربّكما تكذبان » إحدى وثلاثين مرة . .

وسورة « القمر » هذه على ما جاءت عليه من هذا التوازن فى الآيات ، وهذا التوافق فى الفواصل ، تعتبر مقدمة طبيعية لسورة الرحمن ، وانتقالاً من نغم عاصف هادر ، إلى نغم ملاطف موادع . . حيث تبدأ سورة القمر مزمجرة مدمدمة . . ثم تختتم هذا الختام الرضىّ الودود . .

« إن المتقين فى جنّاتٍ ونَهَرٍ .. فى مقعدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ . . »

وبهذا يمكن أن يوصل بين السورتين كأنهما سورة واحدة . .

« الرحمنُ .. علّمَ مقرآن .. خلَقَ الإنسان .. عَلَّمَهُ البَيَانَ » . .

* * *

هذا مَثَلٌ للتكرار الذى جاء فى القرآن ، والذى نظر إليه بعض الناس نظرا مقلوباً ، فرأوه اختلالاً فى النظم ، واضطرابا فى الأسلوب ، وإسفافا فى البيان . . على حين أنه مذهب من القول لم يكن فى مقدور العرب أن يَرْقَوْا

إليه ، وضرب من البلاغة حاوله البلغاء فوقفوا دونه . . فلما جاء به القرآن على هذا الوجه ، رأوا فيه وجه الإعجاز سافراً . . فخشعوا له ، وخرُّوا ساجدين تحت قدميه !

وماذا يكون منهم غير الخشوع والسجود فى هذا المقام . ؟ وإذا هم لم يخشعوا ويسجدوا لهذا الجلال ، وهذا الإعجاز ، فلأى جلال وإعجاز يخشعون ويسجدون !

لقد تحدَّاهم القرآن بالنظم السمح السهل المألوف ، فعجزوا عن مطاولته عجزَ استيئاس واستسلام . . وتحداهم بالجزل الفخم من النظم ، فأعياهم أن يرتقوا هذا المرتقى ، وأن يطلعوا هذا المطلع . . وأقاموا على ماهم فيه من يأس واستسلام ..

ونسج لهم نسجاً جمع بين السمح السهل ، والفخم الجزل ، فزادتهم تلك الصورة من النظم حيرةً . . وحسرة ! ثم لقيهم بهذا النظم الفريد العجيب . . فنسج لهم من الآية الواحدة سورة . . يعيد فيها الآية ويكررها بلفظها . . شأن الألكن العاجز . تتكسر الكلمة على فمه وتتكرر . . وإذا بهذا الكلام المكرر المعاد ، هو الفصاحة كلها ، حواها من أطرافها ، وإذا هو الحسن كله ، جمعه من جميع وجوهه !

« فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟ وإذا قُرِئَ عليهم القرآنُ لَا يسجدون ؟ » !

هذا ، وقد كانت هذه الظاهرة القرآنية — ظاهرة التكرار — موضع نظر كثير من علماء السلف ، وكان لكل منهم رأيه الذى استراح له ، واطمأن إليه فى حكمة هذا التكرار ، وفى أثره البلاغى فى نظم القرآن وإعجازه . .

يقول الزركشى فى كتابه . . « البرهان فى علوم القرآن » :

« إن عادة العرب فى خطاباتها إذا اهتمت بشىء إرادة لتحقيقه ، وقرب وقوعه ، أو قصدت الدعاء عليه — كررته .. توكيداً ، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه ، أو الاجتهاد فى الدعاء عليه ، حيث تقصد الدعاء » .

« وإنما نزل القرآن بلسانهم ، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض ، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم فى عجزهم عن المعارضة » !

ثم يقول :

« وعلى ذلك يُحمل ما ورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد — فى القرآن — . لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة ، وكلها داعية إلى الشهوات ، ولا يَقْمَع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع . . قال تعالى :

« ولقد يسَّرنا القرآنَ للذّكر » . . قال فى الكشاف : « سهلناه للادّكار والاتعاظ ، بأن سجناه بالمواعظ الشافية ، وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد » . .

ثم يقول الزركشى متحدثا عن التكرار وأثره :

« وفائدته العظمى ، التقرير .. وقد قيل : الكلام إذا تكرر تقرر » .

« وقد أخبر الله سبحانه عن السبب الذى لأجله كرر الأقاصيص والأخبار فى القرآن ، فقال : « وَلَقَدْ وصَّلنا لَهُمُ القولَ لعلَّهُم يَتَذَكّرون » . . وقال : « وَصَرَّفنا فيه من الوعيد ، لعلَّهم يتّقون أو يُحْدِثُ لهم ذكراً »[1] .

وكنا نحبّ أن يكشف لنا الزركشى عن هذا المعنى الذى تحدث عنه ، من

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى — جزء ٣ ص ٩ .

شأن التكرار ووزنه فى الكلام — فيعرض صوراً من التكرار القرآنى ، ويجلّى روعة هذا التكرار ، وما كان له من أثر فى تقرير المعنى وتوكيده ، دون أن يجور على النظم القرآنى ، أو يأخذ شيئاً من اتساقه وتجاوب كلما ومقاطعه !

ولكن الزركشى وقف بنا عند رأيه فى أن التكرار القرآنى هو أسلوب من أساليب البيان العربى ، وأن القرآن جرى فى هذا على ما كان للعرب من أساليب التكرار فى مواقف التوكيد ، والدعاء ، والتقرير . . وذلك فى جسيمات الأمور ، وعظائمها !

والقرآن الكريم ، وإن سلك هذا المسلك المألوف فى التكرار ، إلا أنه خرج به عما كان يلحقه عادة من قلق النظم ، واضطراب الأسلوب ، وضعف الترابط بين أجزاء الكلام ، فيبدو وجه الكلام جافياً . . كالحاً .

وهذا — كما قلنا — إعجاز آخر من إعجاز القرآن ، إذ أقام من الأسلوب القَلِق المضطرب ، المفكك — أسلوباً متساوقاً متجانسا ، متماسكا . . فى أروع وأحكم بيان ! !

وفى « أمالى المرتضى » مجلس خاص من مجالس الشريف المرتضى يشرح فيه ظاهرة التكرار فى القرآن ، ويعرض آراء العلماء فيها ، فيردّ بعضها ، ويقبل بعضها ، ويجرّح رأياً ، ويعدّل آخر .. ثم يدلى برأيه الذى ارتضاه لتفسير هذه الظاهرة .

يقول المرتضى فى معرض التكرار الذى جاء فى سورة : « الكافرون » :

« إن سأل سائل فقال : ما وجه التكرار فى سورة : الكافرون ؟ وما الذى حسّن إعادة النفى لكونه عابداً ما يعبدون ، وكونهم عابدين ما يعبد ، وذِكْرُ ذلك مرة واحدة ، يكفى ؟

ثم يجيء برأى ابن قتيبة جواباً على هذا السؤال ، وبالطعن الذى وجه إلى هذا الرأى . . ثم يقول :

« وعن هذا السؤال ثلاثة أجوبة ، كل واحد منها أوضح مما ذكره ابن قتيبة :

أولها : ما حُكى عن أبى العباس ثعلب أنه قال : إنما حسُن التكرار لأن تحت كل لفظة معنًى ليس هو تحت الأخرى ، وتلخيص الكلام : « قل يا أيُّها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدونَ » الساعةَ وفى هذه الحال ، « ولا أنتم عابدون ما أعبد » فى هذه الحال أيضاً ، فاختُصَّ منه — من النبىّ — ومنهم — أى من الكافرين — بالحال . وقال من بعد : « ولا أنا عابد ما عبدتم » فى المستقبل ، « ولا أنتم عابدون ما أعبد » فيما تستقبلون . . فاختلفت المعانى ، وحسُن التكرار لاختلافها .

ثم يعلّق على هذا الجواب بقوله : « ويجب أن تكون السورة على هذا الجواب مختصَّةً بمن المعلومُ من حاله أنه لا يؤمن[1] . . وقد ذكر مقاتل وغيره أنها نزلت فى أبى جهل والمستهزئين[2] ، ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد . . وهم : العاص ابن وائل السَّهمىّ ، والوليد ابن المغيرة ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، وعدىّ بن قيس . »

وبعد أن يعرض المرتضى الجوابين الآخرين عن التكرار فى سورة « الكافرون » يعرض للتكرار الذى وقع فى سورة الرحمن .. فيقول :

---

(١) وذلك لأن المفهوم من هذا المعنى تأبيد النفى ، فالكافرون الموجه إليهم الخطاب فى هذه السورة محكوم عليهم أنهم لا يعبدون ما يعبد النبى أبداً لا فى الحال ، ولا فى الاستقبال ، بل يمضى معهم كفرهم إلى قبورهم .

(٢) المستهزئون هم الذين نزل فيهم قوله تعالى : « إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون القرآن عضين » .

وأما التكرار فى سورة الرحمن فإنما حَسُن للتقرير بالنعم المعدّدة ، فكلما ذُكر الله تعالى نعمة أنعم بها ، قرّر عليها ، ووبخ على التكذيب بها .. كما يقول الرجل لغيره : ألم أحسن إليك بأن خوّلتك الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن خلصتك من المكاره ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ؟ فيحسن منه التكرير ، لاختلاف مايقرره به . . وهذا كثير فى كلام العرب وأشعارهم . . قال مهلهل ابن ربيعة يرثى أخاه كليباً :

على أنْ ليس[1] عِدْلا من كليب ... إذا طُرِد اليتيم عن الجَزورِ

على أن ليس عِدْلا من كليب ... إذا ما ضِيمَ جيرَان المُجيرِ

على أن ليسَ عِدلاً من كليب ... إذا رجَفَ العِضاه من الدَّبُور[2]

وقد تكرر هذا اللفظ ثمانى مرات فى ثمانى أبيات . .

ثم ذكر رثاء ليلى الأخيلية فى « توبة بن الحُمَير » وقد كررت « نِعْمَ الفتى » أربع مرات ، فى أربعة أبيات ، كما كررت شطر البيت : « لعمر المرء أبكى لفقده » أربع مرات فى أربعة أبيات ..

ثم يقول : « فخرجت فى الأبيات من تكرار إلى تكرار ، لاختلاف المعانى التى عددناها ، على نحو ما ذكرناه » !

وقال الحارث بن عُبَاد [يرثى ابنه ، ويتأهب لطلب ثأره من قاتله المهلهل ابن ربيعة] :

قرّبا مربط النعامة[3] مِنّى ... لَقِحَتْ حربُ وائلٍ عن حِيَالِ

---

(١) اسم ليس ضمير يعود على جساس بن مرة ، وهو الذى قتل كليباً غدراً . . أى أنه ليس معادلا لكليب فى هذه الأمور التى ذكرها .

(٢) رجف : تحرك حركة قوية راجفة من البرد الشديد . والعضاه شجر له شوك ، ويريد بهذا كناية عن الجدب الذى يقع فى وقت البرد حين يجىء الشتاء وترجف أشجار العضاه من البرد ! !

(٣) النعامة : اسم لفرس له .

وكرر قوله : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » فى أبيات كثيرة من القصيدة ، للمعنى الذى ذكرناه .

« وهذا هو الجواب عن التكرار فى سورة المرسلات فى قوله تعالى : « ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين » .

« فإن قيل . إذا كان الذى حسَّن التكرارَ فى سورة الرحمن ما عدَّده من آلائه ونعمه ، فقد عدّد فى ذلك ما ليس بنعمة ، وهو قوله تعالى : « يُرْسَلُ عليكما شُواظ من نارٍ ونحاسٌ فلا تنتصران » . وقوله . « هذه جهنم التى يكذِّب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آنٍ »

فكيف يحسُن أن يقول بعقب هذا : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وليس هذا من الآلاء والنعم ؟ قلنا : الوجه فى ذلك أن فعل العقاب وإن لم يكن نعمة ، فذِكْره ، ووصفه ، والإنذار به ، من أكبر النعم ، لأن فى ذلك زجراً عما يُستحق به العقاب ، وبعثاً على ما يُستحق به الثواب ، فإنما أشار بقوله : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » بعد ذكر جهنم والعذاب فيها — إلى نعمته بوصفها — أى جهنم — والإنذار بعقابها ، وهذا مما لا شبهة فى كونه نعمة[1] !! »

هذه هى سبيل التكرار فى القرآن .. لا يجىء متكلفاً ، ولا يصدر عن عجز عن تناول اللفظ الذى يصلح للمعنى عليه ، وإنما يجىء حين يجىء ، ليخدم المعنى ، ولا يُخِلّ بتساوق النظم ، بل يمدّ النغم الموسيقى بلون جديد ، يزداد به النغم روعة وقوة !

ولكن لسائل أن يسأل : أما كان من الممكن أن يجىء القرآن بألفاظ

---

(١) أمالى المرتضى جزء ١ ص ١٢٠ وما بعدها .

مختلفة لهذا المعنى الذى حمله اللفظ الذى تكرر ؟ وألم يكن فى اللغة مرادف أو مرادفات لقوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذّبان » ؟ أو لقوله : « ويلٌ يومئذٍ للمكذبين » ؟ إن ذلك لو حدث لخفف من حدّة هذا اللون الصارخ فى التكرار ! ؟

والجواب على هذا أن القرآن لو أراد أن يعدل عن هذا الأسلوب الذى أراد على تلك الصورة لوجد أكثر من اتجاه يتجه إليه ، ليجىء باللفظ الذى يؤدى المعنى المراد ، ولأقام السورة على نظم غير هذا النظم ، ولأخرجها على نسق غير ذلك النسق ، مع احتفاظها بالمعنى المؤدَّى بها على صورتها التى جاءت بها ، سواء أكان ذلك فى سورة الرحمن أم سورة المرسلات أم فى غيرهما من المواضع التى وقع فيها التكرار . .

ولكن هذا الأسلوب الذى جاءت عليه الألفاظ التى تكررت ، كان عن قصدٍ ، وعن تدبير . . يبدو لنا منه — فيما نرى :

أولا : إيقاظ المشاعر ، وإلفات العقول بهذا الخروج على المألوف من الخطاب ، وذلك لما يقتضيه الموقف ، من يقظة ووعى ، وحذر من أن يفلت من بين يدى الإنسان ما ينبغى أن يَلْقَى به هذا الموقف ، من استعداد نفسى ، وعقلى ، حتى ينتفع بما فيه من عبرة وعظة . . ولو جاء عرض هذا الموقف بأسلوب مألوف ، فلربما غفل عنه كثير من الناس ، ولربما التفت إليه من التفت منهم ، بنفس فاترة ، وعقل شارد !

وسورة الرحمن التى تكرر فيها لفظ : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » — معرض متكامل لنعم الله ، ولقدرة الله ، ولرحمة الله ، ولجلال الله وعظمته . . فإذا طُوِّف بالإنسان فى هذا المعرض ، ولم يكن معه الدليل الذى يشير له إلى كل

ما ضمّ عليه هذا المعرض من خير ، وينبهه إلى ما ينبغى أن يتزوّد به من هذا الخير — فلربما طاف ما طاف ، ثم خرج صفر اليدين . . لم يحمل من المعروضات إلا صورًا وخيالات . . لا تلبث أن تزول . .

فكأن قوله تعالى : « فبأىّ آلاء ربكما تكذبان » هو الدليل الذى يصحب قارىء السورة أو سامعها من أولها إلى آخرها . . كلما عرضت آية من آيات الله ، أو تجلّت نعمة من نِعَمه ، طلع عليه هذا الدليل يقول له هذا القول الكريم : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » دون أن يتغير وجهه ، أو صوته ، حتى يكون ذلك آنَفَ لقارىء السورة أو سامعها . . فإنه طَوال هذه الرحلة لا يتغير عليه وجه الدليل ، ولا صوته . . وفى ذلك ما فيه من تأثير نفسى ، واطمئنان قلبى . . لا يجده المرء لو طلع عليه فى كل خطوة من رحلته تلك — وجه جديد ، وصارخ جديد ! !

وكذلك الشأن فى مواقف الوعيد التى جاءت فى سورة المرسلات ، وما يطلع وراء كل موقف من صارخ يصرخ . . « ويل يومئذٍ للمكذبين » . . فإن امتداد هذا الصوت من أول السورة إلى آخرها ، دون أن يتغير وجه الصارخ ، أو تختلف نَبَراته ، فيه تمكين قوى لهذا الصوت أن يزلزل النفوس ، ويملأ القلوب فزعاً وهلعاً من هذه المواقف التى تعرضها الآيات ، فيفرّ منها إلى أى وجه يباعد بينه وبينها . . ولو أن صوت هذا الصارخ تغير من موقف إلى موقف ، لما كان لهذا الصوت ذلك الوقع الشديد من التأثير على النفس ، ولوجد السامع لكل صوت حالاً تنقله من حالته التى هو فيها . . وهذه الخالخلة تذهب بكثير من الأثر النفسى للصوت الواحد المعتد ، وتجعله قِطعاً ممزقة ، يجد المرء فى خلالها شيئاً من الراحة والأمن ، وإن استقبل بعدها أشد الأصوات إزعاجاً وإرعاداً !

وكذلك أيضاً التكرار الذى جاء فى سورة القمر .. فهو زجر بعد زجر ، وعذاب فوق عذاب .. فهذه المَثُلات التى نزلت بالضالين المكذبين لرسل الله ، وما ساق الله إليهم فيها من مهلكات — هى أو مثلها ، نُذر للضالين المكذبين بمحمد ، وهى ليست ببعيدة منهم ، إذ قد أصابت إخوة لهم من قبل ..

« كَذَبَتْ عادٌ .. فكيف كان عذابى ونُذر ؟»

فهذا السؤال الذى يقع مكرراً فى أعقاب هذه المَثُلات التى أصابت قوم نوح وعاد ، وثمود ، — ليس متوجهاً إلى أولئك الذين أُبيدوا وأُهلكوا ، وإنما هو إلى أولئك المعاندين المكذبين بمحمد ، فلينظروا فى مخلفات هؤلاء الأقوام ، ولياخذوا الجواب منها .. وهناك يجدون الجواب حاضراً : طوفان يأخذ كل شىء ، وريح تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وصيحة تتمزق منها الأجساد، فإذا الناس كهشيم المحتظر !

ثانياً : إنّ تفرد القرآن بهذا اللون من الأسلوب .. مع احتفاظه بمستواه الذى عُرف له، من روعة النظم ، وجماله ، واتساق نغمه — هو شهادة قائمة تشهد للقرآن بالإعجاز .

فالمعروف عن التكرار أنه إذا وقع فى كلام الناس نزل بالكلام عن درجة البلاغة ، وأخلّ بمقتضيات الفصاحة ، وكسا الكلامَ برودة وسماجة .

ولم يقع التكرار فى الأدب العربى إلا فى نُدرة ، وفى الشعر خاصة .. لأن الوزن والقافية يعملان عملهما فى تلطيف غثاثة التكرار ، أو تخفيف ثقله .. أما إذا وقع التكرار فى النثر — خطابة أو كتابة — فإنه يُسقط الكلام ، ويَذهب به ، فلا يُحسب فى الأدب ، ولا يضاف إليه .

ومن عجيب أمر القرآن فى هذا .. أنه جعل التكرار الذى جاء به فى سورة الرحمن ، وفى سورة القمر ، وفى سورة المرسلات ، جعله آية مستقلة .. تعقيباً على آية سابقة ، فكأنه بالنسبة للآية التى قبلها ، المصراعُ الثانى للبيت من الشعر ، أو الفاصلة فى الآية ! على حين أن الذى تكرر فى الشعر كان يجىء دائماً صدراً للبيت ، و مصراعا أولَ له. وذلك لتُخْفِىَ القافيةُ هذا العيبَ الناجم عن التكرار .. ولو أن التكرار كان فى الشطر الثانى من الأبيات التى وقع فيها التكرار لفسد النظام واضطرب . .

فانظر كيف جاء التكرار فى القرآن متخيِّراً المواطن التى تجنبها العرب فراراً من الثقل ، وخوفاً من السقوط . . فلم يجيئوا به فى النثر ، وجاءوا به فى الشعر ، وفى الشطر الأول من البيت !

وجاء القرآن بالتكرار فى غير ثوب شعرى ، وفى غير الصدر من الآية ، فكان ذلك إعجازاً من القرآن ، إذ قام فى التأثير بما لم يقم به الشعر ، كما احتمل نظمه هذا التكرار من غير أن يستعين على تخفيفه بوزن الشعر وقافيته ، فجاء أخفَّ وقعاً ، وألطف مدخلا على الأذن من الشعر بجميع ما فيه من ألوان النغم والموسيقى . .

ثالثاً : أن هذا التكرار فى ذاته يخدم غرضاً أصيلا من أغراض الدعوة ، وهو تثبيت القلوب على الحق ، وإقامتها على الشريعة التى تحملها تلك الدعوة ..

فالتكرار من شأنه أن يعمق جذور الفكرة التى تحملها العبارة المكررة ، ويمكن لها فى كيان الإنسان ، ويقيم منها خاطراً مُلِحّاً يتردد فى صدره ، ويهجس بها فى ضميره . . وقد يعلو همسه حتى يكون صراخاً ، أو هتافاً ، أو دوياً .

انظر فى أساليب الدعاية اليوم : إنها تقوم على هذا الأسلوب ، الذى عُرف له قدره وأثره ، فى التمكين لفكرة ، أو التوجيه لرأى أو مذهب .

فإذا أرادت دولة أن تدعو لسياسة معينة ، أوتنصر رأياً خاصًا ، لجأت إلى هذا الأسلوب ، ففتحت أفواهها كلها ، وأبواقها جميعا .. صباحَ مَساء .. تُبدِى القول وتعيده ، عشرات المرات ومئاتها ..

ومع أن « البضاعة » التى تدعو لها ، وتنادى عليها ، كثيراً ما تكون بضاعة كاسدة ، أو فاسدة ، والأصوات المنطلقة بالدعاية لها كثيراً ما تكون أصواتًا كاذبة منافقة — ومع ذلك فإن هذا الأسلوب يحقق دائمًا بعض النتائج التى يهدف إليها ، وإن كانت مؤقتة ، لا يكتب لها البقاء طويلا ..

فكيف إذا كانت الدعوة قائمةً على الحق والخير ، والدعاة الذين يدعون لها لا يريدون إلا وجه الحق والخير ؟ إن أسلوب التكرار هنا يثمر أطيب الثمرات ، ويأتى بأعظم الآثار .

يقول صاحب كتاب « الحضارة الإسلامية » فى صدد الحديث عن التكرار فى القرآن ، والرد على الذين يعيبون القرآن من هذا الوجه : « يجب ألا يعزُب عن البال أن « محمداً » كان ينبغى أن يعلم وأن يصاح[1] .. والواعظ والمعلم مجبران بحكم عملهما فى ذاته إلى التكرار بنفس الألفاظ تقريباً .

ونحن الذين لا نقرأ القرآن من أجل إصلاح أمرنا[2]، ولا ابتغاء التهذيب الخلقى لنفوسنا ؛ تساورنا آمالٌ خاطئة حين ننظر فى كثير من فقرات الكتاب ،

---

(١) ليس القرآن من عمل « محمد » ولا من مقترحاته . . وانما هو مبلغ لما أنزل اليه ، كما نزل ، لا يملك أن يزيد فيه حرفاً أو ينقص منه حرفاً .

(٢) يقصد غير المؤمنين بالقرآن كتاباً سماويا ، منزلا من عند الله .

فإن كثيراً من آيات الكتاب لم يكن قصد النبيّ من نقله إلى الناس وهو الاستثارة الذهنية ، بل توطيد معايير جديدة للتقوى والأخلاق[١] » .

ويخطىء المؤلف إذ يقدّر أن القرآن الذى وقع فيه التكرار إذ قرأه القارىء غير المسلم ، لا ليطلب فيه التهذيب الخلقى لنفسه ، بل مجرد قراءة لكتاب أدبى — تساوره آمال خاطئة فى بلاغة القرآن الذى وقع فيه التكرار — يخطىء المؤلف أفدح الخطأ فى هذا التقدير ، فإن التكرار الذى وقع فى القرآن مع صرف النظر عما فيه من تهذيب نفسى وخلقى ، هو فى ألفاظه — مجردةً عن المعانى الكريمة التى فيه — نغم موسيقى متناسق ، متساوق ، يلذّ السمع ، ويهز القلب ، وينعش الروح !

وحسن من المؤلف أن يعترف هنا بالأثر النفسى للتكرار ، وبموقعه من القلب ، وأنه تدبير حكيم فى مقام الدعوة لإصلاح النفوس ، وإحياء القلوب .. فهذا مقصد أصيل — كما قلنا — من مقاصد التكرار فى القرآن .

إن داعية التكرار فى القرآن قائمة فى المواقف التى يكون فيها الأمر ذا شأن وخطر فى الحياة الروحية والنفسية ، فتقتضى الحال أن يقابَل هذا الموقفُ بما ينبغى له من الحضور النفسى والعقلى ، وهذا لا يكون إلا بالتنبيه لهذا الموقف ، والدعوة له ، والهتاف به .. والتكرار — كما قلنا — أداة فعالة من أدوات الإيقاظ والتنبيه .. نجده فى الأذان حيث يُدعى الناس إلى أهم أمر من أمور الإسلام ، و والصلاة ، فيؤذن فيهم مؤذن الحى : حىّ على الصلاة .. حىّ على الصلاة .. حىّ على الفلاح .. حىّ على الفلاح . !

---

(١) حضارة الإسلام لجرونيبادوم ص ١٠٩ .

ولما كان التكرار ذا أثر قوىّ فى مقام التذكير بالله ، وتوجيهنا إليه ـ كان الرسول الكريم إذا حدّث بحديث أعاده على سامعيه ثلاث مرات .. كما روى ذلك البخارى وغيره من أصحاب الصحاح .

كذلك كان شأن النبى صلى الله عليه وسلم مع نفسه .. فكان صلوات الله وسلامه عليه ـ إذا أهمه أمر ، لهج به ، وحرّك به لسانه ، وألقى به على سمعه مرات كثيرة .

عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة ، فقام بآية يردّدها ، وهى :

« إن تعذبهم فإنهم عبادُك ، وإن تغفر لهم فانك أنتَ العزيزُ الحكيم » .

وكذلك كان يفعل صحابة رسول الله فى المواقف التى يشعرون إزاءها بالرهبة والقهر .. فإذا حضرهم فيها من كلام الله شىء أمسكوا ليلة أو بعض ليلة ، يرددونه على ألسنتهم ..

فقد روى أن « تميما الدارى » رضى الله عنه ، قام ليلة بالآية الكريمة : « أم حَسِبَ الَّذين اجترَحُوا السيئات أن نجعَلهم كالّذين آمنوا وعملوا الصّالحات ، سواءً محياهم ومماتُهم .. ساء ما يحكُمون[1] » .

ورُوى أن سعيد بن جُبَير — رضى الله عنه — قام ليلة بالآية الكريمة : « وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ[2] » .

وعلى هذا فان التكرار فى القرآن قد كان أسلوباً من أساليب التمكين

---

(١) سورة الجاثية آية : ٢١ (٢) أى قام الليله كلها بهذه الآية يتلوها ويردد تلاوتها.

للدعوة الإسلامية ، وترسيخ الأصول الأخلاقية التى تدعو إليها . . إلى ما كان فيه من تحدٍّ معجز بهذا الأسلوب الذى كان يتجنبه البلغاء ، ويخشون الدنوّ منه ، حيث كان داعية من دواعى سقوط الأسلوب ، واضطرابه وفساده !

تكرار القصص فى القرآن

هذا ، وفى القرآن ظاهرة أخرى من ظاهرات التكرار ، وهى ما وقع منه فى القصص القرآنى — فقد تكررت معارض القصة الواحدة فى أكثر من موضع منه .

وكانت هذه الظاهرة أيضاً مما لفت أنظار العلماء إليها ، وحرك أقلامهم وألسنتهم لها . . فهذا أبو بكر الباقلانى يقول عنها فى كتابه إعجاز القرآن :

« إن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدّى معنًى واحداً — من الأمر الصعب ، الذى تظهر فيه الفصاحة ، وتبين البلاغة .

« وأعيد كثير من القصص فى مواضع مختلفة ، على ترتيبات متفاوتة ، ونُبِّهُوا — أى العرب — بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله — مبتدأ به ومكرراً » .

ويكشف صاحب البرهان عن سر التكرار فى قصص القرآن فيقول :

« ومنه — أى من التكرار — تكرار القصص فى القرآن ، كقصة إبليس فى السجود لآدم ، وقصة موسى وغيره من الأنبياء . . قال بعضهم : ذكر الله موسى فى القرآن فى مئة وعشرين موضعاً ، وقال ابن العربى . . ذكر الله قصة نوح ، فى خمسة وعشرين ، وقصة موسى فى سبعين موضعاً . .

ثم يقول :

« وإنما كررها — أى القصة — لفائدة خَلَتْ عنه فى الموضع الآخر . وهى أمور :

أحدها : أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً .. ألا ترى أنه ذكر الحيَّة فى عصا موسى عليه السلام ، وذكرها فى موضع آخر ثعباناً ! ؟

الثانية : أن الرجل ـ وذلك فى صدر الإسلام وقبل أن يكمل نزول القرآن ـ كان يسمع القصة من القرآن ، ثم يعود إلى أهله ، ثم يهاجر بعده آخرون يَسْكون عنه ـ أى عن القرآن ـ ما نزل بعد صدور[1] الأولين ، وكان أكثر من آمن به ـ بالقرآن ـ مهاجريًّا . فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى آخرين وكذلك سائر القصص . . فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها ، فيكون فيه إفادة لقوم ، وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين ، وهم الحاضرون ـ أى المقيمون بالمدينة .

الثالثة : تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم بما اتفق للأنبياء مثله ، مع أممهم . . قال تعالى : « وكلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ من أنباء الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ به فؤادَكَ[2] » .

الرابعة : أن إبراز الكلام الواحد فى فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة .

الخامسة : أن الله تعالى أنزل هذا القرآن ، وعجّز القوم عن الإتيان بمثل آية منه ، لصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .. ثم بَيَّنَ وأوضح الأمر فى عجزهم ، بأن

---

(١) أى بعد رجوع الجماعات التى أخذت حظا من القرآن ثم عادت إلى أهلها ، أو هاجرت.
(٢) سورة هود آية ١٢٠

كرر ذكر القصة فى موضع ، إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، بأى نظم جاءوا ، وبأى عبارة عبَّروا[١] » .

وتدبير القرآن فى هذا يكشف لنا عن وجه جديد من وجوه الإعجاز فيه . . إذ قد وضع القصة بهذا الموضع منه ، وأنزلها تلك المنزلة فيه ، وأناط بها هذه المهمة العظيمة ، فجعلها عبرة وعظة ، وفجر من جنباتها ينابيع الحكمة والموعظة الحسنة ! . .

فلقد كان القصص المألوف فى الحياة العربية قبل القرآن قصصاً خيالياً خرافياً ، يساق للّهو ، ويُزْجى للترفيه عن النفس ، وللتخفيف من قسوة الحياة فى البادية ، أو الهروب منها ، حيث لا متنفس للناس فى هذه الحياة الجافية القاسية إلا الأوهام والخيالات ، يتخذونها مركبا تنتقل بهم لحظات إلى عالم الأمانىّ والأحلام ، ثم يَصحُون بعدها كما يصحو النائم من حلم . . لا يمسك منه بشىء !

هكذا كان القصص العربى ، قبل القرآن ، لا يستدعى العقلَ ، ولا يتجه إليه . . إذا كان كله تقريبا حديثا جاريا على ألسنة الحيوان ، أو الجنّ . . وهذا من شأنه أن يدعو المرء إلى أن يلقاه فى غفلة من عقله ، حتى يمكن أن يستمع إليه ، وتقبلَ أذنه ما فيه من شحطات ومفارقات !

ومثل هذا القصص لا يمكن أن يتلقّى منه الإنسان عبرة أو عظة ، كما لا يمكن أن يلتقى به الإنسان إلا على لهو أو ما يشبه اللهو ، ولا يأخذه مأخذ الجدّ بحال .

أما قصص القرآن فقد جاء على غير هذا الضرب من الأحاجى الواهية ، والحكايات المهملة .

جاء هذا القصص مَعْرَضاً حيًّا لكثير من أحداث الحياة الماضية ووقائعها . .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن جزء /٣ ص ٢٧

فلقد تخيَّر من تلك الأحداث والوقائع التى اعتبرت ـ ما كان فيه موضع عبرة وعظة، فبعثها من مرقدها ، بمشخصاتها كلها .. بأحوالها ،وأزمانها ، وأمكنتها ، حتى لكأنها لأول مولدها فى الحياة . . لم يغب منها شىء ، ولم يذهب الماضى بشىء من جِدّتها وحيويتها . .

إنك تقرأ القصة من كتاب الله، فإذا أنت فى حياة غير الحياة التى أنت فيها . وفى زمن غير زمانك . وفى مكان غير مكانك . . إنك فى الحياة التى عاشت فيها تلك القصة ، وفى زمانها ، ومكانها ، ومع أهلها ، وما يتقلبون فيه من حياة !

تقرأ قصة موسى وفرعون . . فإذا بك قد انتقلت من القرن العشرين الذى تعيش فيه ، إلى ما قبل الميلاد بعدد عديد من القرون . . وإذا أنت فى مصر ، ومع فراعنة مصر .. وإذ أنت مع الأحداث التى وقعت بين موسى وفرعون . . تراها ، وتسمعها وتشارك فيها ، وتنفعل معها .

وتقرأ قصة أصحاب الكهف . . وقد انطوى فيها عنصر الزمن ، فلم يكن فى القصة ذكر لحدث تاريخى ، أو لشخص من أشخاص التاريخ يشير إلى حدود الزمن فى هذه القصة — ومع ذلك فأنت تشم من القصة ريحاً ينبعث من أعماق الماضى السحيق . . ريحاً يشير إلى مهابّ ذلك الزمن ومطلعه . . !

إن ما تقرره القصة من اختلاف الناس فى أشخاص أصحاب الكهف ، وعددهم ، وهذا اللغط الكثير الذى يدوّى فى سمع الحياة عنهم — هو إشارة بليغة إلى حدود الزمن الذى عاشوا فيه .. وأنه كان ـ لعهد نزول القرآن بقصتهم ـ زمناً بعيداً ، قد اتسع مداه ، حتى دارت أخبار هؤلاء النفر فى الحياة ، وطوّفت فى الدنيا كلها .

ومكان القصة ـ قصة أصحاب الكهف ـ وأشخاصها ؟ ..

أين هذا المكان ؟ ومن هم أولئك الأشخاص ؟

المكان هو الدنيا كلها . . حيث يكون الخير والشر . . والهدى الضلال .

والأشخاص هم فى كل الناس جميعاً ، وفى ضمير المجتمع الإنسانى كله . . حيث تقع الناس على مواقع الخير والشر ، وحيث يتجه الناس إلى وجهات الهدى والضلال .

وأنت تجد من هذا التدبير أن عنصر المكان ووجه الأشخاص ليس له أثر فى اتجاه الغاية التى تهدف إليها القصة . . إذا كانت غايتها متجهة إلى الناس جميعاً فى كل مكان !

أما عنصر الزمن وإن جاء متخفياً فقد كان مجيئه على هذا الوجه مقدوراً بقدر الحاجة إليه . ذلك أنه وإن يكن هدف القصة غير مقيد بزمان ، ولا محدود بمكان ، فإن للزمن أثره فى إضفاء لون من الإكبار والإجلال على الأحداث التى ضمّت عليها القصة ، وبالتالى يعظم فى النفس موقع العبرة والعظة منها[1] .

* * *

أما عرض القصة الواحدة فى أنماط متعددة من النظم القرآنى بين الإطناب والإيجاز ، والبسط والقبض ، فذلك وجه من وجوه الإعجاز لآيات الله ، يقوم منه شاهد على الزمن كله ، وعلى الإنسانية جميعها بأنها منزلة من عند الله ، تتقطع دونها أنفاس البلغاء ، وتقصر عن التعلق بها أيدى أصحاب البيان . . وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل .

---

(١) تجد تفصيلا وافيا ، وتحليلا كاملا للقصص القرآنى فى كتابنا القصص القرآنى .

دعوى وبرهانها:

والدعوى التى ندّعيها لداعية التكرار فى القصص القرآنى ، وفى كل تكرار فى القرآن الكريم ـ هى أن هذه الصور المكررة يكمّل بعضها بعضاً، وأنها فى مجموعها تعدّ صورة واضحة ، كاملة ، مجسّمة ، أو شبه مجسّمة للحدث ، وأن ما يبدو من أنه اختلاف بين المقولات ، فى الواقعة ، الواحدة ، أو الحدَث الواحد ، ليس إلا تجميعاً لمتناثر الأقوال من هذه الواقعة ، أو ليس إلا التقاطاً لظاهر القول، وما يكمن وراءه من خواطر وخلجات ، لا يستطيع أن يمسك بها إلا النظم القرآنى وحده ، على هذا الأسلوب من التكرار الذى جاء به ..

فالتكرار الذى يحدث فى بعض مشاهد القصة القرآنية ، يؤدّى وظيفة حيويّة ، فى إبراز جوانبَ لا يمكن إبرازها على وجه واحد من وجوه النظم ، بل لابدّ أن تُعاد العبارة ، مرّة ومرّةً ، لكى تحمل فى كل مرة بعضاً من مُشَخّصات المشهد ، وإن كانت كل عبارة منها تعطى صورة مقاربة المشهد كله .

ولنا أن نشبه ذلك ـ على بعد ما بين المشبَّه والمشبّه به ـ بالتصوير «الفتوغرافى» والتصوير «السينمائى» أو «التليفزيونى» ..

ففى التصوير «الفتوغرافى» ، نجد اللقطة الواحدة تصوّر المشهد كله ، تصويراً كاملا .. صامتاً ..

والصورة هنا ، وإن أعطت جميع ملامح المشهد ، فإنها تحتاج فى قراءتها إلى مهارة وحذق للكشف عن مضمونها ، أو بعض مضمونها .. إذ كانت

إنما تكشف المقطع السطحى للحدث ، أو الجسم الذى تصوّره ، منقطعاً عن الحركة ، والتجسيد .

أما الصورة السينمائية ، فإنها تتشكل من مئاتٍ وآلاف من « اللقطات » حتى تتجسم الأحداث والشخوص ، وتتكشف كل خافية كانت مختفية وراء الصورة « الفتوغرافية » ، فإذا هى تجمع بين الحركة والتجسيد . .

إن تكرار الأحداث القصصية فى القصص القرآنى ، هو إعجاز من إعجاز القرآن الكريم ، تتجلى فيه روعة الكلمة وجلالها ، بحيث لا يُرى لها وجه فى أية لغة ، وفى أية صورة من صور البيان ، يقارب هذا الوجه ، فى جلاله ، وروعته ، وسطوته .

وهل شهدت الحياةُ « الكلمةَ » تؤدّى ما يؤديه العمل «السينمائى » اليوم فى نقل المشاهد والشّخوص بأبعادها الثلاثة : (طولها ، وعرضها ، وعمقها) ، وبحركاتها ، وسَكَنَاتها ، ونطقها ، وصمتها ؟ وكم تتكلف السينما لهذا العمل من لقطات ؟ مئات وألوفاً ! !

أما النظم القرآنى ، فإنه يعرض المشاهد بأبعادها ، وأعماقها ، وحركاتها ، وسكناتها ، وبنطقها وصمتها ، وبوسوسة خواطرها ، وهجسات نفوسها ، وخلجات قلوبها ، ثم لا يكون ذلك كله إلا بعدد محدود من اللقطات ، لا يكاد يتجاوز أصابع اليد عدداً .

ومن تدبير القرآن الكريم فى هذا ، أنه لم يجمع هذه « اللقطات » فى معرض واحد ، حتى لا تتراكب وتتراكم ، بل جعلها موزعة فى مواضع متباعدة أو متقاربة فى القرآن الكريم ، بحيث يمكن أن تستقل كل « لقطة » منها بذاتها مستغنية عن كل تفصيل ، ثم بحيث لو نظر ناظر إليها من خلال « اللقطات »

الأخرى المماثلة أو المناظرة لها ، لوجد منها جميعاً تجاوباً ، واتساقاً ، وائتلافاً . . حتى لكأنها اللحن الموسيقى يتألف من أنغام شتى ، تجمعها الوحدة التى يسير فى مجراها اللحن .

وبقى بعد هذا أن نعرض نموذجاً من التكرار القصصى فى القرآن ، لننظر وينظر معنا الذين يأخذون على بلاغة القرآن هذا التكرار — كيف كان هذا التكرار إعجازاً من إعجاز النظم القرآنى ، إلى جانب إعجاز النظم فى ذاته ، قبل التكرار ، وبعد التكرار . .

ونتخير هذا النموذج من بين القصص القرآنى ، بأن نأخذ قصة موسى إذ كانت هذه القصة أكثر قصص القرآن تكراراً ، فقد ذُكرت — كما قيل — فى مائة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم . .

ولا نعرض قصة موسى كلها — بل نأخذ منها هذا المقطع ، الذى واجه فيه موسى فرعونَ وسحرته ، إلى أن خرج ببنى إسرائيل من مصر . . إذ كان هذا المقطع أكثر ما تكرر من حديثٍ عن موسى وموقفه من فرعون ، وسحرة فرعون . .

* * *

وهذا المقطع الذى نقف عنده من قصة موسى مع فرعون ، قد جاء فى عدة معارض فى القرآن الكريم .

وها نحن أولاء نعرضها حسب ترتيب نزولها ، كما وقع لنا ، وكما هو الرأى الراجح فى القول بترتيب هذا النزول . .

أولا : فى سورة طه

بعد أن يدخل موسى وهرون على فرعون ، ليبلغاه رسالة ربهما إليه .. يبدأ الموقف هكذا :

« إنا قد أوحى إلينا أن العذابَ على من كذب وتولى .

« قال فمن ربكما يا موسى .

« قال ربنا الذى أعطى كلَّ شىء خَلْقه ثم هدى .

« قال فما بال القرون الأولى ؟

« قال علمُها عند ربِّى فى كتاب لا يضلُّ ربى ولا يَنْسَى * الذى جعل لكم الأرض مهداً وسَلَكَ لكم فيها سُبُلاً وأنْزَلَ من السَّماءِ ماءً فأخرجْنا به أزواجاً من نباتٍ شتَّى * كلوا وارعوا أنعامَكم إن فى ذلك لآياتٍ لأُلى النّهى * منها خلقناكُمْ وفيها نُعيدُكم ومنها نُخْرِجكم تارةً أُخرى .

« ولقد أريناه آياتنا كلَّها فكذبَ وأبَى .

« قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى * فلنأتينك بسحرٍ مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نُخلفه نحنُ ولا أنتَ مكاناً سُوًى .

« قال موعدُكم يوم الزينة وأن يُحشر الناس ضُحىً .

« فتولى فرعونُ فجمع كيده ثم أتى .

« قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً * فيُسحتكم بعذاب وقد خابَ من افترى :

« فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرُّوا النّجوى .

« قالُوا إنْ هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما

ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ثم أتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى . .

« قالوا يا موسى . . إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى .

« قال بل ألقوا ، فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى .

« فأوجس فى نفسه خيفة موسى .

« قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى .

« فألقى السحرة سجداً .

« قالوا آمنا برب هرون وموسى .

« قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى .

« قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى » : (الآيات : ٤٨ — ٧١) .

ثانيا : سورة الشعراء

[الآيات : ١٦ — ٥١]

فى هذا الموقف ، ينتقل المشهد الذى كان عليه موسى بين يدى ربه ، إلى فرعون ، دون فاصل ما .. وإذا موسى وهرون وجهاً لوجه ، يسمعان من فرعون ، ولا يذكر الموقف أنهما قالا له شيئاً . . ولكن ظاهر الحال ينبىء بأنهما أبلغاه الرسالة التى أمرهما الله بتبليغها إياه . .

« وأتيا فرعون فقولا إنا رسولُ رب العالمين * أن أرسل معنا بنى إسرائيل.

« قال : ألم نُرَبِّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين !

« قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين . . !

« ففررت منكم لما خِفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين ..

« وتلك نعمة تمنُّها على أن عبّدت بنى إسرائيل ؟

« قال فرعون : وما رب العالمين ؟

« قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتُم مُوقِنين .

« قال : لمن حوله ، ألا تستمعون ؟

« قال : ربكم وربُّ آبائكم الأولين .

« قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون .

« قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .

قال : لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجْعَلَنَّكَ من المسجونين .

« قال : أوَلَوْ جئتُكَ بشىء مُبين ؟

« قال : فأتِ بهِ إنْ كنتَ من الصادقين .

« فألقى عصاهُ فإذا هِىَ ثعبانٌ مبينٌ * ونزع يَدَهُ فإذا هى بيضاء للناظرين .

« قال للملإ حوله : إن هذا لساحرٌ عليمٌ * يريدُ أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ؟ .

« قالوا : أرْجِهِ وأخاهُ وابعثْ فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحّارٍ عليم .

« فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين .

« فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟

« قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين .

« قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون !

« فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . .

« فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون .

« فألقى السحرة ساجدين .

« قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهرون .

« قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . .

« قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربُّنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » .

ثالثا : سورة الأعراف

[الآيات : ١٠٣ — ١٢٦]

وجاء الموقف فى سورة الأعراف هكذا :

« ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين .

« وقال موسى : يا فرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل .

« قال : إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين .

« فألقى عصاهُ فإذا هى ثعبانٌ مبين * ونزع يدهُ فإذا هى بيضاء للناظرين .

« قال : الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحرٌ عليمٌ * يريدُ أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ؟ .

« قالوا : أرجِهْ وأخاهُ وأرسل فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر سليم .

« وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين .

« قال : نعم وإنكم لمن المقرَّبين .

« قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ؟

« قال : ألقوا .

« فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .

« وأوحينا إلى موسى أن ألْقِ عصاك فإذا هى تلقف ما يأفِكونَ .

« فوَقَعَ الحقُّ وبطل ما كانوا يعملون .

« فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السَّحَرَةُ ساجدين .

« قالوا آمنا برَبِّ العالمين * ربِّ موسى وهرون .

« قال فرعون آمنتم به قبلَ أن آذن لكم ؟ إن هذا لمكرٌ مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعَنَّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ثم لأصلبنَّكم أجمعين .

« قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقمُ منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرِغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين .

رابعا : سورة الإسراء

[الآيتان : ١٠١ — ١٠٢]

ويُعرضُ الموقف فى سورة الإسراء عرضاً موجزاً . . هكذا . .

« ولقد آتينا موسى تِسْعَ آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحوراً .

« قال : لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السموات والأرضِ بصائرَ وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا »

خامسا : سورة يونس

[الآيات : ٧٥ — ٨٢]

ويجىء الموقف فى سورة يونس ، بين الإجمال والتفصيل ، هكذا :

« ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . .

« فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنّ هذا لَسحرٌ مبين .

« قال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم ! أسِحرٌ هذا ؟ ولا يُفلحُ الساحرون . .

« قالوا : أجئتنا لتلفِتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرضِ وما نحن لكما بمؤمنين .

« وقال فرعون : ائتونى بكلِّ ساحرٍ عليم .

« فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقونَ .

« فلما ألقوا قال موسى ماجئتم به السّحرُ إن الله سيبطله إن لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون » .

سادسا : سورة النازعات

[الآيات ١٧ — ٢٥]

وفى سورة النازعات يجىء الموقف فى عرض قصير ، سريع . . هكذا :

« اذهبْ إلى فرعون إنه طغى * فقلْ هل لك إلى أن تزَكّى * وأهديَك إلى ربك فتَخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبرَ يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخَذه الله نكالَ الآخرةِ والأولى » .

سابعا : سورة الذاريات

[٣٨ — ٣٩]

وفى الذّاريات ، تُعرض القصة كلها فى لمحة خاطفة . . هكذا . .

« وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين * فتولى بركنه وقال ساحرٌ أو مجنون » .

* * *

هذه معارض سبعة ، قد عُرض فيها هذا الموقف الذى كان بين موسى وفرعون ، عرضاً مبسوطاً اتسع لأهم الأحداث التى جرت فيه ، والتقط أدقّ الخلجات النفسية التى تحركت فى صدور الناس الذين كان لهم مكان فى هذا الحدث . . مباشراً أو غير مباشر . .

فهذه المعارض السبعة إذا ضُمَّ بعضها إلى بعض ، قامت منها صورة واحدة ، هى صورة مكبرة ، لكل واحدة من هذه الصور على حدة .

فإنك إذ تنظر فى الصورة التى تجمع هـذه الصور كلها ، ثم تنظر فى أى من الصور الصغيرة ، تجد الملامح هى الملامح ، والصورةَ هى الصورة ، وإن حملت الصورة الكبيرة ألواناً أكثر ، وشغلت مساحة أوسع .

ومن صنيع الإعجاز القرآنى فى هذا ، أنه مع تفرّق هذه الصور ، وبُعد مابينها من مسافات ، فى عرض القرآن الكريم لها — أنه يمكن أن تضمّ هذه الصور بعضها إلى بعض ، على أى ترتيب تقع فيه ، وعلى أى وضع تأخذه كل واحدة منها بين أخَوَاتها ، ثم يقرؤها القارىء أو يرتلها المرتل وكأنها صورة واحدة ، دون أن يشعر أنه يعيد ماقرأ ، أو يكرّر مارتل !

وهذه هى الصور السبع كما عرضناها من قبل ، مع التفات إلى ترتيب خاص لها — وإن لك أن تقرأها قراءة أو ترتلها ترتيلا ، على أى ترتيب تشاء ، ثم انظر فيما تجد لما تقرأ ، من هذا التلاحم والتوافق الذى بينها ، وستجد — كلما أعدت القراءة أو الترتيل — أكثر من هذا الذى حدثتك عنه من توافق وتلاحم بين هـذه المعارض . . .

على أننى أودّ أن أصنع صنيعاً آخر مع هذه الآيات جميعا ، حتى يتضح لنا — بصورة أكثر وضوحا — خلوُّ القصص القرآنى من التكرار ، بالمعنى الذى فُهم عليه ، والذى كانَ فى نظر الأغبياء والأدعياء تهمةً يرى بها القرآن فى أعزّ مايعتز به من فصاحة وبيان .

وننظر فى الواقعة ذاتها ، فنجد أنها تشتمل على عناصر أربعة :

١ - موسى ومعه أخوه هرون ، وما عرضا على فرعون من مقولات وآيات .

٢ — فرعون ، والملأ الذين معه من قومه وسَحَرَتِه ، وما استقبلوا به موسى من مقولات وتحدّيات .

٣ — ما كان من موسى والسحرة ، وما انتهى إليه أمرهم ، من عجز ، وتسليم ، وإيمان . .

٤ — ما كان من فرعون حين خذله سحرته ، وخرجوا عن طاعته وأمره . . وما توعدهم به من عذاب ونكال ، وما كان منهم من استخفاف بهذا الوعيد وعدم التفات إليه .

والذى سنصنعه هنا ، هو أن نجمع لكل عنصر من هذه العناصر ما كان له من ذكر فى هذه السور الست التى عرض فيها القرآن هذه المواقف . .

[فأولاً : موسى وهرون فى مواجهة فرعون . .]

« إنا قد أوحِيَ إلينا أن العذاب على من كذب وتولّى » . .

(٤٨ من سورة طه)

« إنا رسولُ رب العالمين . أن أرسل مَعَنا بنى إسرائيل » . .

(١٦ — ١١) (من سورة الشعراء)

« يا فرعون . . إنى رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحقّ قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل » . .

(١٠٥ من سورة الأعراف)

« هل لك إلى أن تزكّى . وأهدِيَكَ إلى ربّك فتخشى » . .

(١٨ — ١٩) (من سورة النازعات)

واقرأ هذه المقولات الأربع ، واحدة بعد أخرى ، اقرأها على أى ترتيب شئت . . فهل تجد فيها تكراراً ؟ وهل يمكن أن تستغنى عن واحدة منها ، ثم

لا يفوتك شيء لما يتطلبه الموقف ، وما حملت تلك الصورة من رؤية جديدة له ، ومن مشاعر وخلجات تلبست به ؟

والذى أود الإشارة إليه ، هو أن هذه المقولات الأربع ليست قولا واحداً جاء به القرآن الكريم فى معارض مختلفة من القول ، وإنما هى أقوال أربعة فعلا ، كل قولٍ منها مستقل بنفسه ، قائم بذاته ، وإن كان مكملا لغيره . . شارحا له ، أو مؤكداً . .

١ — فهذا موسى ومعه أخوه هرون ، يدخلان على فرعون ، ويتحدثان إليه بصوت واحد معاً . . إذ كان ذلك هو شعور موسى من لقاء فرعون ، قبل أن يلقاه ، فقد طلب إلى الله أن يشدّ أزره بأخيه هرون ، فهو أفصح منه لساناً . .

ويدخل موسى وهرون على فرعون .. فينظر إليهما نظرة من يقول : ماذا تريدان ؟ .

فيقولان معاً وبصوت واحد : « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولّى » . .

(٤٨ سورة طه)

٢ — ثم ها هما وقد أخذت تزايلهما رهبةُ الموقف ودهشة اللقاء فيلقيان فرعون لقاء مباشراً ، ويُلقيان إليه بهذا الأمر العظيم ، فيقولان معا :

« إنا رسول ربّ العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل »! !

(١٦ — ١٧) (سورة الشعراء)

ونستشعر من هذا أن « موسى » لا يزال يجد الرهبة والخوف من فرعون ، وأنه لم تزايله رهبة الموقف بعد ، ولا يزال فى حاجة إلى هرون بسنده ، ويشدّ أزره ، ويثبت جنانه .

٣ - ثم ها هو ذا « موسى » بعد أن تمرّس بالموقف ، وارتاد الطريق ، واختبر المواجهة ، واحتمل الصدمات الأولى لها - ها هو ذا يَلقى فرعون وحده ، ويُسمعه بلسانه مضمون رسالته ، فى قوة وصراحة ، وتحد :

« يافرعونُ ..

« إنى رسول من ربّ العالمين . .

« حقيقٌ علىّ ألا أقول على الله إلا الحق .

« قد جئتكم ببينة من ربكم ..

« فأرسلْ معىَ بنى إسرائيل .. (١٠٤ - ١٠٥) (الإسراء)

فيا للإعجاز الذى تَذِلّ لجلاله جباه الجبابره ، وتخضع له أعناق المكابرين ، وتعنو له وجوه السفهاء المتطاولين . .

« يافرعون »!

هكذا يقولها موسى فى وجه فرعون . . يناديه باسمه ، متحدِّياً ! وينتزعه من سلطانه وجبروته انتزاعا . . فى غير تلطف أو رفق ، أو مبالاة .

إنّها فَعلةُ مَن يقدم على أمرٍ محفوفٍ بالمخاطر ، بعد خوفٍ ، وتردد ، حتى إذا لم يجد من المواجهة بداً ألقى بنفسه إليه ، مخاطراً ، يتوقع مايطلع عليه وراء فَعلته تلك من أهوال .

وما كان لموسى أن يقول هذه القولة : « يافرعون » ولا أن يقول بعدها : « إنى » بهذا الضّمير المحقّق لشخصيته ، المؤكد لذاته : « إنى » لا أحد غيرى « رسول من ربّ العالمين » .. ولحرف الجر « مِن » هنا ماله من الإشعار بهذا الاعتزاز بتلك الشخصية ، والرسالة التى تحملها ، والجهة التى جاءت منها ..

ففيها ما ليس فى قوله لو قال : « إنى رسول رب العالمين » من الشّحنة التوبيه ، المليئة بالاعتزاز بهذا السلطان ، الذى يستند إليه ، وهو سلطان رب العالمين .

ما كان لموسى أن يقول هذا ، ثم يمضى فيقول :

« حقيق على ألاّ أقول على الله إلا الحق » . . وهـذا اعتزاز بعد اعتزاز لشخصه الذى يحمل رسالة السماء . .

ما كان لموسى أن يقول هذا ، لولا أن دخل على فرعون هذا المدخل الذى اختبر به الأرض التى تحت قدميه .

ومن هذا الأفق العالى ، يتنزل أمر موسى هادراً مدوياً فى وجه فرعون : « فأرسلْ معى بنى إسرائيل » .

ولك أن تضع هذا الأمر الصّادع ، إلى جانب هذا الرجاء الذى أسمعاه — موسى وهرون — لفرعون من قبل ، فى قولهما : « أن أرسل معنا بنى إسرائيل » وسيتضح لك بُعد ما بين الأمرين .

ويستشعر موسى أنّه وقع بين فكى الأسد ورائنه . . وأن فرعون لن يدعه ينجو من العقاب الأليم ، على هذه الجرأة التى اقتحم بها هذا الحمى الذى لا يقتحم .

٤ — وهنا لا يجد موسى بدًّا من أن يصحح موقفه ، وأن يلقى فرعون مترفقاً متلطفاً ، كما أمره الله سبحانه بقوله : « فقولا له قولا ليناً لعلّه يتذكر أو يخشى » . .

وهنا يلقاه موسى بهذا الأسلوب اللّين الرقيق ، لعله يكسير بهذا حدّة الموقف ، الذى وصل إلى هذا الحدّ من الخطر . . فيقول له :

« هل لَكَ إلى أن تَزَكى ؟ وأهدِيَكَ إلى ربك فتخشى » ؟

(١٧ — ١٨) [سورة النازعات]

وإلى هنا لم نجد حديثاً عن فرعون . . ولكنا نقرأ فى وجهه ، ومن حركاته أكثر من حديث . . !!

ثانيا : فرعون وقومه وسحرته

وماذا يكون من فرعون بعد أن سمع ما سمع مما لم يعهد سماعَه من أحدٍ من قبل ؟

ننظر فنرى :

أن فرعون — فى هذا الموقف — يواجه موسى وتحدياته ، فيلقاه دَهِشاً عجِبا ، لهذا التطاول عليه ، والخروج على المألوف فى حضرته .

ثم هو — قبل هذا ، وبعد هذا كله — هو فرعون ! يبسط سلطانه على أهل المجلس . . يلقى نظرة هنا ، ونظرة هنا ، ويرمى بكلمة هنا وكلمة هنا . . إنه المحور الذى تدور به ومن حوله الأحداث .

وطبيعى ألا يأخذ الحديثُ اتجاهاً واحداً ، فى هذا الموقف ، لتعدّد الأطراف المشتركة فيه . . فرعون ، وموسى ، وحاشية فرعون ، وشهود هذه المساجلة من الملأ . .

ونودّ أن نشير هنا إلى أن هذه الصور التى عرضها القرآن لهذا الموقف ، ليست للقاء واحد بين موسى وفرعون . . وإنما هى « لقطات » مركزة مجمّعة لأكثر من لقاء . . إذ أنه من غير الطبيعى أن ينحسم الأمر بين موسى وفرعون ، فى لقاء واحد . . ولكن المقدّر فى هذه الحالة أن يتكرر لقاء موسى وفرعون ،

ويتكرر الأخذ والعطاء بينهما ، إلى أن يَيْئَس كل منهما من الوصول إلى وِفاق مع خصمه ، فلا يكون بعد هذا إلا التحدّى والصراع .

ومع هذا فإن اقتدار القرآن وإعجازَه ، فى تصوير مشاهد هذا الموقف فى أزمنةٍ مختلفة ، وأحوالٍ مختلفةٍ أيضاً ، قد جعل منها مشهداً واحداً ، يُمسك بتلك المشاعر التى كان يعيش بها أصحابها فى هذا الموقف ، دون يُحدث الانفصال الزمانىّ أو المكانىّ فيها خلخلة ، أو ازدواجاً .

ومع هذا ـ أيضاً ـ فإننا سنعرض هذه المشاهد ، على أنها صورة واحدة ، فى موقف واحد ، وسنرى أنها تقبل مثل هذا العرض ، وتتلاقى فيها وجوهها ، دون أن تتصادم ، أو تتدافع !

* * *

ولقد رأينا فى المشهد السابق ، أن فرعون ، قد أخذ بالمباغتة ، التى طلع بها موسى وهرون عليه ، وأنه حين أسمعاه هذا القول ، الذى قالاه له فى قوّة وجرأة ـ وجِمَ ، ولم ينطق .

ثم صحا من هذا الذهول ، وتنبه لحقيقة الموقف ، فاتّجه إلى موسى بهذه الأسئلة الهازئة الساخرة :

* « ألَمْ نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين » (الشعراء) ١٨ ـ ١٩) .

وقد قدّر فرعون أن هذه الكلمات ستصيب موسى فى الصميم منه ، وأنها ستخفض رأسه فى حضرته .. إذ أنه سيذكر من هذه الكلمات ، طفولتَه وضياعه ووقوعه ليد فرعون . ثم إنه ستطلع عليه من هذا الكلام صورة مخيفة لفعلته

التى فعلها ، وهى قتل المصرى ، وأن فرعون إذا لم يأخذه بجرأته عليه ، أخذه بهذ المصرىّ الذى قتله .

ولا يقف موسى عندما ذكره له فرعون ، من تربيته له ، وضمه إليه ، بل يجعل همّه كلّه دفع هـذا الخطر الذى يتهدّده من حادثة القتل . . فيقول مجيباً فرعون : !

« فَعَلتها إذاً وأنا من الضالين . ففررت منكم لمّا خِفتكم فوهب لى ربّى حكماً وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمةٌ تمنُّها علىّ أن عبدت بنى إسرائيل ؟ » (الشعراء) .

وهنا يلقاه فرعون سائلا :

« فمن ربكما يا موسى ؟ » .

وانظر إلى كيد فرعون فى هذا السؤال الماكر . . إنه يطلب الجواب من موسى ، وهو يعلم مافى لسانه من حَبسة ، وذلك أمام الجمع ..

ويجيب موسى .. وقد أطلق الله سبحانه حبسة لسانه :

« ربُّنا الذى أعطى كلَّ شىء خَلْقه ثم هدى » . . (٢٠) [طه]

ويعاجله فرعون بسؤال آخر :

« فما بَالُ القرون الأولى ؟ » . . . . (٢١) [طه]

ويردّ موسى هذا الردّ المفحم :

« علمُها عند ربِّى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سُبُلاً وأنزل من السماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » . . [طه]

وانظر كيف تدلّ موسى عن الجواب على سؤال فرعون ، والدخول معه فى هذا المجال ، الذى يكثر فيه اللجاج ، ولا يستطيع أحد الخصمين ـ فى موقف العناد والجدل ـ أن ينال موقفاً حاسماً . .

« ما بال القرون الأولى » ؟ إنه طوفان يغرق فيه من يتصدى للجواب عليه إلا إذا كان مع من يطلب الهدى ، ويسأل ليَعْلم ، لا ليُفْحِم .

وانظر كيف خَلَصَ موسى من هذا الموقف الذى كان يدفعه فرعون إليه دفعاً ـ إلى هذا العرض المحسوس الذى لا ينكَر ، لقدرة الله ، وما لهذه القدرة من آثار تملأ وجوه الحياة !

ويضيق فرعون بهذا التدبير الذى أفلت به موسى من المصيدة . . فيجىء إلى موسى من طريق آخر . . فيسأله :

« وما ربّ العالمين » ؟ (٢٣) [الشعراء] .

ويكون جواب موسى حاضرا :

« رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين » [الشعراء]

ويتلفت فرعون حوله عجباً ، ودهشاً ، مستنكراً . . يقول لأهل مجلسه « ألا تستمعون » ؟ . . [الشعراء]

وإلى هذه الجبهة الجديدة التى فتحها فرعون يتجه موسى قائلا :

« ربكم وربُّ آبائكم الأولين » . . . . . [الشعراء]

وتثير هذه الجرأة حَنَق فرعون . . إذ كيف يجرؤ موسى على تخطى فرعون ومخاطبة غيره فى حضرته . . أهناك من يكون له وجود مع وجود فرعون ؟

ثم إن فرعون يخشى ـ من جهة أخرى ـ أن يكون لقول موسى أثر فى الملأ الذين حوله . . فيقول لهم :

« إن رسولكم الذى أُرسل إليكم لمجنون » ! . . [الشعراء]

ويردّ موسى قول فرعون هذا ، ويؤكد لمستمعيه ماقال من قبل ، فيقول :

« ربّ المشرق والمغرب ومابينهما إن كنتم تعقلون » . [الشعراء]

وفى قولة موسى هذه تحريض لهؤلاء الأتباع من قوم فرعون ، أن يستقلّوا بوجودهم ، وأن يحتفظوا بعقولهم ، وأن يفكروا لأنفسهم ، وألا يَدَعوا أحداً يفكّر لهم ، ولو كان فرعون . . « إن كنتم تعقلون » !

ويُجنّ جنون فرعون لما يريد موسى أن يبلغه من القوم — قوم فرعون — من إغرائهم على الخروج عن طاعته ، والخلاف عليه ، فيلقاه بهذا الوعيد . .

« لئن اتخذتَ إلهاً غيرى لأجعلنّك من المسجونين » . [الشعراء]

ويَلقى موسى هذا الوعيد بقوله :

« أَوَلَوْ جئتُك بشىء مبين ؟ » . . . . . [الشعراء]

ويجيبه فرعون :

« فأت به إن كنت من الصّادقين » . . . [الشعراء]

ويتوقف موسى قليلا يستجمع قواه ، ويهيىء نفسَه لهذا الامتحان حيث يُلقى فيه بكل ما معه من أسلحة ، وهو على حذر وإشفاق من أن تخونه عصاه ، أو لاتستجيب له يده .. !! هكذا المشاعر الإنسانية ، حتى عند الأنبياء !

ويرى فرعون هذه الحال من موسى ، ويخيّل إليه أن موسى لا يملك شيئا بين يديه ، فيجدها فرصةً للطعنة القاضية ، يطعن بها موسى .. فيقول له : « إن كنت جِئْتَ بآية فأتِ بها إن كنت من الصّادقين » (١٠٦) . [الأعراف]

وعندها يكون موسى قد استجمع نفسه ، واستردّ عزمه الذى كاد يذهب به

الموقف .. ولا يتكلم موسى .. بل يدع للآيات التى معه أن تتكلم عنه ، وتنطق ببيان أفصح من كل بيان ..

« فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » (١٠٧ — ١٠٨ الأعراف) (٣٢ — الشعراء)

هكذا يجىء المشهد فى كلٍّ من سورتى الأعراف والشعراء ، على نسقٍ واحدٍ فى النظم ، لم يقع فيه أى خلافٍ بحرفٍ أو كلمة ، أو تقديم أو تأخير ..

وهـذا أمرٌ يلفت النظر ، ويدعو إلى التأمل والبحث .. حيث لا يلتزم القرآن الاحتفاظَ بصورة النظم إلا عن قصد ، ولغاية مُرادة ، لا تتحقق إلا بهذا الالتزام ، بحيث لو اختلفت صورة النظم قليلا أو كثيراً ، لفات الغرض ، ولم تتحقق الغاية ..

فإن من مألوف النظم القرآنى ، أن ينوع الأساليب ، ويغاير بينها ، إذا لم يكن فى هذا التنويع ، وتلك المغايرة ، ما يجور على المعنى ، أو ينتقص شيئاً منه .. أى شىء .. وإلا فإن القرآن يكرر اللفظ ويعيده كما هو ولو عشرات المرات ، إذا كان وراء التكرار مقصد ، كما فى قوله تعالى : « فبأىّ آلاء ربكما تكذبان » من سورة « الرحمن » التى تكررت فيها هذه الآية بنظمها هذا ، إحدى وثلاثين مرة .

والسؤال هنا :

ما سرُّ التزام القرآن لهذا النظم ، الذى جاء على هـذه الصورة ، فى كل من سورتى الأعراف والشعراء ؟

والجواب — والله أعلم — أن المشهد الذى وقع من كل من العصا واليد ، ظلّ على حالة واحدة ثابتة ، لم يطرأ عليها تغيير من أول ما وقعت إلى أن رُفعت .

فالعصا .. ألقى بها موسى من يده .. فإذا هى فى الحال ثعبان مبين ، مرةً واحدة ..

لم تتحول من حال إلى حال ، ولم تتغيّر من صورة إلى صورة . كأن تبدأ صغيرة ـ كما هو المتوقع عادة فى كل عمل إنسانى ـ ثم تظهر آثار التفاعل فيها ، فتكبر شيئاً فشيئاً حتى تبلغ غايتها ..

واليد .. أخرجها موسى من جيبه ، فإذا هى كوكب درىّ متألق .. مرة واحدة .. هكذا ! !

وهكذا شأن آيات الله ومعجزاته ، التى يضعها بين يدى رسله .. تُولدَ كاملة وتظلّ محتفظة بهذا الكمال ، دون أن يدخل عليها أى تغيير ، حتى تزايل الموقف فى الزمن المقدور لها أن تزايله ..

فثبات المعجزتين ـ العصا واليد ـ على هذا الوجه الذى ثبتتا عليه ، اقتضى أن يكون النظم المصوِّر لهما ، والضابط لوقوعهما ، ثابتاً لا يتغير ، قليلا أو كثيراً ..

وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن ، كما أنه وجه آخر من وجوه صِدْقه ، فى نقل الأحداث وضبطها ..

وتكرار النظم لهذه الصورة وعرضها فى معرضين على هيئة واحدة ، هو الذى يكشف عن هذا المعنى الذى نلحظه فى هذا الإعجاز الذى حملته المعجزتين ، وخرجتا به عن كل ما هو فى مستطاع البشر أن يبلغه فى مجالها ..

* * *

وإذ يرى فرعون والملأ حوله هذا الذى كان من عصا موسى ويده ، تدور به الأرض ، وتعتريه رِعشة الخوف ، ممزوجة بالغضب والحنق والنقمة ، ثم لا يجد

بدّاً من أن يقول قولا يمسك به وجوده ، ووجود الملأ من حوله ، وإلا استولى موسى على هذا الموقف ، وأصبح السيد المتصرف فيه ..

« قال للملأ حوله ..

« إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره . . فماذا تأمرون » ؟ (٣٤ ـ ٣٥ الشعراء)

وتعمل هذه القولة عملها فى قوم فرعون ، ويصحو القوم من هذا الذهول الذى استولى عليهم ، ولكنها صحوة أشبه بصحوة المخمور ، يطلع عليه ما يزعجه ، فيمسك بأى شىء ، ويلقى بنفسه إلى أى شىء !

والقوم لا يجدون شيئاً يمسكون به إلا كلمة فرعون تلك ، التى ألقى بها إليهم .. إنه يسألهم فيجيبون بما سألهم . . إذ لا يملكون ـ فى تلك الحال المستولية عليهم ـ عقلاً يفكر ، أو رأياً يُسعف . .

« قال الملأ من قوم فرعون :

«إن هذا لساحرٌ عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ؟».
(١٠٩ — ١١٠ : الأعراف)

نفس الكلمات التى نطق بها فرعون . . يلتقطها القوم ، ويجعلونها جواباً على ما سأل . .

وهكذا يكشف القرآن الكريم عن المعجزة وأثرها فى القوم ، واستيلائها على وجودهم كلّه ، بما لم ينكشف حتى لمن شهد الواقعة عِياناً ، أو وقع تحت تأثيرها مباشرة .

ويُمسك فرعون مرة أخرىٰ بخيوط واهية من الموقف الذى كاد يفلت

منه ، وقد شاع فى قومه هذا الشعور بأن موسى ساحر عليم ، فيجسّد لهم هذه المشاعر فى تلك الكلمات المتحدّية المهدّدة . . يواجه بها موسى !

« قال :

* « أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا من أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوًى »

(٥٧ — ٥٨) (طه)

ويفزع القوم لما يسمعون من فرعون ، وأن موسى يريد أن يخرجهم — وفرعون معهم — من أرضهم ، بقوة هذا السحر الذى بين يديه ، ويتمثل لهم من هذا أنهم فى وجه خطر داهم .. إن هم لم يعاجلوه بالعزم والحسم ، عاجلهم بالبلاء والتشريد من ديارهم ، والخروج عما هم فيه من دولة وسلطان فى ظِلّ من دولة فرعون وسلطانه . إن الأمر جدّ ليس بالهزل ، وإن فرعون يرى أنها معركة ، وها هو ذا يحدد زمانها ومكانها .

وهناك يصحو القوم صحوة أشبه بصحوة المحتضر . . وإذا هم صوت واحد يهدّد ويتوعد ، وإذا القرآن الكريم يمسك بالصميم من هذا الصوت ، ويجمع ما تفرق منه على كل لسان ، وإذا هو ما حكاه الله عنهم فى قوله تعالى :

« قالوا :

« أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِى الأَرْضِ وما نحن لكما بمؤمنين » [يونس]

ونلاحظ أن القوم قد أفاقوا شيئاً من هذه الضربة ، التى فاجأهم بها موسى ، فكان لهم قولٌ من ذات أنفسهم ، لم يأخذوه من لسان فرعون .

وانظر فى هذا الإيجاز الذى تقطع دونه الأعناق .

لقد وزع القرآن هذا المشهد فى أربع سور . . فجعل قولة فرعون عن موسى وسحره ، فى سورة « الشعراء » . : ثم أعاد هذه القولة نفسها على لسان الملأ من قومه فى سورة « الأعراف » . . ثم جعل مواجهة فرعون لموسى مهدداً متوعداً فى سورة « طه » . . ثم جعل ما ردّده القوم من تهديد فرعون ووعيده ، فى سورة « يونس » . . وذلك حتى لا تترا كم الصّور وتترا كب ، وحتى لا يقع التكرار على أية صورة . . لفظية ، أو معنوية . .

ثم انظر مرة أخرى ، فى هذه المقولة : « فماذا تأمرون » ؟ .

لقد جاءت على لسان « فرعون » يسأل بها « الملأ » حولَه فى سورة الشعراء ، كما جاءت على لسان « الملأ » يسألون بها « فرعون » فى سورة الأعراف .

إنها الكلمة التى كانت تدور على كل لسان فى هذا الموقف .. لا يملك أحدٌ غيرها . . يقولها لنفسه ، ويقولها لكل من يلقاه : « ما العمل » ؟

ثم يجىء الجواب مُمسِكاً بالاتجاه الغالب الذى يكاد يستقرّ عليه الرأى ، وتجتمع عليه الأكثرية :

« قالوا :

« أَرْجِهْ وَأَخَاه وَابْعَثْ فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحّار عليم » . ؟

« قالوا : [٣٦ ـ ٣٧ : الشعراء]

* « أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يأتوك بكل ساحر؟ عليم » [١١١ ـ ١١٢ الأعراف]

وقال فرعون :

* « ائتونى بكل ساحرٍ عليم » [٧٩ يونس]

وإذا كان الرأى قد غلب فى إرجاء موسى وأخيه حتى يُعدّ فرعون العدّة للقائه ، فإن الرأى ليكاديتوازن بين دعوة كل ساحرٍ له أىّ إلمام وعلم بالسّحر ، وبين دعوة كل من مهر فى السحر . . فقال فريق بدعوة كل ساحرٍ ، وقال فريق آخر بدعوة كل سحّار . :

ثم يجىء أمر فرعون وحكمه قاضياً بدعوة كلّ ساحرٍ ، أى كل قادرٍ على حمل السلاح فى هذه المعركة الفاصلة : « ائتونى بكل ساحرٍ عليم » !

هذان مشهدان من المشاهد الأربعة التى ضمّ عليها هذا المقطع الذى اقتطعناه من قصة موسى ، وهو لقاؤه مع فرعون ، ودعوته إلى الله ، وإلى أن يرفع يده عن بنى إسرائيل ، ويرسلهم معه إلى حيث يخرج بهم إلى وجه آخر من الأرض غير أرض مصر . .

وقد رأينا فى هذين المشهدين ، كيف تجتمع الصور فيهما ، وكيف تتفرق ، وهى فى اجتماعها وافتراقها على سواء ، فى عرض المشهد ، وفى دقة تصويره ، والإمساك بكل خاطرة وقعت فيه . .

ولا أريد أن أمضى معك فى عرض المشهدين الآخرين ، حتى لا يطول بنا الوقوف هنا ، فاصنع أنت صنيعك مع هذين المشهدين ، على نحو ما رأيت فى صنيعنا بالمشهدين السابقين ، أو على أى نحوٍ تراه أنت . . وستجد بين يديك ألواناً مشرقة من الإعجاز القرآنى ، تطالع وجوهها ، فى كل وجه تلقاها عليه . .

فإن أنت آثرت ألا تكلف نفسك هذا الجهد ، ورأيت أن تقطف الثمر من قريب ، فإنك ستجد ذلك بين يديك فى كتابنا : « القصص القرآنى[1] » . . والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل .

(١) صفحة ٢٧٥ ومابعدها .

القرآن .. قديم أو حادث ؟

كانت هذه المسألة فى فترة من فترات المسلمين مثار فتنة عاصفة ، كادت تذهب بوحدة الجماعة الإسلامية ، وتمزّق شمل المسلمين . .

ولقد وُلدت هذه الفتنة من احتكاك المذاهب الكلامية التى ظهرت فى العصر العباسى ، فكان المعتزلة أول من أثاروا المعارك ، وأداروا الجدل بالقول بخلق القرآن، وأنّ هذا الكلام الذى نقرؤه ونسمعه من كتاب الله ليس كلامَ الله القديم ، وإنما هو مخلوق لله كسائر المخلوقات . . إذ لو كان قديماً لشارك القديم فى قدمه ، وكان له صفة قد انفرد الله تعالى بها . .

وهذه البدعة ليست بنتَ يومها هذا الذى ظهرت به فى شدتها وحدتها أيامَ الخليفة العباسى ، المأمون . . وإنما كان « الجعد بن درهم » أولَ من فتح فمه بهذا الشر الأعمى ، أيام هشام بن عبد الملك ، الخليفة الأموى ، الذى بعث به إلى « خالد ابن عبد الله القَسْرى » أمير العراق ، وأمره بقتله ، فحبسه خالد ، فكان ذلك سبباً فى لوم هشام لخالد والعزْم عليه بقتل الجعد ، فذبحه خالد ذبح الشاة . . وذلك فى يوم عيد الأضحى بعد أن صلى بالمسلمين صلاة العيد ، ثم قال لهم : « أيها الناس انصرفوا وضحوا ، يقبل الله منكم ، فإنى مُضحٍّ بالجعد ابن درهم » . . ولم تمت هذه البدعة بموت صاحبها . . فتلقاها عنه « الجهم بن صفوان » و « حفص القرد » وغيرهما حتى صارت بعد ذلك قولا ومذهباً لفرقة

كبيرة من أصحاب الكلام ، وهم المعتزلة ، الذين جهروا بهذا القول ، ووقفوا به فى وجه الجماعة الإسلامية كلها . وقد تصدّى لهم أهل السنة ، والتحمت معارك الكلام بين الفريقين ، ثم تطور هذا الصراع إلى معارك مادية انتصر فيها الخلفاء العباسيون وخاصة « المأمون » للمعتزلة ، وقد اشتد البلاء فى تلك الفترة على الذين عارضوا القول بخلق القرآن ، وكان الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أحد الذين ابتُلوا فى أنفسهم من أجل هذا ، فعُذِّب وسجن ، وأهين . .

ولقد اتسعت مذاهب القول فى هذه الفتنة ، وعاش المسلمون زمناً فى صراع دائم متصل . . لا حديث لهم ، إلا فى هذا الأمر ! ولا شأن يعنيهم من الحياة غيره . . يكفّر بعضهم بعضاً ، بل ويقتل بعضهم بعضاً . . إلى أن خمدت ريح هذه الفتنة فى أيام الخليفة العباسى « المتوكل » ، ثم لم تقم لها قائمة إلى اليوم . والحمد لله رب العالمين . .

ونحن إذ نعرض لهذا الأمر اليوم ، فإنما نعرض له لأنه يمثل وجهة من النظر فى كتاب الله ، ولأنه « مفهوم » وقع لبعض الناظرين فى القرآن . وإن يكن هذا النظر منحرفا مضطرفاً ، وإن يكن هذا المفهوم خاطئاً زائفاً . .

إنه على أى حال ، جانب من النظر فى كلام الله ، ورأى وقع عند جماعة لها وزنها ولها خطرها فى التفكير الإسلامى .. هم جماعة « المعتزلة » الذين هم أصحاب لَسَنٍ وفصاحة ، ومنطق . . وفى عرض هذه القضية اليوم ، وبعثها من مرقدها ، عظة وعبرة ومزدجر لمن توسوس لهم أنفسهم بمثل هذا البِدْع من القول فى كتاب الله ، وفتح باب الجدل والمراء فيه ، وفى الحديث الشريف : « اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فيه ، فقوموا » .

منشأ هذا القول :

ومنشأ القول — عند المعتزلة — بأن القرآن مخلوق لله، وحادث ، غير قديم ، يرجع إلى مفهوم المعتزلة لصفات الله . . من إرادة ، وقدرة ، وسمع ، وبصر ، وكلام ، ونحوها . .

فأهل « الحديث» المعروفون بأهل السّنّة ، يرون أن هذه الصفات قديمة ، لأنها قائمة بالذات . . يقولون : إن الله مريد بإرادة قائمة بالذات ، وليست عين الذات ولا غيرها ، وهكذا فى سائر الصفات . . والمعتزلة يرون أن القديم واحد لا يتبعض ، ولا يتجزأ ... وبهذا نَفَوْا ما أثبت أهل الحديث من صفات الله ، ونزهوه سبحانه عن ثبوت صفات قائمة بذاته، من القدرة والإرادة ، والسمع والبصر والكلام ونحو هذا ، وقالوا : إن الله — سبحانه — قادر بذاته ، مريد بذاته . . متكلم بذاته . . وهكذا فى سائر الصفات .

ومن هذا نشأ الخلاف حول الكلام القرآنى : أهو قديم ، لأنه صفة الكلام لله عزّ وجل ؟ أم هو حادث مخلوق لله كسائر المخلوقات ؟ فكما يخلق الله تعالى المخلوق ، خلق هذا الكلام الذى خاطب به رسوله الكريم عن طريق الوحى . . وبهذا القول قال المعتزلة .

فالقرآن عند المعتزلة ليس صفة لله ، بل إن الله سبحانه خلق هذه الحروف والأصوات فى جسم محدّث ، يسمعه النبىّ منه ، وهذا هو الوحى عندهم ، ومن احتجاجهم لهذا قولهم : حقيقة المتكلم مَن فَعَل الكلام .. فهو فاعل الكلام فى محلّ .. بحيث يُسمع ، ويُعلم أنه كلام ضرورة ، لأنه لو كان المتكلم من قام به الكلام ، لوجب أن يكون كلامه إما قديمًا ، وإما حادثاً ، وإن كان قديمًا ففيه

إثباتٌ لقديمين . . ومما يختص بهذه المسألة من الاستحالة أنه لو كان الكلام القرآنى قديماً — وهو أمر ونهى — لزم أن يكون — هذا الكلام — كلاماً مع نفسه، من غير مأمور ، ولا منهىّ .. ومن المحال الذى لا يُتمارى فيه أن القول بأنا « أرسلنا نوحاً إلى قومه[١] » ولا نوح ولا قومه[٢] — إخبارٌ عما ليس كما هو . . فهو مع استحالته كذب ، ومع كذبه محال . . وقوله : « اخلعْ نَعْلَيْكَ[٣] » لموسى ، ولا موسى ولا الطور ، ولا الوادى المقدس طوى — خطاب لمعدوم ، والمعدوم كيف يخاطب ؟ .. وكذلك جميع ما فى القرآن من الأوامر والنواهى والأخبار .. فوجب أن يكون الكلام يحدث عند حدوث المخاطب ، فى الوقت الذى يصل الكلام إليه ، فيكون الكلام حادثاً[٤] » .

* * *

هذا لون من ألوان الاحتجاج للقول بخلق القرآن .. قابله أهل السُّنة بالرد والجحد.. فكانت معركة طاحنة ، اشتبك فيها المسلمون جميعاً ، عامة وخاصة ، محكومين وحاكمين .

الخليفة المأمون يقود هذه المعركة :

ومما جعل لهذه القولة من أقوال المعتزلة أثراً فى الحياة ، وصدًى فى التاريخ، أن الخليفة العباسى « المأمون » قد جعل نفسه طَرَفاً فى هذه القضية ، فقاد هذه

---

(١) سورة الأعراف / ٦٥

(٢) أى ولم يكن هناك وجود لنوح ولا لقومه

(٣) سورة طه / ٢١

(٤) البداية والنهاية للشهرستانى ص ٥٩

الحملة الداعية إلى القول بخلق القرآن . . ودعا الناس إلى متابعته ، والأخذ بهذا الرأى الذى وافق المعتزلةَ فيه ، وعدّ هذه المسألة أصلاً من أصول الدين ، وبعضًا من العقيدة ، التى لا يكون المؤمن مؤمنا إلا بالإيمان بها ..

وقد أعلن « المأمون » رأيه هذا فى سنة ٢١٢ هـ ، وكان يظن أنه متى أعلن رأيه للعلماء ، وفقهاء الأمة ، أن يجيبوه ، وأن يروْا ما رأى . . ولكن حدث غير ما كان يتوقع ، فإنه ما كاد يجهر بهذا الرأى حتى قامت قيامة الناس ، وغلا غليانهم ، وركب كثير منهم طريق العناد ، وأخذت كثيراً منهم الحميّةُ والغيْرة فذهبت بهم مذهبًا بعيداً فى الخلاف ، ودخل فى رُوع كثير منهم أن الأمر أمر جهاد فى سبيل الله ، ودفاع عن دينه ، وحماية لكتابه . . فكفّر بعضهم بعضًا ، وأراق بعضهم دم بعض ، وعرّض كثير منهم نفسَه للتلف والهلاك . . !!

وقد كان الأمر أهونَ من هذا ، لو لم ينزل الخليفة إلى ميدان المعركة ، ولو لم تأخذ المسألة طابعًا ذاتيًا ، وشخصيا ، فى كثير من المواقف التى وقفها العلماء والفقهاء ، من المعتزلة وأهل السّنة ، دفاعًا عن مركز مرموق عند العامة ، فى جانب ، أو عند الخليفة ، فى الجانب الآخر .. وكان هذا الموقف من المأمون سقطة لا يشفع له فى محوها ما كان له من أثر كبير فى النهضة العلمية التى قامت فى عهده ، بتوجيهه وتشجيعه .

فليس لهذا الخلاف كبيرُ أثرٍ فى شأن القرآن ، وفى شأن الأحكام التى جاء بها ، والشريعة التى حملها .. إنه من عند الله — على أى حال — وكونه قديمًا أو حادثًا ، غير مخلوق ، أو مخلوق لا يغير من هذا شيئاً . .

ولكن الأمر — كما قلنا — كان بابًا من أبواب الجدل ، التى فُتحت

على المسلمين فى تلك الفترة ، التى وُلِدَت فيها المعتزلة وما تَوَلَّدَ منها من فرق .

* * *

ولا بأس من أن نلقى نظرة على هذه المعركة ، ونقف وقفات عند تلاحم القتال واشتداد الصراع بين طرفى النزاع ، ففى هذا ما يكشف لنا عن بعض ما عند الفريقين من آراء وتصورات لهذه القضية . .

فى المعركة :

« مرت أربع سنوات من إعلان المأمون رأيه فى خلق القرآن دون أن يجد لهذا الرأى صدًى عند العلماء والفقهاء ، إلا أن يكون ذلك الصدى عن أصوات الاستنكار ، والاستهجان ، والاستخفاف ، والتهجم . . تلك الأصوات التى انطلقت من أفواه العلماء والفقهاء والعامة جميعاً . .

عندئذ رأى « المأمون » أن يستعين بسلطانه فى سَوْق الفقهاء إلى رأيه ، وحملهم — بهذا السلطان — على متابعته . . وخاصة أولئك الفقهاء الذين يَلُون مناصب الفُتيا والقضاء فى الدولة . . فلا يكون الخليفة على رأى ، ويكون وُلاته على خلاف هذا الرأى !

هكذا تصوّر المأمون الأمر . حين وقع تحت تأثير نزعاته الذاتية ، وحين وقع فى نفسه أن الأمر يتعلق بالخلافة وهيبتها ، وبالخليفة وسلطانه ..

فانظر كيف استبد الإحساس الذاتى بالمأمون ، وكيف استولى على عقله ، فخذله ذكاؤه ، وخانته حكمته .. وهو من هو ذكاءً ، وحكمة ، وحلماً ، وعلماً ؟

ولكنه الهوى حين يغلب ، والنفس حين تجمح : « إن النفس لأمَّارة بالسوء » .

ولو أن المأمون تخفف قليلا من محاباته لنفسه ، ونظر إلى الأمر فى حدوده الموضوعية ، بعيداً عن شخصه أو أشخاص مخالفيه — لو أنه فعل ذلك لما ركب رأسه على هذا الوجه ، ولما اشتط هذا الشطط البعيد ، الذى كاد يذهب بالخليفة ، والخلافة والدولة جميعاً ..

فى سنة ٢١٨ ﻫ ، وكان المأمون غازياً فى أطراف الدولة على حدود الروم — بعث بكتاب إلى إسحق بن إبراهيم عامله فى بغداد . .

وقد شرح فى هذا الكتاب أن واجب الخليفة ؛ بوصفه إماماً للمسلمين ؛ أن يجتهد فى إقامة الدين ، ويتحرّى وجه الحق للمسلمين . .

ثم ذكر ماعليه الجمهور — من حشو الرعية ، وسِفْلة العامة — من الجهالة بالله، حتى ساووا بينه وبين ماأنزل من القرآن، فأطبقوا على أنه قديم ، مع النصوص الدالة على خلاف هذا . .

ثم يقول فى هذا الكتاب : « ثم هم - أى العلماء ومعهم الجمهور — الذين حاولوا بالباطل ، فدعوا إلى قولهم [1] ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة . . وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل لقولهم ، ومكذِّب دعواهم ، يردّ عليهم ونحلتهم . . ثم أظهروا — مع ذلك — أنهم أهل الحقّ ، والدِّين ، والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل ، والكفر ، والفرقة .. فاستطالوا بذلك على الناس ، وغروا به الجهال ، حتى مال قوم من أهل السَّمت [2] الكاذب ، والتخشع لغير الله ، والتقشف لغير الدين — إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على سيء آرائهم ، تزيناً بذلك عندهم ، وتصنعاً للعدالة والرياسة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا دين الله وَليجةً إلى ضلالتهم » . .

---

(١) أى دعوا الناس إلى القول بأن القرآن قديم .
(٢) السمت : الطريق ، والمنهج .

هذا هو رأى المأمون فى مخالفيه الذين يقولون بأن القرآن قديم غير مخلوق ..

ولو أنصف لقال هذا القول نفسه فى أصحاب مذهبه القائلين بأن القرآن مخلوق .. لأنهم إنما أمسكوا بهذا القول ، وشدوا عليه بالخناصر حين رأوا خليفة المسلمين يتمذهب بمذهبهم ، ويستجيب لدعوتهم . . فتطاولوا على الناس بهذا ، وركبهم الغرور . فكان منهم هذا الدفاع المستميت فى سبيل هذا الوليد الذى وُلِد لهم ، وتبناه الخليفة عنهم ، ووضع الدولة كلها لخدمته . . !

ثم يقول « المأمون » فى كتابه هذ إلى إسحق بن إبراهيم .

« فاجْمَعْ من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خَلْق القرآن وإحداثه .

« وأعْلِمْهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته ، بمن لا يُوثق بدينه ، وخلوص توحيده ويقينه » !

أرأيت إذن كيف سلط « المأمون » سيف سلطانه على رقاب رعيته ممن خالفه فى رأيه؟ .. وكيف تجسد هذا الخاطر الأسود فى نفسه ، فصار يرى به كل مَن خالفه مارقاً عن الدين ، خارجاً على الشريعة ، غير أهل لأن يوثق به ، وأن يُقَلَّد للخليفة عملاً من أعمال الدولة !!؟

وفى هذا يقول المأمون فى كتاب آخر كتب به إلى عامله فى بغداد :

« وليس يرى أميرُ المؤمنين لمن قال بهذه[1] المقالة حظّاً فى الدين ، ولا نصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يُحِلَّ أحداً منهم محلَّ الثقة فى أمانة ، ولا عدالة ، ولا شهادة ، ولا صدق فى قول ولا حكاية ، ولا تولية شىء من أمر الرعية .. »

---

(١) يريد من قال بأن القرآن قديم غير مخلوق .

وماذا يلد اللجاج والعناد غير هذا الباطل ؟ وماذا يقيم بين يدى صاحبه غير البغى والعدوان ؟ لقد أهدر المأمون إنسانية كل إنسان لا يقول بقوله ، ولا ينزل عند رأيه . . فليس لإنسان يخرج عن هـذا الرأى حق من الحقوق الاجتماعية ، أو السياسية ، أو المدنية .. فى المجتمع الذى يعيش فيه . . وهذا شر مايعرف الناسُ من ظلم وعدوان فى مصادمة الرأى ومصادرته . !

الامتحان الأول :

وامتثالا لأمر أمير المؤمنين « المأمون » جمع إسحق نحو ثلاثين رجلاً من العلماء والفقهاء . .

وجعل يسألهم ، ويتلقى إجابتهم ، ويردّها عليهم مهدداً متوعداً ..

وهذه نماذج مما سجل التاريخ لهذه المحاورات ..

مع بشر بن الوليد :

دعا إسحقُ بن إبراهيم ، بشرَ بن الوليد . . وسأله :

— ما تقول فى القرآن ؟

قال : قد عرفتَ مقالتى لأمير المؤمنين ، غيرَ مرة !

قال : فقد تجدّد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى !

قال : أقول : القرآن كلام الله !

قال : لم أسألك عن هذا . . أمخلوق هو ؟

قال : الله خالقُ كلِّ شىء !

قال : أمَا القرآنُ شىء ؟

قال : هو شىء !

قال : فمخلوق هو ؟

قال : ليس بمخالق !

قال : ليس أسألك عن هذا . . أمخلوق هو ؟

قال : ما أُحسِنُ غير ماقلت لك ، وقد استعهدت[1] أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه ، وليس عندى غيرُ ما قلتُ لك !

مع على بن أبى مقاتل :

ودعا إسحق ، علىّ بن أبى مقاتل . . وسأله :

ما تقول يا على ؟

فقال : قد أسمعتُ كلامى لأمير المؤمنين فى هـذا غير مرة ، وما عندى غيرَ ما سمع !

فقال له : القرآن مخلوق ؟

قال : القرآن كلام الله !

قال : لم أسألك عن هذا . .

قال : هو كلام الله ، وإن أمرَنا أميرُ المؤمنين بشىء سمعنا وأطعنا !

مع أبى حسان الزيادى :

وسأل أبا حسان الزيادى :

ـ القرآنُ مخلوق هو ؟

قال : القرآن كلام الله ، والله خالق كل شىء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامّة العلم ، وقد سمع مالم نسمع ، وعلم مالم نعلم ، وقد

---

(١) أى أعطيت عهداً .

قلده الله أمرنا ، فصار يقيم حَجَّنا وصلاتنا ، ونؤدى إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا انتهينا ، وإن دعانا أجبنا !!

قال : القرآن مخلوق هو ؟ !

فأعاد حسّان مقالته .

فقال إسحق : إن هذه مقالة أمير المؤمنين (١) !

قال : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ، ولا يأمر الناس بها ، ولا يدعوهم ، وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول ، قلتُ ما أمرتنى به ، فإنك الثقة المأمون عليه ، فما أبلغتنى عنه من شىء ، فإن أبلغتنى عنه بشىء صرتُ إليه !

قال : ما أمرنى أن أبلغك شيئاً !

قال : قد يكون قولُه كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا عليها الناس . ! ! »

* * *

وقد أَلِمَ المأمون لهذا الخلاف عليه أشدّ الألم ، ولم يشأ أن يرجع خطوة إلى الوراء ، بل لقد أمعن فى الشدة على مخالفيه ، وأخذهم من حلاقيمهم قَوَداً إليه ..

ومن جهة أخرى كان العامة يرصدون مواقف العلماء والفقهاء فى هذه المحنة ، ويحصون عليهم الهفوات والعثرات .. فإذا لان واحد منهم فى قول ، أو تخاذل فى رد ، أو ضَعُفَ إزاء تهديد أو وعيد ، أسقطه العامة من مكانه فى نفوسهم ، ولهجوا بالتشنيع عليه ، وأطلقوا ألسنتهم بالسوء فيه . .

ولهذا فإن كثيراً من الفقهاء قد حملهم هذا الموقف من العامة على أن يصمدُوا

---

(١) أى إن أمير المؤمنين يقول : إن القرآن مخلوق .

وكان المأمون قد أوصى أخاه المعتصم ، وهو ولىّ العهد من بعده ،أن يقوم لهذا الأمر ، وأن يُنفِذه على الوجه الذى رآه .

وقد تلقى « المعتصم » هذه الوصية ، ودخل بها فى الفتنة مكرَهاً ، ولكنه سَرْعان ما أنِس لريحها ، واستطعم مرارتها .

فأمر بإحضار « أحمد بن حنبل » وعرض عليه أن يقول كما قال غيره من العلماء ، فأبى أن يتحول عن رأيه ، ولم يثنه عن ذلك ما لقيه من ضرب وتعذيب فى مجلس المعتصم نفسه ، وفى سجنه مقيداً بالسلاسل والأغلال !

وبقى ابن حنبل فى هذا السجن والعذاب حتى مات « المعتصم[1] » وجاء بعده ابنه الواثق . . فسار سيرة أبيه فى هذه المحنة ، وبقى « أحمد بن حنبل » فى محنته حتى مات الواثق[2] أيضاً ، وجاء بعده الخليفة « المتوكل » .

ولم يكن « الواثق » راضياً عن هذه « المهزلة » التى تمثل على المسرح الإسلامى، فأظهر أنه على عهد سَلَفه من هذه الفتنة ، ولكنه لم يكن يضمر لها غير الاستخفاف والاستهزاء . .

ولقد كشف إحساسُ الناس عما فى صدر « الواثق » من ضيق بهذا الأمر ، ومن كراهية له ، فجاءوا إليه فيه عن طريق المفاكهة والمداعبة ، ليكون ظاهرُ أمره وباطنه سواءً فيه ، وبهذا تنجلى هذه الفتنة عن المسلمين وتنقشع غيومها .

دخل عُبادة « الضحاك » على « الواثق » يوماً فقال : يا أمير المؤمنين . . أعظم الله أجرك فى القرآن ! ! فقال « الواثق » : ويلك ! القرآن يموت ؟ قال : يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت ! ! بالله يا أمير المؤمنين — من يصلّى بالناس التراويح إذا مات القرآن ؟ فضحك « الواثق » وقال : قاتلك الله ! أمْسِكْ ! » .

---

(١) توفى المعتصم سنة ٢٢٨هـ (٨٤٢ م) (٢) توفى الواثق سنة ٢٣٢هـ (٨٤٧م)

أرأيت كيف ينتهى الأمر بهذه الفتنة التى ذهب فيها كثير من خيرة العلماء والفقهاء ، والتى كادت تذهب بالإسلام وبالمسلمين جملة ؟ !

إنها مسألة ما كان ينبغى ألا تثار أصلا ، وإذا أثيرت ،فما كان ينبغى أن يكون فيها خلاف ، ولو أثيرت ووقع فيها خلاف، لما كان يجوز أن يذهب مذاهب الصراع الفكرى والدموى ، على هذا النحو الذى ذهب إليه !

ولكن هكذا أراد الله أن يُمتحن المسلمين بهذه البلوى ، ثم كان من فضله ورحمته بهم ما أراهم من السلامة والعافية بعد الشدة والمحنة .

فى أواخر خلافة « الواثق » جىء إليه بشيخ يرسف فى الأغلال فسأله أحمد ابن أبى دؤاد[1] فى حضرة « الواثق » قائلا :

ما تقول فى القرآن ؟ مخلوق أو قديم ؟

فقال له الشيخ : لم تنصفنى المسألة .. أنا أسألك قبل الجواب ..

أهذا الذى تقوله يا ابن أبى دؤاد — مَن خَلْق القرآن — شىء علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، رضى الله عنهم أو جهلوه ؟

قال : بل علموه !

قال الشيخ : فهل دَعوْا إليه الناسَ كما دعوتهم أنت أو سكتوا ؟

قال : بل سكتوا !

قال الشيخ : فهلاّ وسعك ما وسعهم من السكوت ؟

فسكت ابن دُؤَاد .. وأعجب « الواثقَ » كلامُه ، وقام الواثق وهو يقول : هلا وَسِعَكَ ما وسعهم ؟ وجعل يكرر هذا القول مرارا !!

---

(١) كان أحمد بن أبى دؤاد الرأس المفكر واليد العاملة فى هذه الفتنة ، ومن المشايعين للقول بخلق القرآن .

وهكذا استخزت الفتنة ، ونامت فى صدور أصحابها .. فلما مات « الواثق » وجاء « المتوكل » كانت الأفواه مهيأة للصمت ، فلم تنطق بشىء فى هذا الأمر أبدَ الدهر ! !

يقول الشيخ « محمد الخضرى » تعليقاً على هذه الفتنة : « وهذا الذى فعله « المأمون » كان أول تجربة وآخرها ، لأنه لم يفكر أحد من قبله فى مثل هذا ، ولما انتهت تجربته بالفشل ، لم يعد أحد من الخلفاء إلى مثله » .

ويقول الشيخ الخضرى أيضاً فى التعليق على « القضية » ذاتها : « وقد كبر الخلاف فى مسألة من أهون المسائل ، وأيسرها حلا ، فإن « المأمون » قال : إن أصغر المسائل متى كان أساساً لِنِحْلة ، أو سبباً لرياسة ، فإن الخلاف يعظم سببه ، أما أعضل الأمور فإن الخلاف الشديد لا يجد إليه سبيلا ، إذا لم يكن أساساً لِنحْلَة ، أو سبباً لرياسة . . وهٰذا يكاد يكون صحيحا ، ومع اعترافنا بأن الخلاف لا محل له فى هذه المسألة ، لا نرى للمأمون حقاً — وهو سلطان الأمة — أن يصادرها فيما تعتقد ، على الشكل الذى سنّه »[1] .

الجاحظ فى المعركة :

وقد كان « الجاحظ » من المعاصرين لهذه الفتنة ، بل ومن المشاركين فيها .. وحسبك بمعركة يدخلها الجاحظ ، ويُجرى فيها قلمه ، ويستخدم لها أسلوبه ، ويعطيها بيانه !

لقد كان الجاحظ معتزلياً ، بل ورأساً فى المعتزلة ، وصاحب فرقة من فرقها .. ولهذا فإنه فى هذه المعركة كان فى الجبهة القائلة بخلق القرآن . .

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضرى « الدولة العباسية » ص ٢١٥

وإذن فنحن مع الجاحظ هنا نتلقّى منه أقوى الحجج عند أصحاب هذا القول ، فهو خير من يُبين عنهم ، ويتحدث بما فى عقولهم وقلوبهم . .

ونحن هنا أيضاً مع الجاحظ نتلقى منه نظرة من نظراته فى القرآن ، ومفهوماً من مفاهيمه لـكلام الله !

كتب « الجاحظ » رسالة فى « حجج النبوّة » . . وهو فى هـذه الرسالة يعرض لإعجاز القرآن ، ثم يعرض لنظمه ، ثم يدخل فى موضوع « خلق القرآن » حين ينظر فى الـكلام الذى نُظم منه القرآن . . أهو قديم أم حادث ؟ ومخلوق هو أم غير مخلوق ؟

وهكذا نجد الجاحظ وجهاً لوجه مع هذه القضية ، وإذا هو محامى دُعاتها ، ومقيم الحجج والأسانيد لها .

والجاحظ إذ يكشف عن رأيه فى القول بخلق القرآن، يدير الحديث بينه وبين صاحب له ، على عادته فى معظم رسائله ، فهو إذ يوجه القول إلى صاحبه ذا ، يضعه موضع السائل ، ويضع هو نفسه موضع المجيب على ما يَسأل عنه ! !

يقول الجاحظ على لسان صاحبه هذا : وقلتَ : وزعموا أنه يلزمك أن تزعم أن القرآن ليس بمخلوق إلا على المجاز ، كما ألزم ذلك نفسه مَعْمَر ، وأبو كلدة ، وعبد الحميد وثمامة[1] .. وكل من ذهب مذهبهم ، وقاس قياسهم ! فتفهّمْ فهّمك الله ، ما أنا واصفه لكَ ، ومُورِده عليك . »

يقرر الجاحظ هنا أن مذهب كثير من أصحابه المعتزلة — كمعمر وغيره — فى القول بخلق القرآن مذهب متناقض ، إذ أنهم إذ يقولون إن القرآن مخلوق ، يقولون فى الوقت نفسه ، إنه ليس بمخلوق ! ولـكن لا على سبيل الحقيقة ، بل على المجاز ،

(١) هؤلاء أصحاب مقالات فى خلق القرآن .

لأنه فى حقيقته مخلوق ! ولـكن لأنه كلام الله يمكن أن يقال — على سبيل التجوّز — إنه غير مخلوق !

وهنا يحاول الجاحظ أن يقيم لأصحابه رأياً مستقيما غير مضطرب ، ولا متناقض .

يقول الجاحظ :

« اعلم أن القوم يلزمهم ما ألزموه أنفسَهم . . وليس ذلك إلا لعجزهم عن التخلص بحقهم ، وإلا لذهابهم[1] عن قواعد قولهم ، وفروع أصولهم . . فليس لك أن تضيف العجز الذى كان منهم إلى أصل مقالتهم ، وتحمل ذلك الخطأ على غيرهم . . ! » .

إن أصحاب الجاحظ قد خرجوا على الأصل الذى كان لهم ، وهو القول بأن القرآن مخلوق ، وأنهم وقد عجزوا عن الدفاع عن هذا الأصل ، فلا يُحمَل عجزُهم على أصل المذهب ، ولا يؤخذ به غيرهم من أصحاب المذهب . .

ثم يقول « الجاحظ » .

« فربّ قول شريف الحسب ، جيـد المركب ، وافر العرض ، برىء من العيوب ، سليم من الافَن ، قد ضيعه أهله ، وهَجّنه المفترون عليه ، فألزموه مالا يلزمه ، وأضافوا إليه مالايجوز عليه . .

ثم يقول مصوراً ما كان ينبغى أن يكون من مقالة أصحابه هؤلاء :

«ولو زعم القوم — على أصل مقالتهم — أن القرآن هو الجسم دون الصوت،

---

(١) لذهابهم

والتقطيع ، والنظم ، والتأليف ، وأنه ليس بصوت ، ولا تقطيع ولا تأليف . . إذ كان الصوت عندهم لا يُخترع كاختراع الأجسام المصورة ، ولا يحتمل التقطيع كاحتمال الأجرام المتجسدة . والصوت عَرَض لا يحدث من جوهر إلا بدخول جوهر آخر عليه .. ومحال أن يحدث إلا وهناك جسمان قد صَكَّ أحدُهما صاحبَه .. ولابدّ من مكانين : مكان زال عنه ، ومكان زال إليه . . ولابد من هواء بين المصطكين . . والجسم قد يحدث وحده ، ولا شيء غيره !

« والصوت على خلاف ذلك ، والعَرَض لا يقوم بنفسه ، ولابد من أن يقوم بغيره ، والأعراض من أعمال الأجسام ، لا تكون إلا منها ، ولا توجد إلا بها وفيها ، . والجسم لا يكون إلا من جسم ، ولا يكون إلا من مخترِع الأجسام . .

« وليست لكون[1] الجسم علة توجبه ، ولا يحدث إذا حدث إلا اختياراً ، وإلّا ابتداعاً ، واختراعاً . . والصوت لا يكون عن علة موجبة ، ولا يكون إلا توليداً ، ونتيجة ، ولا يحدث إلا من جِرمين ، كاصطكاك الحجرين ، وكقرع اللسان باطنَ الأسنان ، وإلا من هواء يتضاغط ، وريح تختنق ، ونار تلتهب . .

« هكذا الأمر عندهم . . فلو قالوا : لا يكون الشيء مخلوقاً ـ في الحقيقة دون المجاز على مجارى اللغة — إلا وقد بان[2] الله عزّ وجل باختراعه ، وتولاه بابتداعه ، وكان منه على الاختيار والابتداع الذى يمكن تركه ، وإنشاء تعقيبه بدلاً منه ، على خلاف ما كان تولُّده ونتيجته من أجسام يستحيل أن يخلق من أفعالها ، ويحلّه الله منها . .

---

(١) لكون الجسم : أى لوجوده .. من الكينونة وهى التكوين .
(٢) أى انفرد .

ثم يقول :

« والقرآن على غير ذلك .. جسم وصوت .. وذو تأليف ، وذو نظم وتقطيع ، وخَلْق قائم بنفسه ، مستغنٍ عن غيره ، ومسموع فى الهواء ، ومرئىٌّ فى الورق ، ومفصل وموصل ، وذو اجتماع وافتراق ، ويحتمل الزيادة والنقصان ، والفناء والبقاء .. وكل ما احتملته الأجسام ، ووصفت به الأجرام — كل ما كان كذلك فمخلوق فى الحقيقة ، دون المجاز ، وتوسُّع اللغة .

« ولو كانوا قالوا ذلك لكانوا أصابوا فى القياس ، ووافقوا أهل الحق[1] ، وكانوا مع الجماعة ، ولم يضاهوا أهل الخلاف والفرقة ..!! »

وهذا الذى يقرره الجاحظ هنا يحتاج إلى شىء من البيان والتوضيح ، لا لأن بيان الرجل يقصر عن الوفاء بالمعنى ، بل لأن المعنى فى ذاته دقيق ، يقوم على تركيبات ومصطلحات علمية وكلامية . .

يريد « الجاحظ » أن يقرر أن القرآن « جسم » : له خواص الأجسام كلّها ، من تقطيع وتأليف ، وفصل ووصل !

وأصحابه — من المعتزلة — يقولون إن القرآن « جسم » ولكنهم ينفون عن هذا الجسم ما به من صوت ، وتقطيع ونظم وتأليف . . إذ الصوت عندهم لا يُخترع كاختراع الأجسام المصورة ، ولا يحتمل التقطيع كاحتمال الأجرام المتجسدة .

ويردّ « الجاحظ » على هذا بأن القرآن جسم وصوت معاً .. فهو ذو تأليف ،

---

(١) يريد بهم المعتزلة لأنهم كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والحق ، إذ قالوا إن أعمال العبد كلها مكتسبة ، وبها يثاب ويعاقب . . وبهذا يكون عدل الله .

وذو نظم وتقطيع ، وخلق قائم بنفسه ، مستغن عن غيره ، ومسموع فى الهواء ، ومرئى فى الورق .

وأن الصوت المنبعث من كلمات القرآن هو دليل على أن القرآن « جسم » إذ أن الصوت لا يكون إلا من احتكاك جسمين . .

وإذا كان القرآن جسما فينبغى أن يكون له ما للأجسام ، من احتمال الزيادة والنقصان ، والفناء والبقاء .. وما كان كذلك فهو مخلوق فى الحقيقة دون المجاز !

ثم يعرض « الجاحظ » لموقف الإمام « أحمد بن حنبل » من القول بخلق القرآن أمام « المعتصم » ، ويروى أن الإمام أحمد لم يجد جواباً مقنعاً لما سئل عنه ! يقول « الجاحظ » يخاطب القائلين بأن القرآن قديم غير مخلوق :

« وقد قال صاحبكم — أى ابن حنبل — للخليفة « المعتصم » يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة ، والمحصلين — إعذارا وإنذاراً — : امتحنتنى ، وأنت تعرف المحنة وما فيها من الفتنة ، فلم امتحنتنى من بين جميع هذه الأمة ؟ قال المعتصم: أخطأتَ . . بل كذبتَ ! ! وجدتُ الخليفة قبلى قد حبسك وقيدك ، ولو لم يكن حبسك على تهمة لما أمضى الحكم فيك ، ولو لم يخفك على الإسلام ماعرض لك ! ! فسؤالى إياك عن نفسك ليس من المحنة ، ولا من طريق الاعتساف ، ولا من طريق كشف العورة ، إذ كانت حالك هذه الحال ، وسبيلك هذه السبيل !

« وقيل للمعتصم فى ذلك المجلس : ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا إقراره ، ويعاينوا انقطاعه ، فينقض ذلك استنصارهم ، فلا يمكنهم جحد ما أقرّ به عندهم ! فأبى — المعتصم — أن يقبل ذلك ، وأنكره عليهم ، وقال : لا أريد أن أوتى بقوم إن اتهمتم سرتُ فيهم سيرتى فيه ، وإن بان لى أمرهم أنفذت حكم الله فيهم ، وهم — مالم أوتَ بهم — كسائر الرعية ، وكغيرهم من عوام الأمة ، وما من شىء

أحبّ إلىّ من الستر ، ولا شيء أولى بى من الأناة والرفق . ! وما زال به[١] رقيقا ، وعليه رفيقاً ، ويقول : لأن أستحييك[٢] بحق أحبّ إلىّ من أن أقتلك بحق . . حتى رآه يعاند الحجة ، ويكذب صُراحا عند الجواب . . وكان آخر ما عاند فيه ، وأنكر الحق وهو يراه . . أن أحمد بن أبى دؤاد قال له :

« أليس لا شيء إلا قديم أو حديث ؟

« قال : نعم !

« قال : أو ليس لا قديم إلا الله ؟

« قال : نعم !

« قال : فالقرآن إذن حديث !

« قال : ليس أنا بمتكلم !

« وكذلك كان يصنع فى جميع مسائله حين كان يجيبه فى كل ما سأل عنه . حتى إذا بلغ المخنق ، والموضع الذى لذا قال فيه كلمة واحدة برىء منه أصحابه قال : ليس أنا متكلم !

فلا هو قال فى أول الأمر لاعلم لى بالكلام ، ولاهو حين تكلم فبلغ موضع ظهور الحجة خضع للحق[٣] » .

وواضح من هذا تحامل الجاحظ على هذا الإمام الجليل . . ابن حنبل . . فهو يقيم للخليفة المعتصم حجة قاهرة ، وعدلا ظاهرا ، وأناة وحلماً ، على حين

---

(١) أى ما زال المعتصم رقيقا بابن حنبل — حسب قول الجاحظ !

(٢) أى أحفظ حياتك .

(٣) من رسالة حجج النبوة للجاحظ ص ١٤٨ وما بعدها من « مجموعة رسائل الجاحظ » للسندوبى

يرمى هذا الإمامَ المقيد بالأغلال ، المساق إلى ساحة الهوان والاستهزاء — يرمه بالعجز ، والقصور والكذب . . وهذا لعمرك جور فى الحكومة ، وظلم مبين للحق والإنصاف !

ولماذا يُحمل هذا الإمام على أمر لم يكن يوماً فى نظر المسلمين من أصحاب رسول الله وخلفائه ؟ وما هى جنايته إذا هو لم يقل به ، ولزم الحدود التى لزمها الصحابة والتابعون .. تأسِّياً بهم ، أو تحرجاً من الخروج عن طريقهم ؟ !

وماذا يضير المسلم لو لم يقل بهذا القول أو ذاك فى شأن القرآن ؟ فلم يقل إنه قديم ، أو حديث ، غير مخلوق أو مخلوق .. ووقف عند القول بأنه : قرآن وكتاب مبين ، وأنه كلام رب العالمين . . كما قال الله تعالى فيه :

« وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ[1] » ؟

ماذا على المسلم لو وقف عند هذه الحدود التى وقف عندها أصحاب الرسول وخلفاؤه ؟ أليس ذلك هو أعدل طريق وأقومه ؟

ولماذا يُلقى المرء بنفسه فى هذا اللجاج من القول ، ويخوض فيما لا محصّل له إلا الخلاف والفرقة ؟

كان السلف من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم لا يخوضون فى مثل هذه المهاترات التى لا تلد إلا شرًّا . .

سُئل جعفر بن محمد رضى الله عنه عن القرآن ! أخالق أم مخلوق ؟

فقال : ليس خالقاً ولا مخلوقا ، ولكنه كلام الله عزّ وجل !

---

(١) سورة التوبة آية ٦ .

وكان أنس بن مالك رضى الله عنه يقول : القرآن كلام الله عزّ وجل ، ويستفظع قول من يقول إن القرآن مخلوق .. قال أنس بن مالك : « يوجَع ضربا ، ويحبس حتى يموت[1] » .

وهكذا .. كان شأن السلف رضوان الله تعالى عليهم . . لا يتجاوزون هذا القول فى القرآن . . إنه كلام الله . . وكفى ! !

هذا ، ولابن قتيبة — وهو سنّى — رأى فى هذه القضية ، نراه خيرَ حُكْمٍ وقع فيها . . يقول « ابن قتيبة » .

« أعدل القول فيما اختلفوا فيه من القراءة واللفظ — أن القراءة لفظ واحد يشتمل على معنين : أحدهما عمل ، والآخر قرآن ، إلا أن العمل يتميز من القرآن ، كما يتميز الأكل من المأكول ، فيكون المأكول : المضوغ والمبلوع ، ويكون الأكل : المضغ والبلع ! !

« والقرآن لا يقوم بنفسه وحده كما يقوم المأكول بنفسه وحده ، وإنما يقوم بواحدة من أربع : كتابة ، أو قراءة ، أو حفظ ، أو استماع .

« فهو — أى القرآن — بالعمل فى الكتابة قائم . . والعمل خط ، وهو مخلوق ، والمكتوب قرآن ، وهو غير مخلوق .

« وهو — أى القرآن — بالعمل فى القراءة قائم ، والعمل تحريك اللسان واللهوات بالقرآن ، وهو مخلوق ، والمقروء قرآن ، وهو غير مخلوق .

وهو — أى القرآن — بحفظ القلب قائم فى القلب ، والحفظ عمل ، وهو مخلوق ، والمحفوظ قرآن ، وهو غير مخلوق .

---

(١) الشريعة للآجرى ص ٧٩ .

« وهو — أى القرآن — بالاستماع قائم فى السمع ، والاستماع عمل ، وهو مخلوق ، والمسموع قرآن ، غير مخلوق » . .

ثم يقول :

« وهذا مثل لون الإنسان ، لا يقوم إلا بجسمه ، ولا تقدر أن تقرّ اللون فى وهمك حتى يكون متميزاً من الجسم ، وكذلك القدرة ، لا تقدر أن تفردها عن الجسم ، وكذلك الاستطاعة والحركة ، كل واحدة منها لا تُفرد ، وإنما تقوم بالجسم والجارحة ، لا تنفرد عنهما . . كذلك القرآن يقوم بتلك الخلال الأربع : الكتابة ، والقراءة ، والحفظ ، والاستماع — ولا يستطيع أحد أن يتوهمه منفرداً عنها .

« فإذا قلت : قرأتُ ، أو تلوت ، أو تلفظت — دلّ قولك ، على فعلٍ وقرآن ، كل واحد منهما قائم بالآخر غير متميز منه .

« فإن قال قائل : ما تقول فى القراءة ؟ قلت : قرآن متصل بعمل .

« فإن قال : أمخلوق هو أم غير مخلوق ؟ قلت : سألتَ عن كلمة واحدة تحتها معنيان : أحدهما مخلوق ، وهو العمل ، والآخر غير مخلوق ، وهو القرآن[1] » . .

وأنت ترى أن ابن قتيبة يفرّق بين القرآن فى ذاته ، وبين الأعمال التى تتصل به ، من كتابة ، أو قراءة ، أو حفظ ، أو استماع . فالقرآن فى ذاته غير مخلوق ، لأنه كلام الله القديم . . وأما هذه الأعمال فهى مخلوقة ، لأنها من عمل البشر وإن لصقت بالقرآن ، ودارت فى فَلَكه . . .

وهذا رأى إن رضيه أهل السُّنة واطمأنّوا له ، فلن يرضاه المعتزلة ، ولن يجدوا فيه مقنعا .

* * *

(١) ابن قتيبة للدكتور عبد الحميد سند الجندى (نقلا عن كتاب : « الاختلاف فى اللفظ لابن قتيبة » ص ٦٣ وما بعدها)

وبعد . . فماذا فى هذه المعركة من معطيات عن الإعجاز ؟ وهل فيها ما يكشف لنا عن وجه من وجوهه ؟

والحق أن « القرآن » فى ذاته لا يتأثر بشىء من هذا الخلاف الذى لا ينقض شيئاً من أحكامه ، ولا يغير لفظاً من ألفاظه ، ولا يمس الجهة المنزل منها . . فهو عند المعتزلة ، كما عند المسلمين جميعاً . . مصدر للتشريع ، وهو الكلام الذى تلقاه الرسول الكريم من ربه وحياً . . نزل به الروح الأمين على قلبه .

ولكن شعور المسلم يختلف فى كل من النظرتين اللتين ينظر بهما إلى كتاب الله ، فهو إذا نظر إلى القرآن ، وتلقاه على أنه كلام قديم خالد ، وأنه إلهى . . وأنه روح من روح الله ، استشعر لهذا الكلام جلالاً ، وروعة ، وسطوة . . إنه بين يدى كلام . . لا كالكلام . .

أما إذا نظر إلى القرآن بالعين التى ينظر بها المعتزلة ، ورآه خَلْقاً مما خلق الله ، وإن يكن قد سُوّى فى أروع صورة ، وأجمل نظام — فإنه مع هذا لا يجد هذه الروعة ، ولا يستشعر هذا الجلال الذى كان يتدسس إلى كيانه وهو فى موقعه الأول . . !

وعلى أىّ فإن أعدل نظر يُنظر به إلى كتاب الله ، أن يتجرد المرء فيه من الإحساس بأنه مخلوق أو غير مخلوق . . حديث أو قديم . . وحسب الناظر فى كتاب الله ، أن يعلم أنه من عند الله ، وأنه كلام الله !

* * *

المحكم والمتشابه

وكما أنه ليس فى القرآن أعلى وأسفل ، كذلك ليس فيه محكم ومتشابه ، إذ جميع آياته محكمات .. كما يقول الله سبحانه وتعالى فى وصفه لكتابه الكريم :

« كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) » .

أما قوله سبحانه وتعالى :

« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ .. فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ .. كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢) » .

فليس معنى المتشابه هنا المغلق الذى عُمِّيت سُبله ، وطُمست معالم الفهم منه ، وإنما هو ما احتمل أكثر من وجه من وجوه الرأى والنظر .. وذلك خلاف المحكم الذى لا يحتمل إلا قولا واحدا ، ولا تتباعد فيه المسافات بين مطارح النظر ..

وفى الآية تدبير محكم يكشف عن معنى دقيق ، يُلحظ لحظاً ، ويستشف استشفافا : فالقراءة المتوارد عليها فى الآية ، هى الوقوف عند قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ

(١) سورة هود : آية ١

(٢) سورة آل عمران : آية ٧

فِلله أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢) » .

(١) الأنعام : ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .

تأويله إلا الله » ثم تستأنف القراءة بعدها بقوله « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به .. كل من عند ربنا .. »

وعلى هذه القراءة يكون مفهوم الآية، أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله، وبهذا ينقطع نظر الناس عنه ! وهنا يقوم استفهام : لماذا هذا المتشابه من الآيات ؟ إنها

وقوله تعالى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوٓا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » إلى ثلاث آيات بعدها(١) .

« وقيل : « المتشابهات » : أى المنسوخة ، والمقدَّم والمؤخر ، والأمثال ، والأقسام(٢) ، وما يؤمن به ولا يُعمل به . . ويُروى عن ابن العاص عن أبيه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « إن القرآن لم ينزل ليكذّب بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به » .

« وقال محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير : « وما يعلم تأويله » أى الذى أراد ما أراد « إلا الله » ، « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به » ، ثم ردّوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المُحكَمة ، التى لا تأويل لأحد فيها إلاّ تأويل واحد ، فاتسق بقولهم الكتاب ، وصدّق بعضُه بعضاً ، فنفذت الحجة ، وظهر به العذر ، وزاح به الباطل ، ودفع به الكفر » .

وروى الإمام أحمد فى موطئه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع قوماً يتدارءون(٣) فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، فضربوا كتاب الله بعضَه ببعض ، وإنما أُنزل كتاب الله ليصدِّق بعضه بعضاً ، فما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فَكِلُوه إلى عالِمِه(٤) » .. أى إلى الله سبحانه وتعالى .

ويقول الشريف المرتضى فى أماليه :

« إن سأل سائل عن قوله تعالى » :

« فَأَمَّا الذينَ فى قلوبهم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفتنةِ وابْتِغَاءَ

---

(١) الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) أى ما أقسم الله تعالى به من مخلوقاته .
(١) أى يتجادلون ويتخاصمون ويتدافعون .
(٢) تفسير ابن كثير ـ الجزء الثانى .

تأويلِهِ وما يعلَمُ تأويلَهُ إلا اللهُ ، والراسخونَ فى العِلْمِ يقولون آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عندِ رَبِّنا ، ومَا يَذَّكر إلاّ أُولوا الألبَاب[1] » .

الجواب . . قلنا : ذُكر فى هذه الآية وجهان مطابقان للحق :

أحدهما : أن يكون الرسخون معطوفين على اسم الله تعالى ، فكأنه قال :

« وما يعلم تأويله إلاّ اللهُ والراسخون فى العلم ، وإنما مع علمهم « يقولون آمنا به » فوقع قوله : « آمنا به » فى موقع الحال ، والمعنى أنهم يعلمونه قائلين : « آمنا به ، كلٌّ من عند ربنا » وهذا غاية المِدحة لهم ، لأنهم إذا علموا ذلك بقلوبهم وأظهروا التصديق به على ألسنتهم ، فقد تكاملت مِدحتهم ، ووصْفُهم بأداء الواجب عليهم . .

والوجه الثانى : أن يكون قوله : « والراسخون فى العلم » مستأنفاً ، غير معطوف على ما تقدم ، ثم أخبر عنهم أنهم « يقولون آمنا به » ويكون المراد بالتأويل — على هذا الجواب — المتأوَّل ، لأنه قد يسمى تأويلا . قال تعالى : هل ينظرونَ إلا تأويلَهُ يوم يأتى تأويلُهُ[2] » والمراد بذلك لا محالة المتأوَّل الذى لا يعلمه العلماء ، وإن كان الله عزّ وجل عالماً به ، كنحو وقت الساعة ومقادير الثواب والعقاب وصفة الحساب ، إلى غير ذلك ، فكأنه قال : « وما يعلم تأويل مجمله على المعنى الذى ذكرناه إلا الله ، والعلماء يقولون آمنا به[3] » .

ويقول « ابن قتيبة » فى الكشف عن حكمة ما ورد فى القرآن من آيات يبدو فيها التشابه عند من لا يُحْكم النظر إليها ، أو يردّد البصر فيها :

---

(١) سورة آل عمران / آية : ٧ .
(٢) سورة الأعراف : ٥٣ .
(٣) أمالى الشريف المرتضى : ١ ص ٤٣٩ .

« وأما قولهم : ماذا أراد (الله) بإنزال المتشابه فى القرآن من أراد بالقرآن لعباده الهـدى ؟

«والجواب : هو أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ، ومذاهبها، فى الإيجاز والاختصار ، والإطالة ، والتوكيد ، والإشارة إلى الشيء ، وإغماض بعض المعانى. حتى لا يظهر عليها إلا اللّقِن(١) ، وإظهار بعضها ، وضرب الأمثال لما خفى .

« ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوى فى معرفته العالم والجاهل ؛ لبطل التفاضل بين الناس ، وسقطت المحنة ، وماتت الخواطر !

« ومع الحاجة ، تقع الفـكرة والحيلة ، ومع الـكفاية ، يقع العجز والبلادة !!

« ولو كان كل فن من العلوم شيئاً واحداً ، لم يكن عالم ، ولا متعلم ، ولا خفىّ ولا جلىّ ، لأن فضائل الأشياء تعرف بأضدادها ، فالخير يعرف بالشر ، والنفع بالضر ، والحلو بالمرّ ، والقليل بالـكثير ، والصغير بالـكبير ، والظاهر بالباطن .. وعلى هذا المثال كلام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلام صحابته والتابعين ، وأشعار الشعراء ، وكلام الخطباء . . ليس منه شيء إلا وقد يأتى فيه المعنى اللطيف الذى يتحيّر فيه العالم المتقدم ، ويقرّ بالتقصير النقّابُ المبرِّز(٢) » .

ويـكشف ابن قتيبة هنا عن وجه مشرق من وجوه البلاغة ، و سر دقيق من أسرار البيان ، وهو عرض المعانى متخفية فى سُتُر رقيقة تشفّ عن مضمونها ، ولا تُفصح مكنونها . .

وهذا الملحظ البارع من ابن قتيبة يقوم على الاعتراف بالأثر النفسى ، الذى يحدثه حبّ الاستطلاع لما وراء المستور ، حيث تلوح من وراء الستر مخايل تثير

---

(١) يظهر عليها ، أى يطلع على أسرارها ، واللقن : الفطن الذكى .
(٢) مشكل القرآن ، لابن قتيبة ص ٣٩ .

الخيال ، وتحرك الشعور ، وتستدعى الرغبة إلى كشف المجهول !

فما جاء فى القرآن الكريم من متشابه إنما هو هذا من القبيل ، الذى يُلوّح ولا يصرّح ، ويَشِفّ ولا ينكشف ! فتظل النفوس أبداً عالقة به ، والأبصار دائماً شاخصة إليه ، والعقول حائرة فيه ، والقلوب مجتمعة عليه ! !

ويقول « عبد الجبار » فى كتابه المغنى فى تفسير قوله تعالى : « وَما يَعْلَمُ تأويلَه إلا الله » . . الآية : . .

« اعلم أن الأولى فى معنى قوله تعالى : « وما يَعْلَمُ تأويلَه إلّا اللهُ والراسخونَ فى العلم » أن يكون عطفاً على ما تقدم ، ودالا على أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويله ، بإعلام الله إياهم ، ونصْبِ الأدلة على ذلك ، فيكون قوله تعالى : « يقولون آمنا به » دلالة على أنهم برسوخهم فى العلم يجمعون بين الاعتراف والإقرار ، وبين المعرفة ، لأن الله تعالى مدحهم بذلك ، ولا يتكامل مدحهم إلا بضم الإيمان والتصديق وإظهار ذلك، إلى المعرفة بتأويله . .

« يبيّن ما قلناه أنهم لو كانوا لا يعرفون تأويله ، لكان حالهم وهم راسخون فى العلم كحال غيرهم ، فى أنهم يعترفون بأنه من عند الله ، ويؤمنون به ، فلا تكون لهم مزية على غيرهم ، والكلام يدل على أن لهم مزية ، ويبيّن ذلك قوله تعالى : « هو الّذى أنزلَ عليكَ الكتاب ، منه آياتٌ محكماتٌ هنّ أمُّ الكتابِ » فكيف صح فى المحكم أن يكون أصلاً للمتشابه ، وليس له معنى يُستدل بالمتشابه عليه ؟ فلابد أن يكون له تأويل يدل عليه المحكم[1] » .

ويقول « الزركشى » فى تفسير هذه الآية . « ومنهم — أى العلماء — من

---

(١) المغنى . . لعبد الجبار . . جزء ١٦ ص : ٣٧٨

رجّح أنها ـ أى الواو ـ للعطف . . وضعف الأول ـ أى ضعف هؤلاء العلماء الرأى الأول القائل بأن الواو للاستئناف ـ لأن الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينتفع به عباده ، ويدل به على معنى أراده .

« فلو كان المتشابه لا يعلمه إلا الله لَمَا لزمنا ، ولا يسوغ لأحد أن يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم المتشابه ، فإذا جاز أن يعرفه الرسول مع قوله: « وما يعلم تأويله إلا الله » جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته ، والمفسرون من أمته . ألا ترى أن ابن عباس كان يقول عند قراءة قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم » ـ : « أنا من الراسخين فى العلم » ويقول عند قراءة قوله تعالى فى أصحاب الكهف « ما يعلمهم إلا قليل » : أنا من أولئك القليل ! !

وقال مجاهد فى قوله تعالى : « وما يَعْلَمُ تأويلَه إلاّ الله ، والراسخون فى العلم » يعلمونه « ويقولون آمنا به » ولو لم يكن للراسخون فى العلم حظ من المتشابه إلا أن يقولوا « آمنا به » لم يكن لهم فضل على الجاهلين ، لأن الكل قائلون ذلك . . ونحن لم نر المفسرين إلى هذه الغاية — أى هذا الوقت — توقفوا عن شىء من القرآن فقالوا متشابه لا يعلمه إلا الله ، بل أمرُّوه - أى المتشابه — على التفسير ، حتى فسّروا الحروف المقطعة[1] » .

* * *

وقال الراغب الأصفهانى فى تفسيره : وذهب عامة المتكلمين إلى أن كل القرآن يجب أن يكون معلوما ، وإلا لأدّى إلى رفع فائدة الانتفاع به ، وحملوا قوله تعالى : « والراسخون » بالعطف على قوله « إلا الله » وقوله « يقولون »

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ، ج ٢ ص ٧٢

جملة حالية[١] .

ويعقّب الزركشى على الآراء التى ذهب إليها المفسّرون فى هذه الآية فيقول: وفصل الخطاب فى ذلك ، أن الله سبحانه قسّم الحق بين عباده ، فأولاهم بالصواب من عبّر بخطابه عن حقيقة المراد ، قال تعالى :

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[٢] »

ثم قال : « إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ[٣] » .

« أى على لسانك ، أو ألسنة العلماء من أمتك .

« لأن المعانى إذا دقّت ، تداخلت وتشابهت على من لا علم له بها ، كالأشجار إذا تقارب بعضها من بعض تداخلت أفنانها[٤] واشتبهت على من لم يمعن النظر فى منبت[٥] كل فَنَن[٦] . قال تعالى :

« وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً ، وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ[٧] » .

« وهو على اشتباكه غيرُ متشابه .

« وكذلك سياق معانى القرآن العزيز ، قد تتقارب المعانى ، ويتقدم بعض الخطاب ويتأخر بعضه عن بعض ، لحكمة الله فى ترتيب الخطاب والوجود ،

---

(١) البرهان فى علوم القرآن جزء ٢ ص ٧٣

(٢) سورة النحل آية : ٤٤

(٣) سورة القيامة آية : ١٩

(٤) فى الأصل « أمثالها » وهذا لا يستقيم مع السياق

(٥) فى الأصل « منبعث » وهو تصحيف صححناه على هذا النحو

(٦) فى الأصل « فن » وهو تصحيف صححناه على هذا النحو

(٧) سورة الأنعام آية ١٤١

فتشتبك المعانى وتشكل إلا على أولى الألباب ، فيقال فى هذا الفن متشابه بعضه ببعض . »

وأما المتشابه فى القرآن العزيز فهو يشابه بعضه بعضاً فى الحق والصدق ، والإعجاز والبشارة والنذارة ، وكل ما جاء به ، وأنه من عند الله[١] .

ويقول صاحب كتاب المعانى : « القرآن محكم من جهة النظم و الإعجاز كما قال تعالى .

« كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ[٢] » .

« وقوله تعالى . « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كتاباً مُتَشَابِهاً[٣] »

« فكله متشابه . . من تشابه ألفاظه بعضها ببعض ، وبعضه محكم من جهة احتماله وجهاً واحدا ، لا يُرتاب فيه ، وبعضه متشابه من احتماله وجوها كثيرة لا يَقطع على واحد منها قاطع ، كما أنه فى بابه عَلَم ساطع . .

« وذلك لقوله : « مِنْهُ آيَاتٌ مُحكمَات هُنَّ أمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهات »

« فاللائى هن أم الكتاب مثل قوله : « قُلْ تَعَالَوْا أتلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكم عليكم[٤] » وقوله : « قل هو الله أحَدٌ ، اللهُ الصَّمدُ » وقوله : « هو اللهُ لاَ إِلٰه إلاّ هُو الملك القُدُّوس » إلى آخر السورة ..[٥] » :

وأما المتشابه فإنه مثل قوله : « أن تَقُولَ نفسٌ يا حَسْرَتَى عَلى مَا فَرَّطْتُ

---

(١) البرهان فى علوم القرآن جزء ٢ ص ٧٠

(٢) سورة هود آية ٢ (٣) سورة الزمر آية ٢٣

(٤) سورة الأنعام الآيات/١٥١ ـ ١٥٢ ـ ١٥٣

(٥) سورة الحشر / ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤

فى جَنْبِ الله »(١) وقوله : « هل يَنظُرون إلا أن يأتيَهُمُ الله فِى ظُلَلٍ مِنَ الغمام والملآئكةُ »(٢) وقوله : « وَجَآءَ رَبُّك وَالْمَلَكُ (٣) » وما أشبهها .

لم هذا المتشابه ؟

« فإن قيل : ولأية علة أنزل المتشابه ، وهو يحتمل التأويلات ؟.. فهلا جعله كله محكما دالا على ما أراده ، ليكون أكشف للحق ، وأقمع للشبهة مع قوله تعالى : « لِيهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَ مَنْ حَيَّ عن بيِّنة » .

« وإذا لم يكن فى المتشابه المأخوذ منه المراد لَبْس ولا خفاء ، فهو إلى التشكك أقرب ، وكان متناقضا ، ولم يكن من عند حكيم ، والكلام المبين الذى لا تتداخل فيه الشكوك أشبه بكلام الحكيم الذى يريد هداية عبيده ؟

والجواب على هذا :

« أن الله سبحانه احتج على العرب بالقرآن ، إذ كان فخرهم ورياستهم بالبلاغة وحسن البيان ، والاختصار والإطناب ، وكان كلامهم على ضربين : أحدهما الواضح الموجز ، الذى لا يخفى على سامعه ولا يحتمل غير ظاهره ، والآخر على المجاز والكنايات والإشارات والتلويحات ، وهذا الضرب هو المستحلَى عندهم ، الغريب من ألفاظهم ، البديع فى كلامهم . . فلما قَرَعهم الله سبحانه فعجّزهم عن المعارضة بمثل سوَرٍ أو سورة منه ، أنزله على الضربين ، ليصح العجز منهم ، وتتأكد الحجج ولزومها إياهم ، فكأنه قال: عارضوا « محمدا » صلى الله عليه وسلم فى أى الضربين شئتم .. فى الواضح أو فى المشكل ، ولم يقدروا عليه .

« ولو أنزله كله واضحاً محكما بحيث لا يخفى على أحد سمعه ، لوجد المشركون

---

(١) سورة الزمر / ٦٥ (٢) سورة البقرة ٢١٠ (٣) سورة الفجر ٢٢

مقالا ، ولقالوا : ما باله لم ينزل بالضرب المستحبّ عندنا والمستحلى فى طباعنا؟ لأن ما فيه الإشارة والكناية والتشبيه والتعريض ، كان أفصح وأعرب مع أن غاية الفصاحة ، ونظم البلاغة ، شَوْبُ التعريض بالتصريح ، والمجاز بالحقيقة ، لتصريف القول فى كل فن من فنون البلاغة ..!

«فكان قوله تعالى : « آمِنُوا بالذى أُنزِلَ عَلَى الذين آمَنُوا وجْهَ النَّهار » أذْهبَ فى معنى البلاغة من أن يقول فى أول النهار ! وقوله : « وعنده أمُّ الكتاب » أبلغَ من أن يقول « أصل الكتاب » وقولُه :

« فَقَدِّمُوا بين يَدىْ نَجْواكم صَدَقَة » .

أبلغَ من أن يقول : قدموا قبل نجواكم صدقة .

وقولُه : « أنّ لهم قَدَمَ صِدقٍ عِندَ رَبِّهم » .

أبلغ من أن يقول : « لهم ثواب عمل صالح » .

وقوله : فَأَتَى اللهُ بُنيانَهم مِنَ القواعد » .

أفصح من أن يقول : فأتى أمرُ الله بنيانهم من القواعد » .

وكذلك قول الله : « فأتاهم اللهُ من حيثُ لَمْ يَحْتَسِبوا » .

أحسن من أن يقول : « فأتاهم أمر الله من حيث لم يحتسبوا » .

وقوله : « ياحَسْرَتَىَ على ما فَرَّطْت فِى جَنْبِ الله » .

أفصحَ من أن يقول : « فرطت فى أمر الله ، أو طاعة الله » .

« وأمر آخر(١) :

«وهو أن يُشغلَ أهلُ العلم بردّ المتشابه إلى المحكم، فيطول بذلك تفكيرهم ، ويظهر بالبحث عنه اهتمامهم ، ولو أنزله كله محكما لاستوى فيه العالم والجاهل . . فشغل العلماء به ، ليعظم ثوابهم ، وتعلو منزلتهم ، ويُكرمُ عند الله مآبهم . .

(١) أى من حكمة المتشابه فى القرآن

« وأمر آخر :

« هو أن الله سبحانه وتعالى لو أنزل الكتاب كله ليس فيه ما يحتاج إلى استخراج ، ولا نظر عالم ، لكان يستوى فيه العالم وغيره ، وكان ذلك يحملهم على ترك التدبر لمعانيه والإقبال عليه ، إذ ييأسوا من أن يكون فى باطنه غير ما فى ظاهره . . فشغلهم باستخراج حِكَمه الباطنة ، فصاروا لا يشبعون منه ، لما يهجمون عليه فى كل وقت ، يتدبرون من عجائب حِكَمه ، وغرائب فرائده .

« ويجوز مع ذلك أنه لو كان — أى القرآن — تنقطع منه الفوائد لاجتازوا عند المصير إلى انقطاع فوائده — إلى الضجر منه ، والاستخفاف بحقه .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف القرآن : « هو الذى لا يَخْلَق عن كثرة الردّ ، ولا تنقضى عجائبه »(١) .

* * *

وإذن فالرأى الذى ينبغى أن نراه فى القرآن ، هو أن كل ما فيه من ، حروف ، وكلمات ، وآيات ، هو محكَم . بمعنى أنه غير محجوب عن أنظار الناظرين ولا محجوز عن فهم المتدبرين والمتذكرين .

« كتاب أنزلناه إليك مُبارك ليدّبّروا آياته ، وليتذكّر أولو الألباب » .

وهذا الفهم لكلام الله على هذا الوجه ، هو الذى يحفظ وحدة هذا الكتاب ، ويجعل منه آية واحدة من آيات الله ، التى تشيع الحكمةُ من كل جانب منها ، وتتفجر ينابيع الهدى من كل جهة من جهاتها .

أما إذا قيل إن من القرآن ما هو متشابه لا يدنو منه نظر ، ولا يتجه إليه عقل ، فإن ذلك من شأنه أن يمزّق وَحدة القرآن ، وأن يقيم فيه الحواجز والسدود ،

---

(١) كتاب المعانى ص ١٧٦ وما بعدها .

وأن يجعل بعضه قرآنا ، وبعضه أصواتا ، تُنطق ولا تفهم ! وقد ذم الله اليهود إذ ذهبوا بالكتاب الذى بين أيديهم مذهباً يُعملون فيه بعض ، ويهملون بعضه — فقال تعالى ذما لهم وزجراً ووعيداً :

« أفَتُؤمنُون ببعض الكِتَاب وتَكفرُون ببعض ؟ فما جزاءُ من يَفعل ذَلِكَ منكم إلاّ خِزْىٌ فِى الحياة الدُّنيا ويومَ القِيامة يُردُّونَ إلى أشَدِّ العَذاب.. ومَا الله بِغَافِل عمَّا تَعْمَلُونَ »[1] ،

وإذا كان الذين يقولون بوجود المتشابه فى القرآن لا يكفرون به ، بل يؤمنون به كما يؤمنون بالمحكم ، فإن إيمانهم بالمتشابه هذا، هو — على وجه واحد، وعلى درجة واحدة — إيمانُ عجز واستسلام . . أما الإيمان بالمحكم فإيمان قائم على نظر ، وفهم ، وإقناع ، على حين أن الإيمان بالمتشابه إيمان قلق مذعور ليس له جذور تمسك به فى قلب صاحبه .

* * *

هذا وسنلتقى — إن شاء الله — بمزيد من البحث والنظر فى هذه القضية عند عرضنا لمبحث الحروف المقطعة التى بدئت بها بعض سور القرآن . .

---

(١) البقرة/٨٥ .

معارضة القرآن

ومن الشُّبه التى يثيرها — قديماً وحديثاً — أصحاب الأهواء وذوى الآراء المنحرفة المخرفة — القولُ بأن هناك من عارضوا القرآن ، وقابلوا التحدِّى ، وصمدوا له ، ونجحوا فيه . . وأصحاب هذه الأقوال فريقان :

فريق لا يحسن اللغة العربية ، ولا يعرف مواقع البلاغة فى أساليبها ، وإنما تغلب على لسانه رطانة أجنبية ، وبعض كلمات عربية ، فيحسب أنه بهذا قد ملك موازين الحكم فيما يحسن ومالا يحسن من كل شىء . . ومن هذا الفريق معظم المستشرقين الذين كتبوا فى القرآن وفى بلاغة القرآن . . ومن هذا الفريق أيضاً قوم يحسنون ، ويعرفون الكثير من أسرارها ، ومع هذا يلجُّ بهم الضلال والعناد .

هذا الفريق بطائفتيه أو طوائفه ، يمسك بين يديه الرِّقاعات والسخافات التى يقال عنها إنها مما عورض به القرآن ، ثم لا يردهم الحياء عن التلويح بهذه الحفنة من التراب فى وجه الشمس ، وفى وضح النهار ، وعلى مشهد من الناس !

وندع هؤلاء الآن إلى أن نلتقى بهم وبمعارضاتهم بعد أن نصفى حسابنا مع الفريق الآخر ، من هؤلاء المنازعين فى إعجاز القرآن . .

والفرقة الأخرى ، تضرب صفحاً عن هذه المعارضات أو السخافات التى احتفظ بها التاريخ ، إذ تراها ضروباً من السَّخف الذى لا يشفع له شافع من التمويه والتلبيس ، ليدخل به على عقول الناس ، حتى العامة والدهماء ، لأنه كلام مفضوح ، عارٍ من كل ما يستر عُواره ، ويدارى سوءاته .

ولهذا فقد لجأ أهل هذه الفرقة إلى الكذب والادعاء ، فقالوا : إن هناك معارضات كثيرة قد كانت فى عصر النبوة ، وبعد عصر النبوة ، وأنها كانت جديرة

الدعوة الإسلامية قد حفظ التاريخ كل وسائل حربهم لها ، بل سجل القرآن كثيراً منها . . فكيف لا يبقى دليل أو شاهد على أعظم وأهم ضربة كانت تصيب صميم الإسلام لو أنها وقعت ؟ . . يقول :

« وبعد فقد نُقل سائر ما كانوا يتعاطونه مما لا يؤثر فى حاله صلى الله عليه وسلم وحال القرآن : كالهَجْو والوقيعة ، وكنسبته إلى السحر . وغير ذلك . . فكيف يجوز ألا تنقل المعارضة ، مع ما فيها من الفوائد (١) ، لو كانت وقعت ؟

« على أننا نعلم بعد أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم — عصراً بعد عصر — أن فيها من يعادى النبىّ ، ممن يرجع إلى فصاحة ومعرفة بهذا الشأن ، فقد كان يجب إن لم تُنقَل المعارضة أن يبتدئها من يَحْدث فى هذه الأعصار . . !!

٥ — الغلبة والقهر من دواعى الإذاعة والانتشار ، مع الكتم والاستتار :

يقول « عبد الجبار » :

فإن قال — أى المعترض : هلا جوّزتم القول بأنه لم يُنقل لغلبة مستجيبيه ، وتخوفهم منهم ؟

قيل له : لا تسل عن هذا من يعرف أحوال العرب ، وأحوال الأخبار .. لأن المتعالم من حال الأخبار : أنه لا ينقطع بهذا الجنس من الخوف ، بل لا ينقطع بشىء من الخوف ، لأن الخوف إنما يقتضى ترك الإظهار ، لا ترك النقل ، وربما دعا المنع إلى الإكثار من النقل ، وهذه طريقة معروفة فيما يقع المنع فيه — من سلطان وغيره — أن يكون أقربَ إلى الانتشار ، من حيث تقوى الدواعى ، وتزداد بحصول المنع ، وإنما لا يقع الإظهار فى أحوال مخصوصة ، وذلك لا يمنع

---

(١) أى الفوائد التى تعود على المعاصرين المعاندين .

من النقل ، لأن المقتضى لظهوره ، ووقوع العلم به ، ليس الإعلانَ ، وإنما هو الخبر ، فلا فرق بين أن يُجهَر به ، أو يسرّ به ، فى وقوع المعرفة ! . . فكيف يصح — والحال هذه — أن يُدّعى للأمر الذى يجب نقله أن الخوف يمنع من ذلك ؟

« على أن الخوف إنما يقدح فيما لم يتقدم ظهوره ، فأما إذا تقدّم ذلك فيه فلا يقع المنع فيه [1] . . وقد كان يجب فى المعارضة — لو وقعت — أن تظهر حالها فيمن يعاديه صلى الله عليه وسلم ، وقد علمنا أنهم كانوا كثرة عظيمة . . قد كانوا أكثر من المستجيبين عدداً . . فكيف يقال : إن الخوف منع من ذلك ؟ وكيف يصح فى الخوف الذى لا يجرى مجرى المواطأة أن يمنع من نقل الأخبار ؟ وإنما يجرى هذا المجرى بأن يكون صادراً عن سلطان ، فتجمعهم المخافة فى حال أو أحوال ، أما إذا لم يكن كذلك ، فلا بد أن يخاف البعض دون البعض ، أو تختلف الاعتقادات فيه ، فلا يجوز فى مثله [2] أن يكون مانعاً من الأخبار الظاهرة . . يبيّن ذلك أنه : قد نُقلت المعارضةُ الركيكة ، ولم تَمنع المخافةُ منها ، فكيف تَمنعُ من المعارضة الصحيحة ؟

« وبعد . . فإن المعارضة — لو صحت — لقويت أحوال الكفار بها ، وظهرت لأجلها أحوالهم ، فكان يصير سبباً للقوة ، وزوال أسباب الخوف .. والمتعالَم من حال الخائف ، أن يبذل جهده فى التوصل إلى زوال خوفة ، فكان يجب — على هذه الطريقة — نقلُ المعارضة من وجهين : أحدهما التخلص من

---

(١) يريد أن يقول : إن الخوف كان هو الصفة الغالبة على الجانب الذى فيه الدعوة الإسلامية فى أول أمرها ، وكان يجب لهذا أن تظهر المعارضات التى عورض بها القرآن ، وأن تذاع . وأن تسد الطريق على الإسلام إذ كان أصحابها هم أصحاب الغلبة والقوة ، على حين كان المسلمون فى ضعف ظاهر

(٢) الضمير يعود إلى الخوف .

الشريعة ، وإبطال أمره صلى الله عليه وسلم .. والثانى زوال الخوف من مستجيبيه ! »[1] .

* * *

وأحسب أن فى هذا القدر كفاية ؛ فى الردّ على هذه الدعوى ، التى تتصيَّد المفتريات ، وتبنى منها أعشاشاً تسكن إليها القلوب المريضة ، حيث يبيض فيها الإلحاد ، وتفرخ الزندقة !

ولم تكن بنا حاجة إلى الوقوف عند هذه الفرية المفضوحة ، إذ لا وجه لها تظهر به فى الحياة . . ولكن الردّ عليها فى الواقع رد على مفتريات كثيرة مثلها ، تجىء من هنا ومن هناك ، لتثير فى جو الإسلام أدخنة وسحباً ، تعْشى بها كثير من العيون ، وتمرض بها كثير من القلوب ..

هذا ، وقد كنا تركنا من قبل أصحابَ القول الذين يحتجون بتلك المعارضات التى احتفظ بها التاريخ ، لمن قيل عنهم إنهم عارضوا القرآن ، كمُسيلمة ، وابن المقفع ، والمعرّى ، وغيرهم ..

وها نحن أولاء نعود إليهم لنرى ما فى أيديهم من هذه المعارضات ، وما لهم فيها من ركن يُؤوون إليه !

المعارضة والمعارضون :

إن المروىّ من هذه المعارضات يُشعر الناظر فيه أنه كلام موضوع ، أُريد به السخرية والاستهزاء بمن نُسب إليهم أنهم عارضوا القرآن ، أو حاولوا أن يعارضوه .

---

(١) المغنى لعبد الجبار ـ الجزء السادس عشر ، طبعة وزارة الثقافة ص ١٥٠ وما بعدها

فما ينسب إلى « مسيلمة » — وقد كان ادّعى النبوّة أيضا فى حياة النبىّ — لا يمكن أن يكون كلامَ عربىّ يعرف لسانَ قومه سليقةً وطبعا . . إذ هو كلام ركيك سخيف ، لا يصدر عن عربىٍّ لم تفسد لسانَه العُجمة . . كمسيلمة ، وقومه !

وإنما الذى يُردّ إليه هـذا الـكلام ، هو الإمعان فى الهزء والسخرية بهذا « النبىّ » بنسبة هذا السخف إليه ، وجعـله « قرآنه » الذى أُوحى إليه من شيطانه أو شياطينه !

وقد يكون « لمسيلمة » معارضةللقرآن ، غير هذا « الهذْر » السمج،ولـكنها مع هذا كلام لا يقوم للقرآن ، فأسقطها مسيلمة نفسه ، قبل أن تسقط هى من حساب التاريخ !

إن للعرب خطباً مُفْحِمة ، وحِكَماً رائعة معجبه ، يترقرق عليها ماء الحسن والملاحة . فيها روعة آسرة ، وجمال أخاذ . . ولو ادّعى مدّع من هؤلاء الخطباء النبوّةَ ، وأراد أن يعارض القرآن لـكان له قول غير هـذا القول السخيف الساقط ، وإن كان فى أعلى مراتبه لا يجاوز هضبة على أرض تطاول سماء القرآن !

استمعْ إلى كلمات لقُسّ بن ساعدة[1] فى بعض خطبه : « أيهـا الناس : اجتمعوا فاسمعوا ، وعُوا . . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت .. فى هذه آيات محكمَات. مطر،ونبات ، وآباء ،وأمهات ، وذاهب وآت ،..

---

(١) هو قس بن ساعدة الإيادى ، يضرب به المثل فى مواقف الخطابة ، فيقال :«أخطب من قس بن ساعدة » . . وقد شهده النبى صلى الله عليه وسلم ، واستمع اليه وهو يخطب فى عكاظ على جمل أورق ، فحمد له قوله وما يحمل من كريم المعانى . .

نجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج . . مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ؟ . . أرضوا فأقاموا ، أم حبسوا هناك فناموا !

يامعشر إياد .. أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ . أين المعروف الذى لم يشكر ؛ والظلم الذى لا ينكر ؟ أقسم قس قسما بالله : إن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا . »(١)

هذا كلام تشم من ريحه نفحة نبوة ، وريح نبى ! .. إنه ثمرة من ثمار البلاغة العربية الطيبة الناضجة .. أما هذا السخف الذى ينسب لمسيلمة ، فما هو من الكلام فى شىء . إنه عبث عابث ، وهذيان مجنون !

يروى عن عمرو بن العاص أنه كان بالبحرين مبعوثا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وارتد بعض العرب ، ومنهم مسيلمة وقومه ، أقبل عمرو يريد المدينة ، فمر بمسيلمة ، وكان قد أخذ منه الأمان ، فقال مسيلمة لعمرو : إن « محمداً » أرسل فى جسيم الأمور ، وأرسلت فى المحقرات ! ! فقال عمرو . أعرض علىّ ما تقول : فقال : يا ضفدع نقى فإنك نعم ما تنقين ، لا وارداً تنفرين ، ولا ماء تكدرين .. يا وبر يا وبر(٢) ، يدان وصدر حضر نفر ! »(٣)

قال عمرو : ثم أتى أناس يختصمون إليه فى نخل قطعها بعضهم لبعض ، فتسجى بقطيفة ، ثم كشف رأسه فقال : « والليل الأدهم ، والذئب الأسحم ، ما جاء

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ : جزء ١ ص ٢٤٧ .

(٢) الوبر دويبة كالسنور .

(٣) الحضر : عدو الفرس ، والنفر : نفاره وجموحه .

بنو أبى أسلم من مَخْرَم ! » ، ثم تسجّى الثانية فقال : « والليل الدامس والذئب الهامس ، ما حُرْمته رطباً إلا كحرمته يابس[1] . . قوموا ، قوموا . فما أرى عليكم فيما صنعتم شيئاً » .

قال عمرو : أما تعلم ؟ وإنا لنعلم إنك لمن الكاذبين[2] » .

والصنعة ، والتعمّل ، والعبث كلها واضحة فى هذا الخبر ، وأنه كذب وتلفيق . .

فلم يكن مسيلمة بالذى يرى نفسه أنه دون محمدٍ شأناً ، وقد بَعَثَ إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته كتاباً قال فيه : أنا شريكك فى الأمر ، فلنا نصف الأرض ولكم نصفها ، ولكن قريشاً قوم لا يعدلون ! » وهذا خبر ثابت موثق .. فكيف يرضى « مسيلمة » لنفسه أن يكون نبياً إلى الضفادع ، والسحالى ، والسنانير ؟

ثم لقد أبى واضع هذه القصة إلا أن ينسب إلى مسيلمة الجهل بلغة قومه ، فيخطىء فى إعرابها ، ، كما فى كلمة « يابس » وهى واقعة حالا ، يجب نصبها !

ولا نحسب أن « مسيلمة » وهو عربى صميم ، له ماللعرب من بلاغةوفصاحة ـ يرضى لذوقه العربى أن يَهْرِف بمثل هذا الساقط المرذول من الكلام ، بل نحسب أنه لم يحاول أبداً أن يكون له قرآن ، وأن الذى أفحم قريشاً وأعجزها ، وأخذ على لسانها فى معارضة القرآن ، هو الذى أفحم مسيلمة وأعجزه ، وأخذ على لسانه .. فلم يقل شيئاً يجعله قرآناً له .

والذى نظنه ، بل ونكاد نستيقنه أن الذين أرادوا أن يهزءوا بمسيلمة ،

---

(١) هكذا « يابس » والذى عليه الأعراب : يابساً !

(٢) من إعجاز القرآن للخطابى ص ٥١ .

ويسخروا منه ، ويشوهوا وجهه ، ويلطخوه بالسواد ، على ما شوهه الكذب ، ولطخه الادعاء — هؤلاء قد عمدوا إلى هذا العبث من القول ، فنسبوه إليه ، وعلقوه برقبته ، ليزداد به خزياً ، وسخرية ، على الدهر ، وليكون حديثاً يسمر به السمار ، فى معرض السخرية والاستهزاء ، بكل ذى صفة تجره إلى مجالس الساخرين المستهزئين !

ولا نقول هذا فى مسيلمة وحده ، بل ذلك هو رأينا فى كل معارضة للقرآن نُسبت إلى غيره ، وجىء لها بشاهد من مثل هذا الكلام المرذول المعطوب !

وإذا كان التاريخ لم يحتفظ لمسيلمة بغير هذا الكلام الساقط الذى يمكن أن يُضحكك به ، وأن يقال : إن الرجل سخيف ممسوس بالهلوسة والوسوسة ، لا يصدر عنه إلا مثل هذا الهذر والهذيان ، فماذا يقال فى المعرّى ، وهو مالك زمام البلاغة والبيان ، منظوماً ومنثوراً ؟ أتُراه حين يَلْقَى القرآن معارضاً ينسى كل ما كان فى قلبه وعلى لسانه من فصاحة وبيان ؟ وكيف يُعقل هذا ؟ وقد كان المقام يقتضيه أن يُديم التفكير ، ويطيل التأمل ، حتى يجىء بأحسن ما عنده فى مواجهة أحسن الكلام وأبلغه ؟

رَوى ياقوت الحموىّ فى كتابه « معجم الأدباء » عن معارضة أبى العلاء للقرآن . . فقال :

« ومما ظهر منه — أى من أبى العلاء — فى بعض كلامه : « أُقسِم بخالق الخيل ، والريح الهابّة بليل ، ما بين الأشراط ومطالع سُهيل — إن الكافر لطويل الويل ، وإن العمر لمكفوف[1] الذيل ، . اتّقِ مدارجَ السيل ، وطالع التوبة من قُبَيْل ، تنج ، وما إخالك بناج !! .. »

---

(١) مكفوف : أى قصير

وقوله — أى قول أبى العلاء — : « أذلّت العائذة[١] أباها ، وأصاب الوَحدة ورباها ، والله بكرمه اجتباها : أولاها الشرف بما حباها ، أرسل الشّمال وصَباها ولا يخاف عقباها[٢] .. »

إن يكن هذا من كلام أبى العلاء ، فلن تكون إلا عن معابثة أرادها وقصد لها ، وإلا ، فإن أبا العلاء لا يرضى لنفسه أن تُنزله إلى هذا السخف فى مقام الجد أبداً . وأنه إذا كان لأحد أن يتهم أبا العلاء فى دينه ، فإنه لا سبيل لأحد أن يتهمه فى أدبه ، فإن ذوقه للكلام ، وبصره بمواقع الحسن والروعة فيه — يحميه من أن يزلّ وينزلق فيتصدّى لمعارضة القرآن ، ويُلقى بنفسه فى هذا البحر ليكون من المغرَقين .. إن المعرّى لأعقل من هذا ، وأعرف الناس بمكانة القرآن ، ومكان الناس منه .. وقد عُرف عنه أنه كان دائماً يزين أدبه بما يَقْبس من كلمات القرآن ، وآياته .. فهل من يفعل هذا يتصدى للقرآن معارضاً أو يلقاه منازلا ؟

استشفع لقوم عند أمير « المعرّة » أسد الدولة .. فقال له فيما قال : « مولانا السيد الأجل أسد الدولة ومقدمها وناصحها — كالنهار الماتع[٣] ، اشتد هجيره[٤] وطاب إبراده[٥] وكالسيف القاطع ، لاَن صفحه ، وخشُن حِدادُه : « خُذِ العَفْوَ ، وأْمُرْ بالعُرْفِ ، وأعْرِضْ عن الجاهلين »[٦] .. أهذا شأن من يعارض القرآن ، ويتصدى له ؟ وهو يغرف من بحره ، وينظم من درره ؟

---

(١) العائذة : الطفلة الصغيرة .

(٢) معجم الأدباء / جزء ٣ ص ١٤٠ (طبعة دار المأمون)

(٣) النهار الماتع : يقال متع النهار إذا ارتفعت شمسه ، وبلغت غاية ارتفاعها .

(٤) الهجير : لفح الحر .

(٥) الإبراد : البرد الذى يعقب الحر ، وذلك فى الغداة والعصر (الأبردان) .

(٦) معجم الأدباء جزء ٣ .

ويسجل أبو العلاء فى « رسالة الغفران » رأيه صريحاً قاطعاً فى إعجاز القرآن .. فيقول : « وأجمع ملحد ومهتد أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، كتاب بهر بالإعجاز ، ولقى عدوّه بالإرجاز ، ما حُذِى على مِثال ، ولا أشبه غريب الأمثال .. ما هو من القصيد الموزون ولا الرجز ، ولا شاكل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنة ، وجاء كالشمس، لو فهمه الهَضْب لتصدّع ، وإن الآية منه أو بعض الآية لتَعْرِض فى أفصح كَلِم يَقْدر عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهاب المتلألىء فى جُنح غسق ، والزهرة البادية فى جَدُوب .. « فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين » (١) .

وكفى بهذا حجراً يَرْمى به أبو العلاء فى فم المتخرصين عليه ، والمتقدمين به فى معركة لم يخضها ، ولم تنزع به نفسه إلى الدخول فيها أبداً ..

وإذ بطل ما يدعيه المدّعون للنبىّ الكاذب « مسيلمة » ، وبطل ما يدّعيه المدّعون للأديب الصادق : « المعرى » فقد بطل كل قول يقال فى معارضة القرآن .. من أدعياء نبوّة ، أو أرباب بيان !

---

(١) رسالة الغفران ص ٢٦٣ .

[فتنة الترتيب النزولى للقرآن]

هناك دعوى دعوة جديدة محمومة بدأت تظهر فى آفاق مختلفة فى محيط العالم الإسلامى ، وفى خارج هذا المحيط ، تدعو إلى إعادة نظم القرآن وجمعه على حسب ترتيب نزوله . . بمعنى أن يكون المصحف القرآنى المقترح ، مبتدئاً بأول آية تلقاها النبى الكريم ، وحياً من ربه ، ثم الآية التى تليها ، وهكذا آية آية ، وآيات آيات ، حتى آخر آية نزلت على النبى . . ! !

وهذا أمر يبدو فى ظاهره أنه دراسة من الدراسات التى تخدم القرآن ، مثل تلك الدراسات التى قامت حول الكتاب الكريم ، كأسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والمكى والمدنى ، والنهارى والليلى ، وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف ، وما نزل بالسفر وما نزل بالحضر ، إلى غير ذلك من تلك الدراسات الكثيرة ، التى تدور فى فلك القرآن ، ولا تمس الصميم منه . .

ومن هنا كان خطر الدعوة ، التى قد ينخدع لها كثير من المسلمين ، والتى ربما اندفع فى تيارها ، بعض العلماء ، عن نية حسنة ، ومقصد سليم ، إذ كان الأمر فى ظاهره ، دراسة فى كتاب الله ، وفتحاً جديداً ، يعد كشفاً من كشوف العلم الحديث فى دراسة القرآن . . ! !

ويبدو الخطر الذى يتهدد القرآن من هذه الفتنة ، ماثلا من وجوه :

فأولا : استحالة ضبط صورة القرآن على حسب الترتيب النزولى لآياته . . حيث لم يُعرف الترتيب النزولى إلا لعدد محدود من آيات القرآن ، لا تمثل إلا أقل القليل منه . . قد لا تتجاوز بضع آيات ، أو عشرات من الآيات على أكثر تقدير . . وحتى هذا القليل الذى يقال إنه معروف الترتيب ، لم يقع الإجماع

بين العلماء عليه ، وحتى إنهم لم يتفقوا على أول ما نزل به الوحى ، كما لم يتفقوا على آخر ما نزل به . . فبينما يقول أكثرهم إن أول ما تلقى النبي من وحى ، هو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم » — بينما يقول أكثرهم هذا ، يقول بعضهم — كما فى صحيح مسلم — إن أول ما نزل من القرآن « المدثر » كما يقول آخرون ، إن أول ما نزل من القرآن « الفاتحة » ثم نزل بعدها المدثر ، ثم الآيات الثلاث الأولى من سورة « نوح » !

وبينما يقول أكثر العلماء ، إن آخر القرآن نزولا هو قوله تعالى : « اليومَ أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ،ورضيت لكم الإسلام ديناً » (٣ : المائدة) إذ يقول آخرون إن آخر ما نزل من القرآن هو : « إذا جاء نصر الله والفتح » ويقول غيرهم إن آخر القرآن نزولا هو قوله تعالى . « واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله » (٢٨١ : البقرة) وفى البخارى أن آخر القرآن نزولا : « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » (١٧٦ : النساء) .

فإذا كان المسلمون لم يتفقوا على أول آيات نزلت من القرآن ، كما لم يتفقوا على آخر ما نزل منه ، فكيف يقع اتفاقهم فيما وراء ذلك ؟ والمعروف أن أوائل الأمور ، وأواخرها أكثرُ إلفاتاً للناس ، وشدًّا لانتباههم ، وإيقاظاً لمشاعرهم ، وتعلقاً بذاكرتهم ، من غيرها !

ثانياً : لو سارت هذه الفتنة إلى غايتها ، وسُلّم لأصحابها أن يمضوا بها كما يشاءون — ومع افتراض النية الحسنة فيهم — فإن الذى سيحدث من هذا هو أن تتغير صورة القرآن تغيراً كبيراً ، لا يصبح معه القرآن قرآناً ، بل سيكون هناك عشرات ، بل مئات وألوف من المصاحف التى تسمى قرآناً ، والتى لا يلتقى

واحد منها مع آخر . . وكل ما فيها أنها آيات القرآن ، انفرط عقدها ، وتناثرت آياتها ، كما تتناثر أجزاء آلة من الآلات الميكانيكية أو الكهربية ، ثم تتناولها أيدى أطفال ، يجمعونها ويفرقونها كما يشاءون !

ونضرب لهذا مثلا من القرآن ، لصورة من تلك الصور التى يمكن أن تجىء عليها سورة كسورة العلق مثلا ، وهى التى يكاد يتفق العلماء على أن الآيات الأولى منها كانت أولَ ما نزل من الوحى . وهى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » إلى قوله تعالى : « علم الإنسان مالم يعلم » .. ثم نصل هذه الآيات بما قيل إنه كان أولَ ما تلقاه النبى بعدها من آيات ، وهى قوله تعالى : « يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر » ثم لنصل بها ما كان تالياً لها فى النزول ، وهى الآيات الثلاث من أول سورة « نوح » . .

ونقرأ هذا القرآن :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم * يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر * إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم * قال يا قوم إنى لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون * يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » . .

هذه صورة ، أو سورة ، مما يمكن أن يقرأ عليه القرآن ، لو أخذ بالترتيب

وهو أمر مستحيل استحالة مطلقة ـ فما جدوى هذا ؟ وماذا يعود على دارسى القرآن منه ؟

لقد أشرنا إلى بعض الأخطار المزلزلة التى تهدد الإسلام ـ شريعة وعقيدة ـ من هذه الفتنة . . فهل وراء هذه المجازفة شىء من الخير ، يقوم إلى جوار هذه الشرور العظيمة الناجمة منها ؟ إن كل شر يقوم إلى جواره بعض الخير ، الذى قد يجعل للشر وجهاً يُحتمل عليه ، ويبرِّر الأخذَ به . . فهل فى هذا الشر أية لمحة من لمحات الخير ؟

والذى نقطع به أن هذا العمل شر محض ، وإن زين أهلُه ظاهرَه بهذا الطلاء الزائف ، تحت شعار الدراسة التاريخية للقرآن ، على نحو الدراسة الجغرافية ، أو الدراسة النفسية ، أو غير ذلك من الدراسات التى تضاف إلى القرآن ، وتدور فى فلكه ، دون أن تمس الصميم منه . .

* * *

ولا نقف طويلا فى مواجهة هذه الفتنة ، ولا نمعن النظر كثيراً فى وجهها الكئيب المشئوم . . وننظر فى كتاب الله ، الذى فى أيدينا ، نظراً مباشراً ، على ما تركه فينا من أُنزل إليه هذا الكتاب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فهذا هو القرآن الذى أُمرنا بالتعبد به تلاوة ، والعمل بأحكامه ، وآدابه على ما تتلوه عليه . . فهذا هو قرآننا ، وهذا هو ديننا الذى نتلقاه من كتابنا . . وإن أية تلاوة تقوم على غير هذا الوجه ، هى كلام ، لا قرآن ، وإن أية شريعة تقوم على غير هذه التلاوة ليست من شريعة الإسلام ، ولا من دين الله ، سواء التقت مع شريعة الله أو لم تلتق معها ، وسواء أوافقت دين الإسلام ، أو خالفته . .

نقول هذا ، ونحن على علم ، وعلى إيمان بأن القرآن الكريم نزل منجما ، ولم ينزل جملة واحدة ، وأنه كان فى مرحله نزوله ، على ترتيب غير هذا الترتيب الذى انتهى إليه ، بعد أن تم نزوله !

فهناك دوران قام عليهما بناء القرآن الكريم . . دور الدعوة . . ثم الدور الذى تلاها . . ولكل من الدورين أسلوبه ، وغايته .

القرآن فى دور الدعوة :

ونزول القرآن فى دور الدعوة ، قام على أسلوب خاص ، من حيث تنجيم النزول ، وترتيبه معاً . .

فمن حيث التنجيم . . لم ينزل القرآن جملة واحدة . . بل نزل آية آية ، وآيات آيات ، حسب مقتضيات الدعوة ، ومستلزمات أحداثها . . وقد بين الله سبحانه وتعالى الحكمة فى هذا ، فقال تعالى : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكث ونزلناه تنزيلا » (١٠٦ : الإسراء) كما زاد ذلك بياناً فى قوله سبحانه : « وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة ! . . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » (٣٢ — ٣٣ الفرقان) .

ومن حيث ترتيب النزول . . فقد نزل القرآن فى هذا الدور لغاية تحقق أمرين :

أولها : اقتلاع الشرك ، الذى كان قد استولى على الحياة الإنسانية كلها ، واغتال مواطن الإيمان فى كل بقعة منها . . ليقيم فى الأرض مكاناً للإيمان بالله ، حتى يعتدل ميزان الإنسانية ، ويكون لها نهار يدور فى فلكها ، مع هذا الليل الطويل الذى تعيش فيه . .

وثانيهما : إقامة شريعة فى تلك المواطن التى قام فيها الإيمان ، حتى تثبت أصوله ، وتطلع ثمراته ، فيكون منها زاد طيب لأهل الإيمان ، يعيشون فيه ، وتطيب لهم وللناس الحياة معه . .

ولتحقيق الأمر الأول ، كانت معركة الإسلام الأولى ، منحصرة فى ميدان الشرك . . ومن هنا كانت آياته التى تنزل فى هذه المرحلة من مراحل الدعوة ، جنداً مرسلة من الله ، تدكّ معاقل الشرك ، وتهدم حصونه ، وتفتح للعقول والقلوب ، الطريقَ إلى الله . .

وقد استغرقت هذه المرحلة الجزء الأكبر من الدعوة الإسلامية ، فى إقامة الحجج على وجود الله ، وكشف البراهين على وحدانيته ، وماله سبحانه من صفات الكمال والجلال ، ثم فى فضح الشرك ، وتعرية آلهة المشركين من كل ما ألقوه عليها من أوهام وضلالات . .

وفى أثناء هذا الدور كانت تتنزل بعض الآيات ، فى الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وفى إقامة مشاعر الناس على الأخوة الإنسانية ، وعلى الصبر ، والرفق ، والإحسان ، إلى غير ذلك مما يليق بمن يعرف الله ، ويؤمن به ، ويدخل فى زمرة الذين يبتغون مرضاته ، ويرجون رحمته . .

فلما انكسرت شوكة الشرك ، وأوشكت دولة أن تدول ، أخذت آيات الله تتنزل بأحكام الشريعة التى تقوم عليها الحياة الروحية والمادية لهذا المجتمع الذى آمن بالله ، وأجلى الشرك من موطنه ، فكان ما ينزل من آيات الله فى هذا الدور ، يكاد يكون مقصوراً على بناء أحكام الشريعة ، من عبادات ، ومعاملات ، وحدود ، ومن سلم ، وحرب ، وغنائم ، وغير ذلك مما ينتظمه دستور الشريعة الإسلامية . .

ومن مقتضيات حكمة الشريعة القائمة على اليسر ، ورفع الحرج ، أن جاءت كثير من أحكام الشريعة متدرجة فى تكاليفها من السهل إلى الصعب ، لأنها كانت تتعامل مع أناس قطعوا شطراً كبيراً من حياتهم فى الجاهلية ، ورسب فى نفوسهم ، واختلط بمشاعرهم كثير من ضلالاتها . . فكان مما اقتضته الحكمة الإلهية أخذ هؤلاء الذين لقيهم الإسلام على أول دعوته ـ بالرفق ، والتلطف ، حتى يألفوا هذا الدين ، ويتعقلوا أحكامه ، ويأخذوا أنفسهم بها . . ولو أخذوا بغير هذا الأسلوب ، لتغير موقفهم من الشريعة ، ولما أحدثت فيهم هذه الآثار العظيمة التى أخرجت منهم خير أمة أخرجت للناس .

هذا هو الخط الذى قامت عليه مسيرة الدعوة الإسلامية ، وعلى هذه المسيرة كانت تتنزل آيات الله بالزاد الذى تحتاج إليه كل مرحلة . حتى إذا كانت آخر آية نزلت من كتاب الله ، كانت الدعوة قد بلغت غايتها ، وآتت الثمر المرجو منها . . فنزل قوله تعالى :

« إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره . . إنه كان تواباً » ـ مؤذناً بمصافحة السماء للأرض ، مصافحة وداع ، بعد أن أودعت فيها هذا الزاد العتيد . . ثم كانت آية الختام : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » !

القرآن بعد دور الدعوة :

وإلى هنا كان الرسول ، قد تلقى القرآن الكريم كله من ربه ، وحفظه فى قلبه ، كما حفظه كثير من المسلمين معه ، كما كان كتّاب الوحى قد استكملوا كتابته .

والسؤال هنا : على أية صورة كان القرآن عند آخر آية نزلت ؟ وهل كان على ترتيب النزول ، أم على هذا الترتيب الذى هو عليه الآن ؟

والجواب على هذا :

أولاً : من المقطوع به أن القرآن عندما نزلت آخر آية منه لم يكن على هذا الترتيب الذى هو عليه الآن ، كما أنه لم يكن على ترتيب النزول . . وذلك أن الرسول ـ بوحى من ربّه ـ كان خلال العشرين سنة أو تزيد ، التى نزل فيها القرآن ، يرتب الآيات ، فيضع ـ بوحى من ربّه ـ آياتٍ مدنيةً فى سور مكية ، كما يضع آياتٍ مكية فى سور مدنية . . فكانت عملية النقل هذه تغيّر من صورة السّور ، طولاً وقصراً ، فيُنقل من هذه السورة آيات إلى تلك ، ومن تلك إلى أخرى ، وهكذا فى اتصال دائم بدوام نزول القرآن ، إلى أن تم نزوله .

وثانياً : بعد أن تم « نزول القرآن » ، ولم تعد ثمة آيات أخرى يوحى بها إلى رسول الله ، كان عمل الوَحى ، مع النبىّ صلوات الله وسلامه عليه ، هو ترتيب القرآن على هذا الترتيب الذى أراده الله سبحانه وتعالى عليه ، وهو ما نجده بين دفتى المصحف ، كما تركه الرسول . بعد تلك العرضة أو العرضتين أو الثلاث ، التى كانت بين جبريل وبين النبىّ ، وهو القرآن المكتوب فى اللوح المحفوظ ، والذى كانت تتنزل منه الآيات حسب تقدير الله تعالى لمكان هذه الآيات من مسيرة الدعوة ، كما يتنزل الغيث على مايشاء الله تعالى من الأماكن .. وكما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

وثالثاً : لم يترك النبى صلى الله عليه وسلم — هذه الدنيا ، ويلحق بالرفيق الأعلى ، حتى كان صحابة رسول الله ، وحتى كان كتّاب الوحى ، قد أخذوا الصورة الكاملة ، فى تحديد دقيق ، للقرآن الكريم ، وعرفوا مكان

كل آية من سورتها ، ومبدأ كل سورة وختامها ، وما بين بدئها وختامها . .

فى مسند أحمد عن زِرّ بن حُبيش ، قال : قال لى أُبىّ بن كعب كأين (أى كم) تقرأ سورة الأحزاب ، أو كأين (أى كم) تَعُدّها ؟ قلت : ثلاثا وسبعين آية . . فقال (أى أُبىّ) : لقد رأيتُها وإنها تعادل سورة البقرة . . ولقد قرأنا فيها : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فاجلدوها ألبتة نكالا من الله والله عزيز حكيم » فرُفع فيما رفع . . ! !

ولقد بُنى على هذه الرواية أن قرآنا كثيراً نسخ تلاوة وحكما ، وأن قرآنا آخر نسخ تلاوة ولم ينسخ حكماً ، كهذه التى يقال إنها كانت آية قرآنية « الشيخ والشيخة » . . وقد عرضنا لموضوع النسخ فى موضع غير هذا . . فلا نعرض له هنا . .

وإنما الذى نقف عنده من هذا الخبر — على اعتبار صحته — هو : كيف كانت سورة الأحزاب تعادل سورة البقرة ؟ وما تأويل هذا ؟ وكيف — سورة الأحزاب ثلاثا وسبعين آية بينما سورة البقرة تبلغ مائتين وست وثمانين آية ؟

والجواب على هذا ، أن سورة الأحزاب فى وقت ما كانت تعدل فى طولها أو امتدادها سورة البقرة ، وأنه فى العرضة أو العرضات التى كانت بين جبريل ، وبين النبى أخذت كثير من الآيات فى سورة الأحزاب مواضعَها من سورة القرآن المكّى ، أو المدنىّ ، حتى صارت على هذه الصورة التى هى عليها . . على حين أن سورة البقرة قد أضيفَ إليها كثير من الآيات التى لم تكن قد ألحقت بها .

وعلى هذا فلم يكن قرآن رُفع من سورة الأحزاب ، تلاوة وحكماً ، بل الذى كان هو قرآن نقل منها إلى مواضع أخرى من القرآن . . كما حدث ذلك

فى كثير من آيات القرآن . . الأمر الذى دعا المشركين والمنافقين ، واليهود ، إلى أن يأخذوا من هذا التدبير الإلهى فى نزول الآيات وأخذها مكاناً من القرآن ، ثم نقلها إلى مكان آخر ، حيث كان وضعها الأخير فيه — إلى أن يقولوا ماذكره الله تعالى عنهم فى قوله سبحانه : « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزّل ، قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ، قل نزله روح القدس من ربك بالحق » .

ونعود إلى ما كنا فيه من ترتيب القرآن بعد دور الدعوة ، فنقول : إنه وقد انتهى دور الدعوة ، وأدى الرسول رسالة ربه ، ودالت دولة الشرك ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً — كان لابد من ترتيب آيات الله ، على هذا الترتيب الذى أمر الله به ، بعد أن نزلت آخر آية من القرآن الكريم . . فقد كان الترتيب النزولى مقدراً بحاجة الدعوة فى مسيرتها من مبدئها إلى ختامها ، وموقوتا بهذا الوقت الذى يكمل فيه نزول القرآن . . فلما تم نزول القرآن ، وختم الرسول دعوته ، أخذ القرآن هذا الترتيب السّماوى ، الذى يعيش فى ظله ، مجتمع مسلم ، آمن بالله ، وبآيات الله ، ورسول الله . . ولم يعد من تدبير القرآن أن يواجه الناس آية آية ، أو آيات آيات ، أو يلقاهم حالا بعد حال ، وحدثاً إثر حدث ، وإنما الذى يلقاهم منذ ختام الرسالة كتابُ الله جميعه . . كأنه آية واحدة هى شريعة الله ، ودستور المسلمين . .

لقد كان القرآن فى دور الدعوة يعمل فى أكثر من جبهة ، فهناك جبهة المشركين . . ثم جبهة أهل الكتاب وخاصة اليهود ، ثم جبهة المنافقين . . ثم قبل هؤلاء وأولئك جميعاً جبهة المؤمنين ، الذين يتلقون هدى السماء ، وينشئون فى حجر الإسلام . فكان للقرآن مع كل جبهة موقف ، وإلى كل طائفة قول ، فلما أتم القرآن رسالته ، لم تعد إلا جبهة المؤمنين ، هى وحدها التى يعنيه أمرُها ،

وهى التى ستصحبه ، وتعيش فى ظله . . جيلا بعد جيل ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . فكان هذا الترتيب الذى رُتب عليه القران بأمر الله ، إلغاءً لعنصر الزمن ، الذى يحدد بدء القرآن ونهايته ، ومولده وفطامه . . فهو كلام الله ، القديم أزلا ، الخالد أبداً . .

وبعد ، فإن هذه الفتنة أخطر سلاح يحارب به الإسلام ، ويُرمى به فى الصميم منه . . وأنه لو قدر لها — لا قدّر الله — أن تجد فى المسلمين من يستمع لها ، أو يغمض العين عنها ، لأتت على الإسلام ، ولنالت منه مالم تنله السيوف والحراب التى وجهها أعداء الإسلام ، من يوم أن ظهر الإسلام ، إلى يوم الناس هذا . . فليتنبه المسلمون إلى هذ الخطر ، وليرصدوا له كل ما لديهم من إيمان بالله وبكتاب الله ، وليضربوا على الأيدى التى تمتد إلى كتاب الله بهذه الفتنة ، بكل ما يملكون من أموال وأنفس : « ولينصرنّ اللهُ من ينصره . . إن الله لقوىّ عزيز » .

* * *

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والمؤمنين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

الفهرس

صفحة

الفاتحة ... ... ج
المقـــدمة ... ... هـ
القضية الأولى : القرآن لفظه ومعناه ١
ما معنى القرآن ؟ ـ هل لفظ «قرآن» عربي أو معرب ؟ ـ
شخصية القرآن . . ـ نظم القرآن . . ـ
القضية الثانية : النسخ ، ولا نسخ فى القرآن ١٣
عودة إلى النسخ ٤٧ ـ تأويل بعض ما يبدو فيه النسخ ٥١ ـ آية
السيف ٦٢ ـ عودة إلى النسخ مرة ثانية ٦٦ ـ ومع النسخ مرة
ثالثة ٧٧ ـ
التكرار فى القرآن ١٠٩
تكرار القصص فى القرآن ١٣٨
فى سورة طه ١٤٦ ـ سورة الشعراء ١٤٧ ـ سورة الأعراف
١٤٩ ـ سورة الإسراء ـ سورة يونس ١٥١ ـ سورة الذاريات ١٥٢ ـ
فرعون وقومه وسحرته ١٥٨
القرآن : قديم أو حادث ١٦٩
منشأ هذا القول ١٧١ ـ الخليفة المأمون يقود هذه المعركة ١٧٢ ـ
فى المعمعة ١٧٤ ـ اللسان أولا ـ مع بشير بن الوليد ١٧٧ ـ
مع على بن أبى مقاتل ـ مع أبى حسان الزيادى ١٧٨ ـ أحمد بن حنبل
فى مواجهة المحنة ١٨١ ـ الجاحظ فى المعركة ١٨٤ ـ

المحكم والمتشابه ١٩٥

لم هذا المتشابه ـ والجواب على هذا ٢٠٥

معارضة القرآن ٢٠٩

الداء القديم ٢١٠ ـ ماذا يقول « عبد الجبار » ٢١١ ـ لا يجوز أن تتفق الأسباب وتختلف النتائج ٢١٢ ـ ما نقل من المعارضة وما لم ينقل ٢١٤ ـ العقل والعادة يكذبان هذه الدعوى ٢١٥ ـ لماذا تنفرد المعارضة بعدم النقل دون غيرها مما رموا به النبي ؟ ٢١٥ ـ الغلبة والقهر من دواعي الإذاعة والانتشار ، مع الكتم والاستتار ٢١٦ ـ المعارضة والمعارضون ٢١٨

فتنة الترتيب النزولي للقرآن ٢١٦

القرآن في دور الدعوة ٢٢١

القرآن بعد دور الدعوة ٢٢٣

للمؤلف

— التفسير القرآنى للقرآن ...

موسوعة فى ستة عشر كتاباً ..

ويذاع من محطة القرآن الكريم يومياً صباحاً ومساء ، منذ أربع سنوات

— إعجاز القرآن ـ فى مجلدين ...

— القصص القرآنى ..

— قضية الألوهية ـ فى مجلدين ..

— النبى محمد « صلى الله عليه وسلم » ..

— على بن أبى طالب ...

— السياسة المالية فى الإسلام ...

— القضاء والقدر « بين الفلسفة والدين » ..

— الخلافة والإمامة . . سياسة وديانة

— عمر بن الخطاب .

— الدعاء المستجاب ...

— المسيح فى القرآن والتوراة والإنجيل ...

— التعريف بالإسلام . . ترجم إلى اللغة الإنجليزية ...

بمعرفة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ..

— الأدب الصوفى فى مفهوم جديد ..

— نشأة التصوف ...

— اليهود فى القرآن والتوراة والإنجيل ...

— تفسير سورة الرحمن « عروس القرآن » ..

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٢/٥٨٩٧